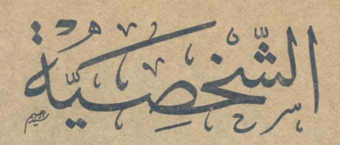
قررت وزارة المعارف هذا الكتاب للسنة الثانية من المدارس الثانوية



تأليف

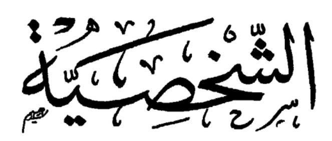
محمد عطية الابراشي
خريج جامعتي اكستر ولندن
المفتش بوزارة المعارف

الطبعة الثالثة ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م

منقحة ومزيدة

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٣٨

قررت وزارة المعارف هذا الكتاب للسنة الثانية من المدارس الثانوية



الشخصية

تأليف

محمد عطية الإبراشي

خريج جامعتي اكستر ولندن

المفتش بوزارة المعارف

الطبعة الثالثة ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م

منقحة ومزيدة

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٣٨

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلىّ القدير ، والصلاة والسلام على نبيه الكريم . وبعد فإن أكبر دليل على توفيق الله ، وتشجيع القراء نفاد الطبعة الأولى من كتاب « الشخصية » بعد ظهوره بأشهر قليلة .

وإنى أنتهز هذه الفرصة لأقدم للقراء ، وللصحافة العربية ، ولكل من قرظه ونقده جزيل الشكر ، ووافر الثناء على ما قاموا به من تشجيع وبحث وتمحيص ، وما كتبوه عنه من مقالات ، وما قدموه من إرشادات .

وللرغبة فى الوصول إلى الحقيقة أعدت النظر فيه ، ونقحته ، وأضفت إليه كثيراً من الاستشهادات ؛ توضيحاً لما فيه من النظريات .

والآن يسرنى أن أتقدم به إلى القراء فى صورة أخرى جديدة ، وكان رائدى دائماً البعد عن الخفاء والالتواء فى شرح الحقائق . وقد ضبطت الكلمات الصعبة وشرحتها ؛ حتى لا أثقل على القارئ فى البحث عن ضبطها ومعانيها .

وإنى بما ذكرت من أخبار الأبطال ، والعظماء من الرجال ، من الشرقيين والغربيين ؛ وبما أوردت من حكمهم البالغة ، وكلماتهم المأثورة ؛ وبما وضحت من النظريات العلمية التى زكتها التجارب ، ودعمتها البراهين من علوم النفس والأخلاق والاجتماع — أرجو أن يوفقنى الله إلى تمهيد سبل العلم للراغبين فيه ، وتقويم المعوجّ من الأخلاق ، وتكوين شخصيات عظيمة تكون عمادًا لمصر فى حاضرها ؛ وقِوَامًا لها فى مستقبلها ؛ لتعيد مجدها الماضى ، وحضارتها الخالدة .

هذا وقد فصلت الفهرس فى آخر الكتاب تفصيلا يسهل على القارئ معرفة ما يحتاج إليه من الآراء والنظريات والاستشهادات .

والله المستعان ، وهو حسبى ، ونعم الوكيل ؟

محمد عطية الابراشى

مايو سنة ١٩٣٧ م

ربيع الأول سنة ١٣٥٦ هـ

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله . وبعد فقد كتب كثير من علماء النفس عن الشخصية ، وأثرها فى الحياة الإنسانية ، وكتبنا عنها فصلاً فى كتابنا[1] « فى علم النفس » ، ولكن عنّ لى فيما بعد أن موضوعًا كالشخصية يحتاج إلى كثير من التفصيل والتمثيل . والآن يسرنى أن أتقدم إلى قراء العربية ، وبخاصة شبان اليوم ورجال الغد ، بذلك الكتاب — إن صح أن نسميه كتابًا — عن المثل الأعلى للشخصية ؛ راجيًا أن يكون ذلك المثل خير قدوة للطلبة والطالبات ، والآباء والأمهات .

ولا أدّعى أنى كتبت ، أو أستطيع أن أكتب ، كل ما يتعلق بالشخصية فى كتاب ؛ فكل ناحية من نواحيها تتطلب كتابًا خاصًّا . وقد حاولت ألا يكون الأسلوب علميًّا جافًّا ، ووضحته بكثير من

---

(١) انظر الفصل الأخير من الجزء الثالث من كتاب « فى علم النفس » تأليف الأستاذين حامد عبد القادر ، ومحمد عطية الإبراشى .

الشواهد الأدبية المتصلة بالناحية العلمية للشخصية ، فجاء سهل اللفظ ، واضح العبارة .

فإذا نجحت فى توضيح ذلك البحث فذلك ما أبغيه ، وإذا وفقت فى أن يكون لتلك الرسالة أثر فى تكوين شخصيات مصرية قوية ، تكون دعامة متينة ، وذخيرة نفيسة لمصر الحديثة ، فهذا كل ما آمله وأرجوه . أسأل الله الهداية والتوفيق .

محمد عطية الابراشى

الأحد { ١٨ من رجب سنة ١٣٥٥ هـ .
٤ من أكتوبر سنة ١٩٣٦ م .

الفصل الأول

الشخصية

مقدمة : —

إذا تَقَدَّمَ أحدُ أقاربِك منَ الشبانِ إلى وظيفةٍ من الوظائفِ ، ثمَّ سُئِلتَ عمَّا تعرِفهُ عنه بالتفصيلِ فقدْ تُجيبُ بأنه شابٌّ أمينٌ نزيهٌ ، صادقٌ فى قولِه ، كريمُ الخُلُقِ ، حسنُ السلوكِ ، سليمُ القلبِ ، طاهرُ السريرةِ [1] ، كثيرُ التفاؤلِ ، قليلُ التشاؤمِ ، يقولُ ما يعتقدُ ، ويعتقدُ ما يقولُ . هـذا من الوِجهةِ الخُلُقِية ؛ أما من الوِجهةِ العقليةِ فهو : ذكىٌّ ، حاضرُ البديهةِ [2] ، حسنُ البصيرةِ [3] ، صافِى الذِّهنِ ، صادقُ الحِسِّ . وأمَّا من الناحِيةِ الاجتماعيةِ فهو : محبٌّ للتعاوُن ، عدوٌّ للأَثَرَةِ [4] ، يشاركُ الناسَ فى مَسرّاتِهم ، ويُؤاسيهم [5] فى أحزانِهم ، يوقِّرُ [6] الكبيرَ ، ويَعطِفُ على الصغيرِ ، مطيعٌ للرئيسِ ، وَفِىٌّ للنظيرِ . وأمَّا من الناحيةِ الجسميةِ ، فهُوَ قوىُّ الجسمِ ، مُعتدِلُ القامةِ ، حسنُ

---

(١) السر الذى يكتم . (٢) الذهن .
(٣) الحجة . (٤) حب النفس والاستبداد بالشىء .
(٥) يعزيهم . (٦) يعظم .

الهيئةِ ، جميلُ الذَّوْقِ . وأما من الوِجهتينِ العلميةِ والعمليةِ ، فهو : مثلٌ فى النشاطِ وأداءِ الواجبِ ، واسعُ الاطلاع ، غزيرُ المادةِ . . . وما إليهاَ من الصِّفاتِ المختلفةِ التى يتصفُ بها ذلِك المثلُ الأعلى من الشبابِ .

فمجموعُ هذِه الصفاتِ يُصَوِّرُ شخصيتَه العليا بصورةٍ واضحةٍ مفصَّلَةٍ . وقد أثبتَ علمُ النفس التطبيقىُّ أن قوَّةَ الشخصيةِ شرطٌ أساسىٌّ للنجاحِ فى الحياة ، وأن المؤهِّلاتِ العلميَّةَ وحدَها لا تَكفى للنجاح ، بل يجبُ أن تُصْحَبَ بالشخصيةِ القوية ؛ فكثيرُونَ من الأطباء والمدرِّسين والمحامين وغيرهم ، قد فَشِلوا فى حياتِهم العمليةِ لضعفِ شخصياتِهم ، مع كفايتِهم من الوِجهةِ العلمية[1] .

ولكنْ ما تلك الشخصيةُ التى طَالَمَا سمِعْنا الناسَ — ولا نزالُ نَسمعُهم — يتكلمونَ عنها ، ولا ندرِى من أمرِها شيئاً ؟ وإجابةً عن هذا السؤالِ نقول :

---

(١) ولا يفهم مطلقا مما تقدم أن الشخصية مقصورة على الصفات المحمودة ، بل إن هناك أشخاصاً ذوى شخصيات معروفة متصفين بصفات ممقوتة ؛ كالخيانة ، واللؤم ، والتشاؤم ، والخداع ، والغباوة ، والأثرة ، وحب العزلة ، وقبح المنظر ، والحمق ، والمهارة فى التلصص .

تعريف الشخصية :

ليس من السهل أن نُحَدِّدَ الشخصية ، ونُعَرِّفَها تعريفاً علمياً جامعًا مانعًا ؛ فهي كالكهرَبا والمغناطيسيةِ والمِذياعِ « الراديو » — لا تُعرَفُ إلا بآثارِها . ولكنَّ هذا كلَّه لا يمنعُنا أن نحاولَ البحثَ عن سِرِّهَا وتعريفِها تعريفاً تقريبيًّا ، فنقول : —

(١) الشخصيةُ : هي مجموعُ الصفاتِ والمزايا الذاتيةِ التي يمتازُ بها الشخصُ من غيره[1] . أو هي :

(٢) مجموعةُ الصفاتِ العقليةِ والخُلُقيةِ والجسميةِ والإراديةِ التي يُتَوَّجُ بها الإنسان . أو هي :

(٣) مجموعةُ الفروقِ التي تُميِّزُ الشخصَ عن غيره .

والحقُّ أن هذه التعريفاتِ كلَّها تقريبية ، وأن الشخصيةَ لا يمكِنُ تحليلُها إلى عناصِرِها الأوَّليةِ تحليلًا مُحسًّا ، ولكنها تبدُو لنا في مِقدارِ ما عند الشخصِ من الاستقلالِ الفكرى ، وحُضُورِ البديهةِ ، وَسُرْعَةِ الخاطر ، وقوةِ الروح ... وهي كالحُبِّ والكُرْهِ اللَّذَينِ لا يمكنُ تعليلُهما عادة ؛ فقد تُحِبُّ شخصاً أو تُبغِضُه لمجردِ رؤيته بدونِ معرفة سَابقة ، وقد لا يمكنُكَ إبداءُ السبب ، وكُلُّ مَا تَستطيعُ أن تَذكُرَهُ

---

(١) سواء أكانت تلك الصفات حسنة أم قبيحة .

هو أن تقولَ : إنى أحِبُّه أو لا أحِبُّه ؛ أما السببُ فلا يمكن تعليلُه ؛ لأنه أمرٌ معنوى ، وسرٌّ خَفِىٌّ يتعلقُ بشخصيةِ ذلك الرجل . وقد يكونُ الشعورُ بالحبِّ أو البُغضِ ناشئاً عن صفاتٍ أو عيوبٍ خاصةٍ فى الشخصِ الذى نَعرِفه ونقابلُه من حينٍ لآخر ؛ فنحنُ نُحِبُّ فُلاناً مَثلا ؛ لأنه مخلص ، كريمٌ ، شجاعٌ ، متفائلٌ ، يُؤاسِى الفقيرَ ، ويساعدُ البائسَ . ونكرهُ فلاناً ؛ لأنَّه لا يعرِفُ الإخلاصَ ، والإخلاصُ لَايَعرِفُه ، يتمثَّلُ فيه البُخْلُ ، والجُبنُ ، والتشاؤمُ ، والقسوةُ ، والغِلظةُ ، لايَحِنُّ إلى مِسكِينٍ ، ولا يتألمُ لحزينٍ . وفى مِثْلِ تلك الأحوالِ نعرفُ إلى حدٍّ مَا سببَ المحبةِ أو الكَرَاهية ؛ ولكنْ ليس ذلك بسهلٍ دائما ؛ فقد نحبُّ الشخصَ لمظاهرِه ، أو نكرهُه لتلك المظاهرِ ، ولَا يمكنُنا أن نوضِّحَ الأسبابَ التى جَذَبتْنَا إليه ، أو التى نَفَّرتنا منه ؛ والسبَبُ الجوهرىُّ هو أنَّ شخصيَّتهُ محبوبةٌ أو مكروهَةٌ .

الشخصية هبة فطرية[1] أم صفة مكتسبة ؟

الجواب أن الشخصيةَ تُوهَب بالفِطرة[2] ، وقد تُكتَسَبُ بالتربيةِ الحقَّةِ ، ولكنَّ الفِطريةَ أقوَى من المكتَسَبةِ . ولو كانت

---

(١) طبعية .　　(٢) الطبيعة والخلقة .

الشخصيةُ هِبَةً طَبعيةً بحسْبُ لـكُنّا ضحايا الظروفِ ، وما كان للتربيةِ أىُّ أثرٍ فى تـكوينِ العظماءِ من رجالِ الدينِ والعـلمِ والأدبِ والفنِّ ، ولـكنَّ أثرَها لا يُنـكَرُ فى تـكوينِ الشخصيةِ والعظمةِ فى نفوسِ العظماءِ . وهنا نسأل هلْ قامت التربيةُ وقام المُرَبُّونَ حقا بواجبهم نحوَ تربيةِ الشخصية ؟ هـلْ قامُوا بواجبهِم وقد أصبحْنا نفـكرُ فيما فـكرَ فيه غيرُنا ، ونتكلمُ بمـا قاله سوانا ، ونفعلُ مثلَ مَن سَبقَنا ؟ إنّنا أصبحْنا مُقَلِّدِين فى أفـكارِنا وأقوالِنا وأفعالِنا ، مُهملِين أنفسَنا وشخصياتِنا ؛ لأن التربيةَ تربيةٌ اتـكاليةٌ ، لا تَعرفُ معنى الثقةِ بالنفسِ ، والاعتمادِ على النفسِ فى التفـكيرِ والقولِ والعملِ . وقد نادَى كبارُ المربين وبخاصةٍ « السـير برْسِى نَنْ[1] » المربِّى الإنكليزىُّ الـكبيرُ بأن الغرضَ من التربيةِ هو تربيةُ الشخصيةِ المستقلّةِ . وكُتُبُ التربيةِ فى وَادٍ ، والمدارسُ فى وادٍ آخرَ ؛ فبينما نقولُ : يجبُ أن يُرَبَّى الفردُ تربيةً كاملةً من كلِّ الوجوهِ جسميًّا وعقليًّا وخُلقيًّا واجتماعيًّا ، نجدُ أن الفردَ مُهَملٌ إهمالًا تامًّا من جميعِ الوجوهِ ، وأن شخصيتَهُ تُطْبَعُ بالطابَعِ المدرسِىِّ ، وتُصَبُّ فى قالَبٍ خاصٍّ فتفقدُ مظاهرَها الطبعيةَ ؛ كلُّ ذلك حبًّا فى النظامِ . ولسْنا ننكرُ أن النظامَ يجبُ أن يكونَ سائدًا ، بل إننا

(١) Sir T. Percy Nunn.

نُنادِى بالنظامِ ، ونقول دائمًا : النظامُ هو الحياةُ ، ولكننا نعترضُ على الطريقةِ التى بها يَسُودُ ذلك النظامُ ، تلك الطريقة التى تقتلُ شخصيةَ الطفلِ ، وتُضْعِفُ مواهبه ، ونُرِيدُ طريقةً أخرى بها يَسْتَتِبُّ النظامُ من غيرِ إضرارٍ بعقليةِ الطفلِ أو وجدانِه أو إرادتِه أو جسمِه أو شخصيتِه . وليستْ هذه الطريقةُ بسهلةٍ ؛ لأنها تتطلَّبُ مشاركةً فى الوجدانِ ، وفهماً لكلِّ فردٍ من جهةِ الذكاءِ والميولِ والبيئةِ والظروفِ .... وما ذلك بالأمرِ الهَيِّن؛ فنحنُ لا نُفكِّرُ إلا فى المظاهرِ والنظامِ الشكلىِّ ، والسكونِ العسكَرِىِّ ، مهما ضحَّينا فى سبيلِ هذهِ الأشياء من الضحايا . وإذا تحقَّقت الثقةُ بين المعلِّم والمتعلِّم ، ووُجِدت الصلةُ الرُّوحِيَّةُ بينهما ، فمن المحالِ أن تكونَ هناك صعوبةٌ فى نظامٍ أو غيرِه ، ولن يُضَحَّى بشخصيةِ الفردِ أو الأفرادِ بَعدُ .

الاختلاف فى الشخصية

كما أنَّ الناسَ يختلِفون فى الذكاءِ والميولِ الفِطْرِيَّةِ ، كذلك يختلفون فى الشخصيةِ ؛ فبينما تجدُ هذا قوىَّ الشخصيةِ ، قد تجدُ ذاك خاملًا ضعيفَ الشخصيةِ . وكما أن الشخصيةَ تختلفُ باختلافِ الأفرادِ كذلك تختلفُ باختلافِ الشعوبِ ؛ ففى الشخصيةِ الألمانيةِ تتمثَّلُ

الروحُ العسكريةُ والطاعة العمياء، والاتّكالُ على الحكومةِ في كثيرٍ من الأعمالِ. وفي الشخصيةِ الإنكليزيةِ تبدُو الثقةُ بالنفسِ، واحترامُ الذاتِ، وتقديرُ الحريةِ الشخصيةِ، والاستماتةُ في سبيلِها . وفي الشخصيةِ الأمريكيةِ تَظْهرُ الروحُ العامَّةُ أو «الديموقراطية» وعدمُ الاكتراثِ للتقاليد؛ لأن أمريكا كأُمَّةٍ حديثةٍ لا تقاليدَ لها . وفي الشخصيةِ الفَرنسيةِ تتغلبُ العاطفةُ على التفكيرِ، والنظرياتُ على الأعمالِ، وتكثُرُ الآمالُ، والميلُ إلى الخيالِ، وحُبُّ الظهورِ؛ فكل فَرَنسي يريدُ أنْ يكونَ ضابطاً إذَا تَقدمَ للحرب، ولَاندرِي مِنْ أيْنَ يُؤتَى بالجنود إذا كان الجميعُ ضبَّاطًا . وإذا كانوا ضباطا فإنهم لا يُفكرون في الجنودِ ولا يختلطون بهم، خوفا من أنْ يَقلَّ احترامُهم . والمِثْلُ يقالُ في العلاقةِ بين المدرسينَ والتلاميذِ؛ فأولئك في وادٍ، وهؤلاء في وادٍ آخرَ، والصِّلةُ بين هؤلاءِ وأولئكَ لا تتجاوزُ صِلةَ الحجرةِ الدراسية، تزولُ بمغادرتها، وتتجدَّد بالعودةِ إليها .

فالشخصيةُ صفةٌ نِسبيةٌ، وقوةٌ سِرِّيَّة، توجدُ في كلِّ شخص إلى حَدٍّ ما، وتختلفُ في نوعِها وقوتِها باختلافِ الأشخاصِ. وقد تكونُ بارزةً واضحةً في بعضِ الأفرادِ يشعرُ بها الإنسانُ في الحال، وقد تكونُ كامنةً خفيةً في بعضِهم الآخر .

ولكلٍّ فردٍ صفةٌ تخصه ، وشىءٌ يُعرَف به ؛ فهِيرُودُوسُ كان معروفاً بالظلم ، وسيدُنا عمرُ بنُ الخطابِ (رضىَ اللهُ عنه) كان مشهوراً بالعدالة ، ومعاويةُ بالسياسةِ والحلم ، وخالدُ بنُ الوليدِ وصلاح الدين الأيوبىُّ بالبطولةِ والشجاعةِ والإقدامِ ، وحاتم الطائى بالكرم ، ومُسَيْلِمةُ بالكذب ، و (شَارْلزْ دِيكِنْز) بالدفاعِ عن الفقراء ، و (إسحق نيُوتن) و (أديسُون) بالمثابرة ، و (نابليونُ) بقوةِ الإرادةِ والعزيمةِ ، و (أبراهَامُ لِنْكُولْن) بالعطفِ على المساكين ، و (چورج واشِنْطون) بالوطنيةِ الصادقةِ ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول بالتفانى فى الدفاعِ عن الوطن ، و (شَارْلى شابِلنْ ، ولُوريل ، وهارْدِى) بالفكاهة ...

وليست الشخصيةُ مقصورةً على جنسٍ دُونَ آخَر ؛ ولا على طبقةٍ دونَ أخرى ؛ فكما تكون بين المتعلِّمين تكونُ بين غيرِهم ، وكما تكونُ بين المدَنيِّينَ تكونُ بين القَرَويِّين ، وكما تكونُ بين الرجالِ تكونُ بين النساء ، وكما تكونُ بينَ الأغنياء تكونُ بين الفقراء ، ولكلٍّ تفكيرُهُ وتقاليدُه وطرُقُه ومعيشتُه الخاصةُ .

الفصل الثانى

العناصرُ الرئيسيةُ التى تتكَّونُ منها الشخصيةُ القوية

إنَّ العناصرَ الجوهريةَ التى تتكونُ منها الشخصيةُ القويةُ كثيرة منها : الجاذبيَّةُ ، والنشاطُ العقلىُّ ، والمشاركةُ الوجدانيةُ ، والشجاعةُ ، والحِكمةُ ، والتفاؤلُ ، والتواضعُ ، وحُسنُ مَظهرِ الإنسانِ وقوامِه[1] ، وقوةُ البيانِ ، والثقةُ بالنفسِ ، واعتدالُ المِزاجِ . وَلنتكلمْ عن كلٍّ عُنصرٍ منها فنقولُ :

١ — الجاذبية

هى قوةٌ طبَعيةٌ إنْ وُجدتْ فى الشخصِ استطاعَ أن يجتذبَ قلوبَ غيرِهِ ممن يَتصلونَ بهِ ، بدونِ أن يتكلَّفَ أو يتصنعَ ، وهذا العُنصرُ يُعَدُّ من أقوَى العناصرِ التى تتكونُ منها الشخصيةُ إن لم نَقُلْ أقواها . ولكن بماذا يجتذبُ الإنسانُ غيرَهُ من الناسِ ؟ الجوابُ أنَّه يستطيعُ أَنْ يجتذبَهم ويُسَيطرَ عليهم بأدبِه وعِلمِه ، وضبطِ نفسِهِ ، وسدَادِ[2] رَأيه . وسُرعةِ خَاطرِه ، وحُسنِ حديثِه ، وكرَمِ خُلقِهِ ،

---

(١) قوام الرجل : قامته وحسن طوله .

(٢) صواب .

ومُرَاعاةِ شعورِهم ، ومُشاركتِهم فى وجدانِهم ، وهذهِ الصفات بعضُها وراثىٌّ ، وبعضُها يمكنُ أن يُكتَسَبَ بالتربيةِ والتعليمِ ، فى البيتِ والمدرسةِ والملعَبِ والمجتمع .

وقد يَسْتثقِلُ الإنسانُ الشخصَ قبلَ أن يختبرَهُ ، وبالتحادثِ معهُ قدْ يَعجَبُ بعلمِهِ وحديثِهِ ، فيتبَدَّلُ الحالُ ، فيُصبحُ النفورُ إعجاباً ، والازدِراءُ إجلالًا .

وبحسْنِ المعاملةِ ، واللِّينِ فى غيرِ ضَعفٍ ، يجتذبُ الإنسانُ قلبَ غيرِهِ ، ويصلُ إلى أشياءَ لا يمكنُهُ الوصولُ إليها لو التجأ إلى الشدَّةِ والعُنفِ . وبالسياسةِ والقوةِ الروحيةِ تستطيعُ أن تحصُلَ على غرَضِك ، وتكسِبَ ثقةَ النّاسِ بكَ .

الفصل الثالث

٢ ــ النشاطُ العقليُّ او الذكاء

العنصرُ الثانى من العناصر المكوِّنةِ للشخصيةِ القويةِ هو النشاط العقليُّ ، أو الذكاءِ ، وبعبارةٍ أخرى حضورُ الذهنِ ، وسرعةُ الخاطرِ ، وصَفاءِ القريحةِ(١) . فقد يكونُ الرجلُ مثقفاً ، واضحَ التفكيرِ ، غزيرَ المادةِ ، واسعَ الاطلاعِ ، ولكنَّه قد لا يكونُ مُتَّقِدَ العقلِ ، وَضَّاءَ الفِكر ، حاضرَ البديهةِ ، فلا يعرِفُ المرادَ باللَّحْظِ(٢) ، كما لا يفهمهُ باللَّفظِ ، ولا يُعاينُ فى الناظرِ(٣) ما يَجرى فى الخاطرِ(٤) ، ولا يَستطيعُ أن يُدْرِكَ ما يرمى إليهِ مُحَدِّثُهُ ، ولا أن يُشارِكَه فى رأيهِ . وقد تكونُ المرأةُ وَسيمةَ(٥) الوجهِ ، حَسَنَةَ المنظرِ ، جميلةَ الملبَسِ ، ولكنَّها فاقِدَةٌ ذلكَ النشاطَ الفكريَّ والاتقادَ العقليَّ ، فتَعجزُ عن التأثيرِ فى غيرِها ، أو اجتذابهِ أو السيْطرةِ عليهِ ، فهىَ كصورةٍ جميلةِ المنظرِ ، ولكنَّها فاقدةُ الرُّوحَ الفنِّيةَ ، تلك الروح التى تؤثِّر فى الصورة ، فتُعطيها قوةً وتأثيراً ، وحياةً معنويةً .

---

(١) الذهن . (٢) الإشارة . (٣) المتأمل .
(٤) النفس . (٥) حسنة الوجه .

فللنشاطِ العقليِّ تأثيرٌ حسنٌ في شخصيةِ الإنسانِ ، وفي ارتفاعِ منزلتِه بينَ إخوانِه وذويهِ . وللغباوةِ وقلةِ الفطنةِ والكسلِ العقليِّ أثرٌ سيءٌ في خمولِ الشخصِ وتأخرِه وعجزِه ، وارتكابِه الجرائمَ أحياناً . ولا عجبَ إذا قلنا : إنَّ معظمَ المجرمينَ من الأغبياءِ وضعافِ العقولِ .

وتبدُو شخصيةُ الأذكياءِ في أعمالِهم وأقوالِهم ، كما تبدُو في مَنطقِهم وتفكيرِهم المنظَّمِ ، وآرائهم المرتَّبةِ ، وحُجَجِهم القويةِ ، وحسنِ اعتذارِهم ، وبُعدِ نظرِهم ، وقدرتِهم على التخلصِ بسهولةٍ من المشكلاتِ التي تعترضُهم بما أُوتوا من نشاطٍ عقليٍّ ، وحدَّةِ ذهنٍ ، وصدقِ حِسٍّ .

وممَّن كانَ يُشهدُ لهم بالذكاءِ وحضورِ البديهةِ ، كثيرٌ من رجالِ العربِ ونسائِهم وأطفالِهم . ولنذكرْ لك كثيراً من قِصَصِهم فنقولُ :

قِيلَ للعبَّاسِ بنِ عبدِ المطلبِ : أنتَ أكبرُ أمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ؟ قال : هُوَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أكبرُ منِّي ، وأنا وُلدتُ قبلَهُ .

وقيلَ : شخَصَ[١] مُضَرُ وربيعةُ وإيادٌ وأنمارٌ أولادُ نِزارٍ إلى أرضِ نَجرانَ ، فبينما هم يسيرونَ إذ رأى مُضر كَلأً[٢] قد رُعِيَ ، فقالَ :

(١) شخص من بلد إلى بلد : ذهب .
(٢) الكلأ : العشب رطبا كان أو يابساً .

البعيرُ الذى رعَى هذا أعورُ . فقال ربيعةُ : وهو أَزْوَرُ . وقال إيادٌ : وهو أبْتَرُ . وقال أنمارٌ : وهو شَرُودٌ .

فلم يَسيرُوا إلَّا قليلًا حتى لقِيَهم رجلٌ على راحلةٍ[1] ، فسألهم عن البعيرِ . فقالَ مضر : أهو أعورُ ؟ قال : نعمْ . قال ربيعةُ : أهو أزورُ[2] ؟ قال : نعمْ . قال إيادٌ : أهوَ أبْتَرُ[3] ؟ قال : نعمْ : قال أنمارٌ : أهو شرودٌ[4] ؟

فقال الرجلُ : نعمْ ، هذهِ واللهِ صِفاتُ بعيرى ، دُلّونى عليهِ .

فحلَفوا أنَّهم ما رأَوْهُ . فلزِمَهُم ، وقال : كيف أصدِّقكُم وأنتم تصِفُونَ بَعيرِى بصفتهِ ؟

فسارُوا حتى قرُبوا نجرانَ ، فنزلُوا بالأفعَى الجُرْهُمِىِّ[5] . فنادَى صاحبُ البعيرِ : هؤلاءِ القومُ وصَفُوا لى بعيراً فقدتُهُ بصفتِهِ ، ثم أنكَرُوه .

فقالَ الجُرهمىُّ : كيف وصفتُموهُ ولم ترَوْه ؟

فقال مُضر : رأيتُه يرعَى جانبًا ويدَعُ جانبًا ، فعلمتُ أنَّه أعورُ .

---

(١) الراحلة : الناقة .

(٢) الأزور : الذى يقبل على شق حين سيره لميل فى صدره ، أو لعلو أحد جانبيه .

(٣) بَتَرَهُ : قطعه قبل الإتمام . والأبتر : المقطوع الذنب .

(٤) شردَ البعير : نفر ، فهو شارد ، وشرود .

(٥) نسبة إلى جُرْهُم وهى حىّ من اليمن تزوج فيهم إسماعيل عليه السلام .

وقال ربيعةُ: رأيتُ إحدَى يديهِ ثابتةَ الأثرِ، والأخرَى فاسدَةَ الأثرِ، فعلمتُ أنه أفسدَها بشدَّةِ وطئِهِ لِازْوِرَارِهِ. وقال إيادٌ: عرفتُ بَتَرَهُ باجتماعِ بَعْرِهِ، ولو كان ذَيَّالًا[1] لتفرَّق. وقال أنمارٌ: إنما عرفتُ أنَّه شَرودٌ لأنه كان يرعَى في المكانِ المُلتفِّ نَبْتُه، ثم يجُوزُه إلى مكانٍ أرَقَّ منه وأخْبَثَ.

فقال الأفعَى: ليسوا بأصحابِ بعيرِك. ثم سألَهُم عن أمرِهم، فأخبرُوه. فرحَّب بهم، وأضافَهُم، وبالَغَ في إكرامِهم[2]. وهذا مثَلٌ واضحٌ للفِراسةِ العربيَّةِ، والذكاءِ العربيِّ، وقُوَّةِ الملاحظةِ.

وقِيلَ: استودعَ رجلٌ آخرَ مالًا، ثم طلَبه، فجَحَدَهُ، فخاصَمه إلى إياسٍ[3] القاضي، فقالَ الطالبُ: إني دفعتُ المالَ إليهِ.

فقال القاضي: ومن حضرَك؟

قال: دفعتُه في مكان كَذا وكَذا، ولم يحضُرْنَا أحَدٌ.

قال: فأيُّ شيءٍ في ذلك الموضِع؟

قال: شجرةٌ.

---

(١) الذيال: الطويل الذيل، المتبختر في مشيه.

(٢) من كتاب ثمرات الأوراق للحموي جـ ١ ص ١٠٥.

(٣) هو إياس بن معاوية، يضرب به المثل في الذكاء والفراسة، كان قاضيا بالبصرة، ومات سنة ١٢٢ هـ وعمره ٧٦ سنة.

قال : فانطلِقْ إلى ذلكَ الموضِع ، وانْظُر الشجرةَ ، فلَعَلَّ اللهَ تعالى يُوَضِّحُ لك هُناكَ ما يَتَبَيَّنُ بهِ حقُّكَ ، لعلَّك دفنْتَ مالكَ عندَ الشجرةِ ونَسيتَ فتتذَكَّرَ إذَا رأيتَ الشجَرةَ ، فمَضى الرَّجُلُ .

وقال إياسُ للمتَّهَمِ : اجلِسْ حتى يرجعَ خَصْمُكَ فجلسَ ، وإياسٌ يَقْضِي وينظُر إليه ساعةً ، ثم قال له : يا هـذا ! أترى صاحبَك بلغَ موضِعَ الشجرةِ التي ذكَرَ ؟

قال : لا !

قال إياسٌ : يا عدُوَّ اللهِ إنَّك لخائِنٌ !

قال : أَقِلْني[1] أقالَك الله ! فأمر من يحتفِظُ به حتى جاء الرجل .

فقالَ لهُ إياس : قدْ أَقَرَّ لكَ خَصْمُكَ بحقِّك ، فخذْهُ .

وحكى : دخلَ مَعْنُ بنُ زائدةَ على أبي جعفرٍ المنصور ، فقاربَ خَطوَه ، فقالَ المنصُور : لقد كبِرتْ سِنُّك . قال : في طاعتِك . قال : وإنَّكَ لَجَلْدٌ[2] . قال : على أعدائِك . قال : وأرى فيكَ بقيةً . قال : هِيَ لكَ . فانظرْ إلى أجوبةِ معْنٍ تجدْ أنَّها تدُلُّ عَلَى سُرعةِ الخاطرِ ، وحُسنِ الجوابِ .

---

(١) سامحني .

(٢) جَلْد : صُلْب وشديد .

وقيل إنَّ غلاماً أشرأبَّ(١) للكلام وقد حضرَ معَ وَفْدِ أهلِ الحجازِ لما اُسْتُخْلِف عمرُ بنُ عبد العزيزِ (رضى الله عنه) ، فقالَ عمرُ : يا غلامُ ، لِيتكلمْ مَنْ هُو أَسَنُّ منكَ .

فقال الغلامُ: يا أميرَ المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه : قلبِه ولسانِهِ ؛ فإذا مَنَحَ اللهُ عبدَه لِساناً لافِظاً ، وقلباً حافِظاً ، فقدْ أجادَ له الاختيارَ . ولو أنَّ الأمورَ بالسِّنِّ لكانَ ههُنا منْ هُوَ أحَقُّ بمجلسِك منكَ !

فقال عمرُ : صدقْتَ ؛ تكلمْ ؛ فهذا السِّحرُ الحلالُ .

فقالَ : يا أميرَ المؤمنِينَ ، نحنُ وفدُ التهنئةِ ، لا وفْدُ المَرْزِئَةِ(٢) ، ولم تُقدِمْنا إليك رغبةٌ ولا رَهبةٌ ؛ لأنّا قد أمِنّا فى أيامِكَ ما خِفْنا ، وأدركْنا ما طلبْنَا . فسألَ عُمَرُ عن سنِّ الغلامِ ، فقيل عشرُ سنينَ .

وَقَدْ أُدخِل طِفلٌ يُدْعَى الرَّكَّاضَ وهوَ ابنُ أربعِ سنواتٍ إلى الرشيدِ ليتعجبَ من فِطنتهِ ، فقال لهُ : مَاذَا تُحِبُّ أَنْ أهَبَ لكَ ؟ قالَ : جميلَ رأيك ؛ فإنى أفوزُ به فى الدنيا والآخرةِ . فأَمَرَ بدنانيرَ ودراهمَ فَصُبَّت بينَ يديْهِ . فقالَ لهُ : اختَرِ الأحبَّ إليك . فقال : الأحبُّ إلىَّ أميرُ المؤمنينَ ، وهذا من هذينِ ، وضربَ بيدِهِ إلى الدنانيرِ . فضحِكَ الرشيدُ ، وأمرَ بضمِّهِ إلى وُلْدِهِ والإنفاقِ عليه .

---

(١) تطلع . (٢) الاستعطاء .

وزارَ خليفةٌ من بني العباسِ يوما وزيرَهُ في دارِهِ ، وكان لهُ ولدٌ نجيبٌ . فلمَّا جلسَ الخليفةُ أَجلسَ الصبيَّ إلى جانبِهِ وسألهُ : « أَدَارُ الخليفةِ أحسنُ أم دارُ أبيكَ ؟ » . فأجابَ الصبيُّ على الفوْرِ : « متى كانَ الخليفةُ في دارِ أبي فدارُ أبي أحسنُ » . ثم أراه خاتَمًا ثمينًا في خِنْصَرِه وسأله : « هلْ رأيتَ خيراً منْ هذا الخاتَم ؟ » فقال الصبيُّ : « نعمْ ، اليدُ التي هوَ فيها خيرٌ منهُ » .

فدهِشَ الخليفة من حُسْنِ جوابهِ ، وقال له : « هَلْ تُحِبُّ أن تكونَ خليفةً بعدِي ؟ » فقال الصبيُّ : « ابنُ الخليفةِ أولَى منِّي ؛ فهوَ صاحبُ الحقِّ في الخلافةِ ، وأنا لستُ منَ الخائنينَ » . فزاد سرورُ الخليفةِ من هذَا الجوابِ الذي يدُلُّ على الذكاءِ والوَلاءِ ، والتفتَ إلى أبيهِ وقال له : « لا بُدَّ أن يكونَ لابنك هذا شأنٌ متى بلغَ الرجولةَ » .

ودخلَ المأمونُ يومًا بيتَ الدِّيوانِ ، فرأى غلامًا جميلًا على أُذنِهِ قلمٌ ، فقال : مَنْ أنتَ يا غلامُ ؟ قال : أنا الناشئُ في دولتِكَ ، المتقَلِّبُ في نعمتِك ، المؤمِّلُ لخدمتِكَ ، الحَسنُ بنُ رَجاء .

فقالَ المأمون : بالإِحسانِ في البديهةِ تفاضَلت العقولُ ، ارفعُوا هذا الغلامَ فوقَ مرتبتِهِ .

وقيلَ إنَّ رجلًا تكلَّمَ بينَ يدَى المأمونِ فأحسنَ ، فقال المأمونُ :

ابنُ مَن أنتَ ؟ قالَ : أبنُ الأدبِ يا أميرَ المؤمنينَ ، قال : نِعْمَ النَّسَبُ أنتسبْتَ إليهِ .

وقال الأصمعيُّ : قلتُ لغلامٍ حدَثِ السنِّ من أولاد العربِ : أَيَسُرُّكَ أن يكونَ لكَ مائةُ ألفِ دِرْهمٍ وأنَّك أحمقُ ؟ فقال : لا واللهِ ! قلتُ ولِمَ ؟ قال : أخافُ أنْ يَجْنِيَ عليَّ حُمْقِي جِنَايةً تذهبُ مالِي ويبقى عَلَيَّ حُمْقِي .

ودَخل إياس بنُ معاويةَ الشامَ ، وهو غلامٌ صغيرٌ ، فتقدَّمَ على خصْمٍ له أمامَ بعضِ القُضاةِ ، وكان الخصمُ شيخًا كبيراً ، ثم صالَ[1] عليه إياسٌ بالكلامِ . فقال لهُ القاضي : خَفِّضْ[2] عليكَ ، فإنهُ شيخٌ كبيرٌ . قال : الحقُّ أكبرُ منهُ . قال : اسكتْ ! قال : فمَنْ ينطِقُ بحُجَّتِي ؟ قال : ما أراكَ تقولُ حقًّا . قالَ : لا إلهَ إلا اللهُ !

فدخل القاضى على عبدِ الملك بن مروانَ فأخبرهُ . فقال : أقضِ حاجتَهُ الساعةَ وأخرِجْهُ من الشامِ لئلا يُفسدَ عليَّ الناسَ .

وَحُكِيَ أَنَّهُ لمَّا مدحَ أبُو تمَّامٍ الطائيُّ[3] الشاعرُ المعروفُ أحمدَ ابن المعتصمِ بقصيدتِه السينيّةِ وانتهى فيها إلى قوله :

(١) استطال ، وجاوز حد الاعتدال .   (٢) هون .
(٣) نشأ بمصر ، وكان يسق الناس بالجرة فى جامع عمرو بالفسطاط ، وكان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير القاطيع والقصائد .

إِقدامُ عمْرٍو ، في سماحَةِ حاتمٍ * في حِلْمِ أحنفَ ، في ذكاءِ إياسِ

قال لهُ أبو يُوسفَ يعقوب الكِنديُّ الفيلسوفُ ، وكانَ حاضرًا :
« الأميرُ فوقَ منْ وصفْتَ » . فأطرقَ مليًا ، وقال :

لا تُنكِروا ضربِي له مَنْ دُونَهُ * مثلًا شَرُودًا في النَّدَى والبَاسِ

فاللهُ قد ضربَ الأقلَّ لنورهِ * مثلًا من المِشكاةِ وَالنِّبْرَاسِ

ولمَّا أُخِذت القصيدةُ منْ يدِهِ لم يجدُوا فيها هذينِ البيتينِ ، فَعَجبُوا من سُرعتِه وفِطْنتِهِ . ولمَّا خرجَ قال الفيلسوفُ : هذَا الفتَى يموتُ قريبًا ، فكانَ كما قالَ .

ولمَّا قصدَ أبُو تمَّامٍ المذكورُ عبدَ اللهِ بنَ طاهرٍ بخُرَاسانَ وامتدحَهُ بالقصيدةِ التي أوَّلُها :

« هُنَّ عَوَادِي يُوسفٍ وصواحبُه »

أنكرَها عليه أبُو العَمَيْثَلِ وقالَ لهُ : لِمَ لا تقولُ ما يُفهمُ ؟ فقال لهُ : لِمَ لا تفهمُ ما يُقالُ ؟ فاستحسنَ منه هذا الجوابَ على البديهةِ .

وقال (ثمامةُ بنُ أشرسَ) أحدُ كبارِ العلماءِ زمنَ المأمُونِ : « دخلتُ إلى صَديقٍ لي أعودُهُ ، وتركتُ حِمارِي بالبابِ ، ثمَّ خرجتُ ، وإذا بصبيٍّ عليهِ ، فقلتُ له مؤنبًا ولائِمًا : « لِمَ تركبُ حِمارِي بغيرِ إذْنِي ؟ »

فأجابنى الصبىُّ قائلًا : « خفتُ أنْ يذهبَ فحفظتُهُ لكَ » . فعجبْتُ منْ هذَا الجوابِ ، وأردتُ أن أُسكتَ الصبىَّ ، وقلتُ لهُ :

لو ذهبَ ما باليتُ بذهابِهِ . فأجابنى على الفورِ قائلاً : « إنْ كانَ هذا رأيَكَ فى الحمارِ ، فاعملْ على أنهُ قد ذهبَ ، وهبْهُ لى ، وأرْبَحْ شُكرِى » . فلمْ أدْرِ ما أقولُ .

وَروَى ابنُ الجَوْزِىِّ فى كتاب «الأذكياء» أن أبا حامدٍ الخُراسانىَّ القاضى قال : بَنَى ابنُ عبدِ السلامِ الهاشمىُّ بالبصرةِ دارًا كبيرَةً ، ولمْ يتمَّ له تربيعُها إلا بمَسْكَنٍ لطيفٍ كانَ لعجُوزٍ فى جوارِه امتنعَتْ من بيعِه . فبذَلَ لها أضعافَ ثمَنِهِ ، فأقامتْ على الامْتِناعِ . فشكَا إلىَّ ذلكَ . فقُلتُ هذا من أيسرِ الأمرِ ! أنا أُوجبُ عليهَا بيْعَه ، فأضطرُّها إلى أن تسألكَ وَزْنَ الثَّمنِ .

ثمَّ استدعيتُها فقلتُ : يا هذه ! إن قيمةَ دَارِكِ دُونَ ما دَفعَ لكِ ، وقد ضاعَفها أضعافًا ، فإنْ لم تَقْبَليِهِ حَجَرْتُ عليْكِ ؛ لأنَّ هذا تضييعٌ منْكِ .

فقالتْ : جُعلت فِدَاكَ ! فهلَّا كان هذا الحَجْرُ منْكَ على مَنْ يزِنُ فيما يُساوِى دِرهمًا عشرةً وتركتَ منزلى ! ما أختارُ بيعَه . فانقطعتُ[١] فى يدها .

---

(١) أى انقطعت حجتى ، ولم يمكنى أن أجادلها لقوتها فى حجتها .

وَقالَ الحجّاجُ لامرأةٍ من الخوارجِ : وَاللهِ لأعُدَّنَّكُمْ عَدًّا ، ولأحصِدَنَّكم حَصْدًا . فقالَتْ : أنت تحصِد ، والله يزرعُ ؛ فانظرْ أينَ قدرةُ المخلوقِ من قدرةِ الخالقِ .

ودخلَ رجلٌ على شُرَيْحٍ القاضِي يخاصمُ امرأةً لهُ فقالَ : السلامُ عليكم . قال : وعليكُم . قال : إنى رجلٌ من أهلِ الشامِ : قال : بَعيدٌ سَحِيقٌ[١] . قالَ : وإنى قدِمْتُ إلى بلدِكم هـذَا . قال : خيرَ مَقْدمٍ . قالَ : وإنى تزوّجْتُ امرأةً . قال : بالرِّفاء[٢] والبنينَ . قالَ : وإنَّها ولدتْ غُلاماً . قالَ : لِتهنأْ بالفارسِ . قالَ : وقدْ كُنتُ شرطْتُ لها صداقَها . قال : الشرطُ أمْلَكُ . قال : وقد أردتُ الخروجَ بهـا إلى بلدِى . قالَ : الرجلُ أحقُّ بأهْلِهِ . قال : فاقضِ بيننَا . قال : قد قضيتُ .

وخرجَ الحجاجُ ذاتَ يومٍ فأصْحَرَ[٣] ؛ وحضر غَدَاؤُه فقـالَ : اطلُبوا من يتغذَّى معِى . فطلبُوا ، فإذا أعرابىٌّ فى شَمْلَةٍ[٤] فأُتِىَ به . فقال : السلامُ عليكُم . قالَ : هَلُمَّ أيُّها الأعرابىُّ ؟ قالَ : قدْ دعانِى مَنْ هوَ أكرمُ منك فأجبتُهُ . قالَ : ومنْ هوَ ؟ قالَ : دعانِى اللهُ ربِّى إلى الصومِ ، فأنا صائمٌ . قالَ : وصومٌ فى مثل هذا اليومِ الحارِّ ؟ قال : صُمتُ

---

(١) بعيد .

(٢) الاتفاق والطمأنينة .

(٣) برز إلى الصحراء .

(٤) الشملة كساء دون القطيفة يشتمل به .

ليومٍ هو أحرُّ منْهُ . قالَ : فأَفْطِر اليومَ وصُمْ غَداً . قالَ : ويَضمنُ لى الأميرُ أنِّى أعيشُ إلى غَدٍ ؟ قالَ : ليسَ ذَاكَ إليْهِ . قال : فكيْفَ يسأَلُنِى عاجِلاً بآجلٍ ليْسَ إليهِ ؟ قالَ : إنهُ طَعامٌ طيِّبٌ . قال : ما طيَّبَهُ خبازُكَ ولا طبّاخُكَ . قالَ : فمَنْ طيَّبَهُ ؟ قال العافيةُ . قال الحجاجُ : بالله مارأيتُ كاليومِ ، أَخرِجُوهُ !

ومِن المنقولِ[1] أن بَعضَ اللصُوصِ دخلَ بيتاً ومعهُ جماعةٌ تحتَ أمرِهِ ونَهْيِهِ فى القتلِ والسرقةِ ، فظفِرُوا بصاحبِ البيتِ ، وأوقفُوه للقتلِ فتدخلَ[2] عليهم فى إبقاء مُهْجَتِهِ[3] ، وأخْذِ ما فى البيتِ بكمالِهِ . فقالَ كبيرُهُمْ : حَلِّفوهُ بالطلاقِ الثلاثِ وعلى المصحفِ أنَّهُ لا يُعلِمُ بِهِم أحداً . فأصبحَ الرجلُ يرَى اللصوصَ يبيعونَ متاعَهُ ، ولا يقدِرُ أنْ يتكلمَ لأجلِ اليمينِ . فجاءَ إلى أبى حنيفةَ وأعلمَهُ حالَه ، فقال لهُ أحضِرْ أكابِرَ حيِّك ، وأذِّنَ جيرانِك ، وإمام جماعَتِك . فلمَّا حضرُوا قال لهُم أبُو حنيفةَ : هلْ تُحِبُّونَ أنْ يَرُدَّ اللهُ على هذا الرجلِ متاعَهُ ؟ قالُوا نعمْ . فقال أجمَعُوا دَاعرِيكُم[4] ، فأَدْخِلوهُمُ الجامعَ ، ثم أخرِجُوهُمْ واحداً واحداً . وكُلَّمَا خَرجَ منهُم واحدٌ قُولُوا : هـذا لِصُّكَ ؟ فإن كانَ ليْس

(١) من كتاب الأذكياء لابن الجوزى . (٢) دخل بالحيلة .
(٣) المهجة : الدم ، وقيل دم القلب خاصة . وخرجت مهجته أى روحه .
(٤) الداعر : الفاسد .

بلصِّهِ قالَ لَا ، وإنْ كان لصَّه فليَسْكتْ . فإذا سكتَ فاقْبضُوا عليهِ . ففَعَلُوا ذلك . فردَّ اللهُ عليْهِ ما سُرِقَ مِنْهُ .

وَمنهُ أنَّ الإمامَ أبَا حنيفةَ (رضى الله عنه) قال : دخلتُ الباديةَ ، فاحتجتُ إلى الماء ، فجاءنى أعْرابىٌّ ، ومعهُ قِرْبةٌ ملآنةٌ ، فأبى أنْ يبيعَها إلا بخمسةِ دراهمَ . فدفعتُها له ثم أخذتُ القربةَ ، فقُلتُ : ما رأيُك يا أعرابىُّ فى السَّويقِ[1] ؟ فقال : هاتِ ! فأعطيتُهُ سَويقاً مَلْتُوتاً بزيتٍ ؛ فجعل يأكل حتى امتلأ ثُمَّ عطِشَ فقال : علىَّ بشَرْبةٍ ! فقلتُ بخمسةِ دراهمَ على قدحٍ من ماءٍ . فاستردَدتُ الخمسةَ وبقِىَ الماءُ .

وقيلَ إنَّ غلاماً لقِىَ أبا العلاء المعرِّىَّ فقالَ . من أنتَ ياعمِّى ؟ أأنتَ القائلُ فى شعرِك :

وإنى وإن كنتُ الأخيرَ زمانُه * لآتٍ بما لم تستطعْه الأوائلُ

قال : نعمْ . قال : يا عمّاهْ ، إنَّ الأوائلَ قد رتَّبُوا ثمانيةً وعشرينَ حرفاً للهِجاء ، فهلْ لك أنْ تزيدَ عليها حرفاً ؟ فَدهِش المعرِّىُّ من ذلكَ ، وقال : إن هذا الغلامَ لا يعيشُ ؛ لشدة حِذْقِه[2] ، وتوقُّدِ فؤادِهِ .

وحَكَى المدائنى قالَ : خرجَ ابْنُ زيادٍ فى فوارسَ ، فلقُوا رجلاً ومعه جاريةٌ لم يُرَ مثلُها فى الحسْنِ ، فصاحُوا به : خلِّ عنها ! وكان معهُ

---

(١) ما يعمل من الحنطة والشعير . (٢) مهارته .

قوسٌ ، فرَمَى أحدَهم ، فهابُوا الإقدامَ عليهِ ، فعادَ ليرمىَ ، فانقطعَ الوَترُ ، فهجمُوا عليهِ ، وأخذُوا الجاريةَ ؛ فهربَ ، واُشتغلُوا عنه بالجارية ، ومدَّ بعضُهم يدَه إلى أُذنِها وفيها قُرطٌ ، وفي القُرطِ دُرةٌ يتيمةٌ لها قيمةٌ عظيمةٌ . فقالت : وما قَدرُ هذهِ الدّرّةِ ؟ إنَّكم لو رأيتُم ما في قَلَنْسُوَتِهِ من الدُّررِ لاستحقرتُم هذهِ . فتركوهَا واتَّبعُوهُ ، وقالُوا لهُ : ألْقِ ما في قَلَنْسُوَتِك ! وكانَ فيها وَترٌ قد أعدّهُ فنَسِيَه من الدّهَشِ ، فلما ذَكرَهُ ركَّبهُ في القوسِ ، ورجَع إلى القومِ ، فولَّى القومُ هاربينَ ، وخلَّوا الجاريةَ .

وقيلَ إنَّ مُوسى الهادِيَ كان يوماً في بُستانٍ . ومعهُ أهلُ بيتِهِ وخاصته ، وهو راكبٌ على حمارٍ وليسَ معهُ سلاحٌ ، فدخلَ عليهِ حاجبهُ ، وأخبرَهُ أنَّ رجلاً منَ الخوارجِ جِيءَ بهِ أسيراً ، وكان الهادِي حريصاً على الظَّفَرِ بهِ ، فأمر بإدْخالهِ ، فأُدْخِلَ عليهِ بين رجلينِ قدْ أمسكا بيديهِ . فلما رأَى الخارجيُّ الهادِيَ جذبَ يدَيْهِ من الرَّجُلينِ ، واُستلّ[1] سيفَ أحدِهمَا ، ووثبَ نحوَ الهادِي . ولمَّا رأَى ذلك مَنْ حولَ الهادِي مِن أهلِه وخاصَّتهِ فرُّوا جميعاً ، وبقِيَ الهادِي وحدَهُ . فثبتَ على حمارهِ بمكانه حتَّى إذَا قرُبَ الخارجيُّ منهُ ، وكادَ يعلُوه بالسيفِ ، قال الهادِي : اُضربْ يا غلامُ عنقَهُ ! ! فالتفتَ الخارجيُّ حينَ سمِعَ ذلك ، فأسرعَ الهادِي ،

---

(١) أخذ وانتزع .

ووثبَ عنْ سرْجهِ ، وقبضَ على الخارجيّ ، وانتزَعَ منْهُ السيفَ فذبَحه بهِ ، ثم عادَ إلى ظهرِ حمارهِ ، وتراجعَ إليه أهلُهُ وبطانَتُه يتسلّلونَ . وقد مُلِئُوا رُعباً وخجَلاً ، فلم يخاطبْهم فى ذلك الهادى بحرفٍ واحدٍ .

ويُحكَى أنَّ أعرابيًّا مدحَ أميراً بقصيدةٍ بديعــةٍ ، فلماً قرأها أستكثَرها عليه بعضُ الحاضرِينَ . ونسبَهُ إلى سَرِقتها . فأرادَ الأميرُ أنْ يعرفَ حقيقةَ الحالِ . فأمر لهُ بمُدٍّ [1] من الشعيرِ ، وقالَ فى نفْسهِ : إن كانَ لهُ بديهةٌ فى الشعرِ فلا بدَّ أنْ يقولَ شيئاً فى شَرْحِ حالهِ .

فأخذ المُدَّ الشعيرَ فى ردائهِ ، وخرجَ ، فقال الأميرُ للبوابينَ سرًّا لا تُمكِّنُوهُ منَ الخروجِ . فوقفَ الأَعرابىُّ فى الدِّهليزِ حائراً ، فبعث إليه الأميرُ منْ سألهُ وقال لهُ : ما شأنك يا أعرابىُّ ؟

فقالَ : إنى أمتدحتُ الأميرَ بقصِيدةٍ .

قالَ : فما أَجازَكَ عليها ؟

قالَ : هذَا المُدُّ من الشعيرِ . فقال لهُ : هَلْ قلتَ فى ذلكَ شَيئاً ؟

قالَ : نعمْ . قالَ ما هوَ ؟ فأنشد على البديهةِ :

يقولون لى أرْخَصْتَ [2] شِعْركَ فى الوَرَى [3]

فقلت لهمْ من عُــدْمٍ [4] أَهْلِ المــكارمِ

---

(١) مكيال خاص . (٢) جعلته رخيصا .
(٣) الخلق . (٤) فقر .

أُجزْتُ(١) على شِعرى الشـعيرَ وإنَّهُ
كثيرٌ إِذَا خلَّصتُه من بهائم

فلما بلغ الأميرَ هذانِ البيتانِ أُعْجِبَ بهمَا ، وعلِمَ أنَّ القصيدةَ من نظمه ، فأمر له بجائزةٍ سَنيَّةٍ .

وقيلَ كانَ أحمدُ بنُ طولونَ يأْكلُ يومًا فى إحـدَى خدائقهِ ، فرأى سائلاً فى ثياب رَثَّةٍ ، فأرسلَ إليه غلامًا برغيفٍ ودجاجةٍ وشريحةِ لحمٍ ، وَقطعةٍ من الحلوى . فرجعَ الغلامُ من غيرِ أنْ يأْخذَ السائلُ منه شيئًا ، فأمرَ ابْنُ طولونَ به فأُحضِرَ ، وأخذَ يسألُه ، فأجابَ من غيرِ أن يتلجلجَ أو يضطربَ من هيبتِه ، فاتَّهمهُ بأنّهُ جاسوسُ بعضِ الأعداء ، فاعترفَ الرجلُ بذلكَ .

فقال بعضُ الحاضرينَ : هذا واللهِ السحرُ ، فقال أحمدُ بنُ طولونَ ، ما هُوَ بسحرٍ ، وَلـكِنَّنِى رَأَيتُ سوءَ هيئةِ الرجلِ ، وإباءه عنْ طعامٍ يَتمنَّى الشبعانُ أَنْ يأْكلَه ، وكذلِكَ رَأَيتُ جُرأَتَه وَثباتَهُ ، فحكمتُ عليه بمـا حكمتُ .

وممنْ كانُوا مَدِينينَ لذكائِهِمْ بنجاحِهِمْ فى حياتِهِم من الإفرنجِ «أبراهامُ لِنْسكولنُ» ؛ أحدُ رؤساءِ الولاياتِ المتحدةِ الذين تدينُ لهم

(١) نلت جائزة .

تلك الولاياتُ اليومَ بما فيها من تقدُّمٍ وَرُقِيّ وإصلاحٍ . «وُلد في ١٢ من فبراير سنة ١٨٠٩» . وكان أبوهُ نجّارًا عاديًّا ، وقد تُوُفِّيَتْ والدتُه ولمَّا يبلغْ من العمر عشرَ سنينَ . تعلم مبادئَ القراءةِ والكتابةِ وهو طفلٌ . وكانت أمُّه قبلَ وفاتِها تُعْنَى به العنايةَ كلَّها ؛ فاختارتْ له منَ الكُتُبِ الكِتابَ المقدسَ ، وكتابًا عن حياةِ «جورج واشِنْطونَ» فقرأهما وأعادَ قراءتَهُمَا مرارًا حتى كادَ يحفظُهما . وكان في بعضِ الأحيانِ يسيرُ أميالًا ليستعيرَ كتابًا يقرؤُهُ . كان في حياته الأولى عاملًا ، ثم ثقَّفَ نفسَهُ بالقراءةِ في أوقاتِ الفراغِ . وكان في الليلِ يُوقِد قِطعًا من الخشبِ ، يتدفَّأُ بنارِها ، ويقرأُ على نُورها . ولولا ضيقُ المقامِ والخوفُ من الخروجِ عن الموضوعِ لكتبنا عنهُ الكثيرَ ، فارجعْ إلى تاريخِ حياته إن شئْتَ . وكلُّ ما نريدُ أن نذكرَهُ هو أنَّهُ درسَ القانونَ أخيرًا ، ثم كان مُحاميًا مِدْرَهًا يُشار إليه بالبَنانِ ، حاضرَ الذهنِ ، مُتَّقِدَ الفِكْرِ ، قويَّ الشخْصيَّةِ ، ثم كانَ عضوًا بمجلس النوابِ ، فسياسيًّا ، فرئيسًا للولايات المتحدةِ بأمريكا . فضَّلَتْهُ زوجهُ — وكان فقيرًا — على مُنافسٍ آخرَ من الأغنياءِ . وقد اختارتْهُ زوجًا لذكائِه وإخلاصِهِ ، وشَخصيتِهِ . تنبأَتْ أنهُ سيكونُ عظيمًا ، وقد كان مثالًا للعظمةِ . وإذا كانَ «واشنطونُ» قد حرَّرَ الولاياتِ المتحدةَ ، فقد قضي «لِنْكُولْنُ»

على ما فيها من الاضطرابات ، وقام بكثير من الإصلاحاتِ ، وقد ترك «لِنْكُولْنُ» اسماً خالداً محبوبًا ، لا منَ الأمريكيِّينَ فَحَسْبُ ، بل من أبناءِ الإنسانيةِ في جميعِ الشعوبِ . وقد كانَ يعملُ للإنسانيةِ ، ويفكِّرُ كثيرًا في الإنسانيةِ . ويُنسَبُ إليه كثيرٌ من الحكاياتِ التي تقرُبُ من الخيالاتِ والرواياتِ .

وممن كان لِحِدَّةِ ذهنِهِمْ وشخصيتِهِمْ أثرٌ كبيرٌ في نجاحِهم أيضاً «اللوردُ مَا كولِي» الأسكتلنديُّ ؛ فقد كان كاتبًا وشاعرًا ، وكان مؤرِّخًا وقانونيًّا ، وكان خطيبًا وسياسيًّا . وُلد في ٢٥ من أكتوبر سنة ١٨٠٠ م ، وتُوفِّي في ٢٨ من ديسمبر سنة ١٨٥٩م . أظهر حُبًّا للقراءةِ ، وتعطشاً للعلمِ منذُ نعومةِ أظفارِه . توسّمَ[1] فيه أبواه كثيرا من علاماتِ الذكاءِ والمقدرةِ العقليةِ منذُ طفولتِهِ ؛ فقد قلَّدَ «السير وُولْتَرسْكوت» في كتَابهِ وعمرُه لم يزدْ على سبع سنينَ ، فكتبَ ثلاثَ قصائدَ ، ومختصرًا تاريخيًّا عامًّا وهو طِفلٌ . كانَ قويَّ الذاكرةِ ، محبًّا للعملِ ، مُولعًا بالأدَبِ ، وبخاصةٍ الرواياتِ . وكثيرا مَا لامهُ أبوهُ عَلَى قراءتِهَا . انتسبَ في أكتوبر سنة ١٨١٨ إلى جامعةِ «كمبرِدْج» ، وحصلَ على أربعِ جوائزَ منهَا . وفي حياتهِ العمليةِ اشتغلَ بالقضاءِ ،

---

(١) تفرّس فيه أبواه .

ثمَّ اتخذَ الأدبَ مِهنةً لهُ ، ثم انتسبَ إلى أحدِ الأحزابِ السياسيةِ ، ونجحَ في حياتهِ النيابيةِ نجاحًا باهرًا ؛ لنشاطِهِ العقليِّ ، وتأثيرِهِ الخَطَابيِّ ، وإخلاصِهِ في قولهِ . وكان ينضَمُّ لآرائِهِ كثيرُونَ ، حتى من المعارضينَ لحزْبهِ . وله خطبةٌ هي آياتٌ بيناتٌ يُدَافعُ فيها عن تعميمِ التعليم المجانيِّ ، تدُلُّ على غيرتِهِ ، وحُضورِ بديهتِهِ . ولم يفخرْ الشعبَانِ : الإنكليزيُّ وَالأسكتلنديُّ إلى اليومِ بأحدٍ من رجالِ السياسةِ وَالأدبِ فخرَهما بما كُولِي . ومن كتَابتِهِ تكادُ تَلمِسُ قوةَ حجتِهِ ، ورُوحَ خطَابتِهِ ، ووضوحَ لغتِهِ ، وصفاءِ ذهنِهِ ، وسلامةَ ذوقِهِ في كتَابتِهِ ، وجَمالَ تعبيرِهِ ، وَحُسنَ أسلُوبهِ ، ووفَاءِهِ لبلَادِهِ وأقاربهِ وأصدقائِهِ . تكادُ تَلْمِسُ نقدَهُ المرَّ البريءَ الذي يُنبئُ عن الإخلاصِ والإيمانِ .

وممن كان لحضورِ بديهتِهِمْ أثرٌ في فوْزِهِم « المستر لُويدْ جُورْج » رئيسُ حزبِ الأحرارِ بانجلترَا ؛ وقد حدَثَ أنه كانَ يخطبُ في مجتمعٍ في أثناءِ الانتخاباتِ ، فسألهُ أحدُ الحاضرينَ مُقاطِعًا إياهُ :

أيذكُرُ (المستر لُويدْ جُورْج) أباه بمَرْكبتِهِ وحمارِهِ ؟ فأجابهُ (المستر لويدْ جُورج) بلَباقتِهِ المأثورَةِ : « نعمْ ، أذكرُ ذَلِكَ ؛ أمَّا المركبةُ فلا أدري عنها شيئًا ، وأما الحمارُ فها هُوَ ذَا يُذكِّرُني بنفسِهِ » ، مُشيرًا إلى مَن قاطعهُ ، فكانَ جوابًا مُضحكًا مُسْكتًا .

فالنَّشاط العقليُّ يُسَاعدُ على النجاةِ ، كما يساعدُ على النجاحِ فى الحياةِ . ويُنْقِذُ الإنسانَ من أدقِّ المراكزِ ، ويحفَظُ شخصيتَهُ فى أشدِّ المواقِفِ ، ويُسَهِّلُ الصعبَ ، ويُقَرِّبُ البعيدَ . ولهُ أثرٌ كبيرٌ فى حُسْنِ الخُلقِ والسلوكِ . وبالإحصاء وُجِدَ أَنَّ أكرمَ حُكامِ «أُورُبة» خُلُقًا فى القرونِ الثلاثةِ الأخيرةِ الماضيةِ كانوا على قِسْطٍ كبيرٍ من الذكاء.

الفصل الرابع

٣ — المشاركةُ الوجدانيَّة

العُنصرُ الثالثُ من العناصرِ التى تتكوَّنُ منها الشخصية ، يدعَى المشاركةَ الوجدانيَّةَ ؛ فإذا لم نَشعُرْ بشعُورِ النَّاسِ ، ولم نُشاركْهم فى مَسَرَّاتِهم وأحزانِهم ، ولم نتأثرْ بآرائِهم وأفكارِهم ، فهذا دليلٌ على أنَّنا فى حاجةٍ إلى أن نَضَع أنفُسَنا موضِعَهم ، مهْما كانتْ علاقتُهم بِنا ، على شرطِ أنْ يكونَ لدينا اُستعدادٌ للفهمِ والتفكيرِ والشعورِ ، مهْما كانت مراكزُنا بالنسبةِ إليهم ، منْ غيرِ نظرٍ إلى رئيسٍ أو مرءوسٍ ، غنيٍّ أو فقيرٍ ، عظيمٍ أو حقيرٍ ، رفيعٍ أو وضيعٍ ، وألا تكونَ مناصِبُنا العاليةُ حجرَ عَثرةٍ فى سبيلِ فهْمِنا لغيرِنا ، وتقديرِ ظروفهِ المحيطةِ به ، بل تكون مُعيناً لنا على أنْ نُشاركَهُ فى حالاتهِ ؛ فنُسرَّ لسرورهِ ، ونتألمَ لآلامهِ . وبذلك نمتلكُ قلبَه .

أما صاحبُ المِزاجِ البارِدِ الذى يتمثَّلُ فيـــه الجمودُ والقسوةُ والغلظةُ ، فلا يتأثرُ لما ينْتابُ غيرَه من نَكَبَاتٍ ، ولا يُحبُّ أنْ يتفاهمَ مع أحدٍ ؛ فهو ينفِرُ من النَّاسِ ، والناسُ يَنفِرُون منْهُ ، وهو يؤثر فى

غيْرِهِ بالإِيذاء ، كما يؤثِّرُ الهواءُ الباردُ فى النباتِ الغَضِّ الشديدِ الإِحساس، فيتجمَّدُ قبلَ أن ينموَ أو يترعرعَ .

ومن أكبرِ عيوبِ (نابليونَ) الَّتى كانَ يتخلّقُ بهَا ، شدةُ قسوتِهِ على النوعِ الإِنسانىِّ ، وعدمُ مشاركتِهِ له فى شُعورِهِ ، ومِنْ ثَمَّ كانتْ شخصيتُهُ غيرَ كاملةٍ . وإنّنا فى الوقتِ الذى نطالبُ فيه بالعدالةِ نُطالبُ أيضاً بالرحمةِ .

ومن الحِكمةِ — إذا كنتَ رئيساً — أنْ تصلَ بالمشاركةِ الوجدانيةِ إلى تنفيذِ جميعِ رغباتِك ، من غيرِ الْتجاءٍ لإِظهارِ سُلطتِك ؛ وأنْ تفوزَ بطاعةِ مرءوسيكَ ، من غيرِ احْتماءٍ بالقانونِ . ومن المهارةِ أن تُبينَ لمرءوسيك غلطاتِهم ، ومواضِعَ ضعفِهم ، وتُسَيِّرَهم كيفَ تشاءُ بدونِ أنْ تَحُطَّ من كرامتِهم ، وبدونِ أنْ تُظْهِرَ لهم أنّكَ أعلى وأرقى منهُم ، ومنْ غيرِ اضطرارٍ إلى اتِّخاذِ شدةٍ أو عُنفٍ . إذا أمكنك الوصولُ إلى كلِّ هذا ، كانت شخصيتُك قويةً ، وكان تأثيرُكَ كبيراً .

وإنَّ قوّةَ التأثيرِ لا تستدعِى قسوةً أو غِلْظَةً ، ولكنّها تستدْعِى أنْ تُشارِكَ الناسَ فى شعورِهم ووجدانِهم ، وتتألَّمَ لما يَدْهَمُهم[1] من حوادثِ الدهرِ ، وتؤاسيَهم فيما يُلِمُّ بهم من نوائبِه ، وتنظرَ إلى

(١) دهِمَهم الأمر : غَشِيهم ، وبابه فهم .

حسناتِهم قبل سيئاتِهم ، وفى صوابِهم قبل خطئِهم ، وتقدرَ حَسَناتِهم إذا أحسنُوا ، وتفكرَ فى البواعثِ التى اُضطرتهُم إلى الخطأ إذا أخطئُوا ، وتعدلَ فى أحكامِك إذا حكمتَ ؛ لا تنزعُ[1] إلى جانبِ الظلمِ ، ولا تميلُ إلى ناحيةِ التّهاونِ . وبهذهِ الوسيلةِ تكونُ قويًّا ، ليِّنًا فى غيرِ ضَعفٍ ، مُتواضعًا فى غيرِ ذِلَّةٍ ، موفّقًا فى عَمَلِك ، محبوبًا عندَ غيرِكَ .

أمَّا هؤلاءِ الذين يَلجئُون إلى الشدَّةِ والقَسْوَةِ دائمًا فهم ضُعفَاء ، يشعرونَ بالضعفِ فيلجئُونَ إلى الغِلظةِ ؛ ظَانّين أنّهُم بتلكَ الطّريقةِ ، يَستُرونَ ذَلك الضعفَ ، ويكمّلونَ ذلكَ النقصَ ، مَثَلُهُم مَثَلُ الكلابِ تنبَحُ فى الطُّرقِ ، لا فى ضوءِ النّهار ، بل فى ظلامِ الليلِ ؛ كىْ تبحثَ عن فريسةٍ تفترسُها ، أو خيانةٍ تخونُها ، أو طعامٍ تسرِقُه . هُمْ كالكلابِ تسرُّهم عيوبُ غيرِهم ، ويفرحون لهفواتِ سواهُم . وأمثالُ هؤلاء لا شخصيةَ لهم ؛ فأشخاصُهم مكروهةٌ ، وأسماؤُهم منبوذةٌ ، وأفعالُهم مذمومةٌ مَشئُومةٌ .

فالمشاركةُ الوجدانيةُ من أهَمّ عناصرِ الشخصيةِ ، تجعلُ القلبَ متّقدًا ، يشعرُ بشعورِ غيرِهِ ، ويقيسُ نفسَه بمقياسِ سواهُ من الناسِ ،

---

(١) تميل وتذهب .

يقولُ « السير وُولْتَرسْكُوت[١] » الكاتبُ الأسكتلنديُّ الكبيرُ :
« إن المشاركَةَ الوجدانيةَ هى الحلْقةُ الفِضيَّةُ ، أو الرِّباطُ الحريرىُّ ، الذى يصلُ القلبَ بالقلبِ ، ويربطُ العقلَ بالعقلِ وبالجسمِ وبالروحِ » .

فإذا كانت الشخصيةُ هى القوةُ التى يُجتذَبُ بها غيرُنا ، فالمشاركَةُ الوجدانيةُ من أهمِّ الأشياءِ التى بها نتصلُ بقلوبِ غيرِنا وأرواحِهِمْ .

قِيل لأعرابىٍّ : ما بالُ المراثى أجودُ أشعارِكُم ؟ فقالَ : « لأنَّا نقولُ وأكبادُنا تحترقُ » . وفى المراثِى تبدُو المشاركَةُ الوجدانيةُ .

وإذا قدرْنا غيرَنا ، وفكَّرنا فيهِ ، وسُررنا لسروره ، وتألمْنا لألمهِ ، فإنَّنا ننتظِرُ منه أنْ يقابلَ المِثلَ بالمِثْل ، فيقدرَنا ويُفكرَ فِينا ، ويُشاركَنا فى سعادتِنا وشقائِنا بوجدانِه وقلبِه . أما إذا لم نُقدِّرْ أحداً ، ولم نُفكرْ فى أحدٍ ، فإنَّا لا نترقَّبُ أنْ يقدِّرَنا أوْ يُفكرَ فينا أحدٌ .

قال أفلاطونُ[٢] : إنّ إشراكَنا غيرَنا فى مَسَرَّاتِنا يَزيدُنا إحساساً بتلكَ المسرّاتِ . وقال أرسطوُ[٣] : إنَّنا فى حُبِّنا الخيرَ لغيرِنا وفى بَحْثِنا

---

(١) Sir Walter Scott (١٧٧١ — ١٨٣٢ م .) من أكبر الكتاب الأسكتلنديين القصصيين المعروفين بالإخلاص ، وصدق العزيمة ، وقوة الإرادة ، له روايات كثيرة تمثل الحياة الاجتماعية فى أسكتلندة وغيرها ، وشعره أقل منزلة من نثره .

(٢) أفلاطون : ولد فى أثينا سنة ٤٢٨ ق . م ، وتوفى سنة ٣٥٧ ق . م . فيلسوف يونانى من تلاميذ سقراط . ومن مؤلفاته الخالدة كتابا « الجمهورية » و « القوانين » .

(٣) أرسطو : ولد سنة ٣٨٤ ق . م . وتوفى وعمره ٦٢ سنة تقريبا ، كان مربيا للإسكندر المقدونى .

عنه نجدُ لأنفسِنا خيراً . وقال سِنِكا[1] : لو أُعطيتُ الحِكمةَ كلَّها لنفسى على أنْ أستأثرَ بها وأمنعَها عن إخوتى بنى الإنسانيةِ لَكَرِهْتُ الحِكمةَ .

ومن المشاركةِ الوجدانيةِ أنْ يُخْلِصَ الأستاذُ فى نُصحِ طلبتهِ وإرشادهم ، والتفكيرِ فى عملِهم وظُروفِهم ، ومُستقبلِهم ؛ فيُقابل الطلبةُ ذلك بالوفاء والطاعةِ والتقديرِ .

فالشخصيةُ القويةُ تتطلَّبُ أن نتأثَّرَ لغيرِنا ، ويتأثَّرَ غيرُنا لنا ، ونَشعُرَ بشعورِهم ، ويَشعرُوا بشعورِنا . ولا أثرَ للتربيةِ والتعليمِ إذا لم يُصحبا بمحبةِ غيرِنا ، والتفكيرِ فيهم بقُلوبِنا . فالمشاركةُ الوجدانيةُ يَجبُ أنْ تتحققَ فى القادةِ : قادةِ الفكْرِ ، وقادةِ العملِ ؛ حتى تكونَ لهم شخصيةٌ جذابةٌ قويةٌ .

غيرَ أنَّه ينبغِى ألَّا يتدخلَ الوجدانُ والعاطفةُ فى أقوالِنا وأفعالِنا ، وحركاتِنا وسكناتِنا تدخُّلاً كبيراً ؛ كى نستطيعَ أن نزنَ الشىءَ بميزانِ العدالةِ ، لا بميزانِ العاطفةِ . ويجبُ ألا ننظرَ إلى الأمورِ من ناحيةٍ واحدةٍ ، وهى الناحيةُ الوجدانيةُ ؛ لئلا يَختلَّ التوازنُ ، ويُصبحَ العقلُ

---

(١) سِنِكا : (٣ ق . م — ٦٥م) : فيلسوف رومانى ، عرف بالخطابة وقوة الحجة .

عبداً خاضعاً للتأثيراتِ الوجدانيةِ العاطفيةِ التى تُعمِينا عن حقائقِ الأشياء وعلاقاتِها بغيرها .

وممن تتمثَّلُ فيهم المشاركةُ الوجدانيةُ سيدُنا عمرُ بنُ الخطابِ رضى اللهُ عنْهُ ؛ أُنظرْ إلى ما رواهُ أسلمُ . قال : خرجتُ مع عمرَ بنِ الخطابِ إلى حَرّةِ وَاقم[1] ، حتى إذا كُنا بِصرار[2] إذا نارٌ تُؤرَّثُ[3] ، فقال : يا أسْلمُ ، إنى أرى هؤلاءِ رَكْباً[4] قصَّرَ بِهِم الليلُ والبردُ . انطلِقْ بِنا . فخرجْنَا نُهروِلُ حتَّى دنوْنَا مِنْهم ؛ فإذا امرأةٌ معها صِبيانٌ لها ، وقِدرٌ منصوبةٌ على النار ، وصبيانُها يتضَاغَوْنَ[5] .

فقال عمرُ : السلامُ عليكُمْ يا أصحابَ الضوء . قالت المرأةُ : وعليك السلامُ . فقال : أ أدنُو ؟ قالتْ : أُدْنُ بخيرٍ أو دَعْ . فقال : ما بالُكم ؟ قالت : قصَّر بنا الليلُ والبردُ . قال : ما بالُ هؤلاءِ الصبيةِ يتضَاغَوْنَ ؟ قالت : الجوعُ . قال : وأىُّ شىءٍ فى هذهِ القدرِ ؟ قالتْ ، ماءٌ أُسْكِتُهُم به حتى ينامُوا . اللهُ بيننَا وبين عُمرَ . فقال : أىْ رحِمَكِ اللهُ ، مايُدرِى عمرَ بِكُم ؟ قالت : يتولى أمورَنا ويَغفلُ عنَّا ؟

---

(١) قرية لبنى مرة ، قرب خيبر بظاهر المدينة .

(٢) بلد بقرب المدينة . (٣) أرَّث النار : أوقدها .

(٤) جمع راكب . (٥) يصيحون .

فأقبلَ عليَّ ، فقال : انطلقْ بنا . فخرجْنا نهرولُ حتى أتينا دار الدقيقِ . فأخرجَ عِدْلا[١] فيه كُبَّةٌ[٢] شحمٍ . فقال : أحمِلهُ عليَّ . قلتُ : أنا أحمِلُهُ عنكَ . قال أحمِلهُ عليَّ (مرتين أو ثلاثاً) . كلُّ ذلِكَ وأنا أقولُ أنا أحمِلُه عنك . فقال فى آخرِ ذلكَ : أأنتَ تحمِلُ عنى وِزرى[٣] يومَ القيامةِ ؟ لا أمَّ لك !

فحملْتهُ عليهِ . فانطلقَ وانطلقْتُ معه نُهرولُ حتى انتهينا إليها ، فألْقَى ذلكَ عندَها ، وأخرجَ من الدقيقِ شيئاً ، وجعلَ يقولُ : ذُرِّى علىَّ وأنا أحرِّكُ لكِ . وجعلَ ينفُخُ تحتَ القِدرِ ، وكان ذا لحيةٍ عظيمةٍ ، فجعلتُ أنظرُ إلى الدُّخانِ من خِلال لحيتِهِ ، حتى أنضجَ الطعامَ ، وقالَ : أحْضرِى شيئاً ، فأتَتْهُ بصحْفَةٍ[٤] فأفرغَ الطعامَ فيها ، ثم جعلَ يقولُ أطعِميهم وأنا أساعدُكِ . فلم يزَلْ حتى شبِعُوا ، ثم خلَّى عندهَا فَضْلَ[٥] ذلِك ، وقامَ وقمتُ معهُ . فجعلَتْ تقولُ : جزاكَ اللهُ خيراً ، أنتَ أولَى بهذا الأمرِ من أميرِ المؤمنينَ . فيقولُ : قولِى خيراً ؛ إنكِ إذا جئتِ أميرَ المؤمنينَ وجدتِنِى هُناكَ إن شاءَ اللهُ . ثم تنحَّى ناحيةً ثم استقبَلَها ، ورَبضَ[٦] مَرْبِضَ الأسدِ ، فجعلْتُ أقولُ : إنَّ لك لشأناً غيرَ هذا ، وهُوَ

---

(١) كيلا . (٢) قطعة . (٣) الوِزر : الإثم .

(٤) الصحفة : كالقصعة تشبع خمسة من الرجال .

(٥) بقية . (٦) جلس .

لا يُكلِّمُني ، حتى رأيتُ الصبيةَ يلعبُونَ ويضحكُونَ ، ثم نامُوا وهدءوا؛ فقامَ وهو يحمدُ اللهَ ثُمَّ أقبلَ عليَّ ، فقالَ : يا أَسلمُ ، إنَّ الجوعَ أسهرَهُمْ وأبكاهُمْ ، فأحببتُ ألا أنصرفَ حتى أرَى ما رأيتُ فيهم .

وهذهِ الحادثةُ تدُلُّ على أنَّ سيدَنا عمرَ كانَ مثالاً لمشاركةِ العامَّةِ فى مسرَّاتِها وأحزانِها ، يُفكِّرُ فى الرعيةِ ويقومُ بمَا يجبُ عليه نحوهَا .

ثم انظرْ إلى المهدىِّ وقد خرَجَ بعد هدْأةٍ[1] من الليلِ يطُوفُ بالبيتِ ، فسمعَ أعرابيةً من جانبِ المسجدِ تقولُ : قومٌ متظلّمُونَ ، نبَتْ[2] عنهم العُيونُ[3] وعَضّتْهُم السِّنُونَ ، بادَ[4] رجالُهُمْ ، وذهبَ مالُهُمْ ، وكثُرَ عيالُهم ، أبناءُ سبيلٍ ، وأنضاءُ[5] طريقٍ ، راعَوْا وصيةَ اللهِ ، ووصيةَ رسولِ اللهِ . فهلْ آمِرٌ بخيرٍ ؟ كَلأَهُ[6] اللهُ فى سفرهِ ، وخلَفَهُ فى أهلهِ . فأمر نصْراً الخادمَ فدفَعَ لها خمسمائةِ درهمٍ .

ثم أعِدِ النظرَ إلى رِفْقِ الخلفاءِ . قال إبرهيمُ بنُ الحسنِ بنِ سهلٍ : كنَّا فى مجلسِ المأمونِ وعمْرُو بنُ مَسعدَةَ يقرأُ عليه الرِّقاعَ . فجاءتْهُ عَطْسةٌ . فلَوَىٰ عُنقَه ، فردَّها ، فرآهُ المأمونُ ، فقال : يا عمْرُو لا تفعلْ ؛ فإنَّ ردَّ العطْسةِ ، وتحويلَ الوجْهِ بها يورِثانِ انقطاعاً فى العُنقِ .

---

(١) جزء . (٢) تركتهم . (٣) كبار البلد .
(٤) هلك . (٥) جمع نضو : المهزول . (٦) حفظه .

فقال بعضُ ولدِ المهديّ : ما أحسنَها من مَولًى[1] لعبْدِهِ ، وإمامٍ لرعيتهِ . فقال المأمونُ : وما في ذَلك ؟ هٰذا هشامٌ أضطربَتْ عِمامتُهُ فأهوَى الأبرشُ الكلبيُّ إلى إصلاحِها . فقال هشامٌ إنَّا لانتخذُ الإخوانَ خَوَلا[2] . فالذي قال هشامٌ أحسنُ مما قلته . فقال عمْرٌو : يا أميرَ المؤمنينَ ، إنَّ هِشاماً يتكلفُ ما طُبعتَ عليهِ فما تُعْدَل فيهِ ، ليسَ له قرابتُك منْ رسولِ الله (صلى الله عليه وسلم) ، ولا قِيامُك بحقِّ اللهِ ، وإنَّك والملوكَ لَكما قال النابغةُ الذُّبيانيُّ :

ألمْ تر أنَّ اللهَ أعطاكَ سَوْرَةً * ترى كُلَّ مَلْكٍ دونها يتذبْذَبُ
كأنك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ * إذا طلعتْ لم يبْدُ منهن كوكبُ

ثم أنظرْ إلى الشعورِ نحو الفقراء :

دخلتْ أعرابيةٌ على عبدِ الله بنِ أبي بكرةَ بالبصرةِ ، فوقفَتْ بينَ السِّماطينِ[3] . فقالتْ : أصلحَ اللهُ الأميرَ ، وأمتعَ[4] بهِ . حدرَتْنا إليكَ سَنةٌ أشتدَّ بلاؤُها ، وأنكشفَ غِطاؤُها ، أقودُ صبيةً صِغاراً ، وآخرينَ كباراً ، في بَلدةٍ شاسعةٍ[5] ، تخفضُنا خافضةٌ ، وترفعُنا رافعةٌ ، لمُلماتٍ[6] من الدهرِ برَيْنَ عظمِي ، وأذهبْنَ لحمِي ، وتركْنَني

---

(١) المولى هنا : السيد .   (٢) الخول جمع خائل : العبيد ، الرعاة .
(٣) السماطان من النخل والناس : الجانبان : يقال مشى بين السماطين .
(٤) نفع .   (٥) بعيدة .
(٦) الملمة : النازلة من نوازل الدنيا .

وَالِهَةً(١) أدُورُ بالحضيضِ ، وقد ضاقَ بِىَ البلدُ العريضُ ، فسألتُ فى أحياءِ العربِ : مَن الكاملةُ فضائِلُهُ ، المُعْطَى سائلُه ، المكفِىُّ نائلُهُ ؟ فدُلِلْتُ عليكَ — أصلحَك اللهُ تعالى — وأنا امرأة من هَوازنَ ، وقد ماتَ الوالدُ ، وغابَ الرافِدُ(٢) ، وأنتَ بعدَ اللهِ غِيَاثِى(٣) ، ومُنتَهى أملِى ، فافعلْ بى إحدى ثلاثٍ :

إما أن تردَّنى إلى بلدِى ، أو تحسِنَ صَفَدِى(٤) ، أو تُقيمَ أَوَدِى(٥) ، فقال : بل أجمعُها لكِ . فلم يزَلْ يُجرِى عليها كما يُجرِى على عِياله حتى ماتتْ .

وقيلَ : أُحْضِرَ إلى المأمونِ رجلٌ قد أذنبَ ، فقالَ له المأمون . أأنت فعلتَ كذا وكذا ؟ قال : نعمْ يا أميرَ المؤمنين ، أنا الذى أسْرَفَ على نفسِهِ ، وأتَّكلَ على عفوِكَ ؛ فعفا عنْهُ .

وحُكِىَ : أنَّ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ غضِبَ على رجلٍ فهربَ منه ، فلما ظفِر به أمر بقتْله . فقالَ له الرجلُ : إن اللهَ قد فعلَ ما أحببتَ من الظفَرِ ، فافعلْ ما يحبُّهُ من العفوِ ؛ فإنَّ الانتقامَ عدلٌ ، والتجاوزَ فضلٌ ، واللهُ يحبُّ المحسنينَ ؛ فعفا عنْه .

---

(١) متحيرة من شدة الحزن . (٢) الرافد : المعطى والمعين .
(٣) منقذى ، وفيك نجدتى . (٤) الصفد : العطاء .
(٥) اعوجاجى .

وقيلَ إنَّ دِماءً وقعتْ بين حيَّيْنِ[1] من قُريشٍ ، فأقبلَ أبو سُفيانَ ، فنظر الجميعُ إليه ، فقالَ : يا معشرَ قريشٍ ، هلْ لكم في الحقِّ أو فيما هُو أفضلُ من الحقِّ ؟ فقالُوا : وهل شيءٌ أفضلُ من الحقِّ ؟ قال : نعَمْ ، العفوُ . فبادرَ القومُ فاصطلحُوا .

وذكرَ عن محمَّد بنِ حُمَيدٍ الطُّوسيِّ أنَّهُ كانَ يوماً على غَدائهِ مع جُلسائِهِ ، وإذا صيحةٌ عظيمةٌ على بابِ دارهِ ، فرفعَ رأسَهُ ، وقال لبعضِ غِلمانِه : ما هذهِ الضجَّة ؟ مَن كانَ على الباب فلْيدخلْ ؛ فخرجَ الغلامُ ثم عاد إليه وقال : إن فلاناً أُخِذَ وقد أوثِق بالحديدِ ، والغلمانُ ينظرُونَ أمركَ فيه ؛ فرفع يدَهُ من الطعامِ ؛ فقال رجلٌ من جلسائهِ :

الحمدُ للهِ الذى أمكنَكَ من عدُوِّكَ ، فسبيلُه أن تسقِيَ الأرضَ من دمِهِ ، وأشارَ كلٌّ من جلسائِهِ عليه بقتْلهِ على صِفةٍ اُختارها ، وهو ساكتٌ ، ثم قال :

يا غلامُ ، فُكَّ عنْه وَثاقَه[2] ، ولْيدخلْ إلينا مُكرَّماً ، فأُدخِل عليه رجلٌ لا دمَ فيهِ ، فلما رآه هَشَّ[3] إليهِ ، ورفعَ مجلِسَه ، وأمر بتجديدِ الطعامِ ، وبَسَطه بالكلامِ ، ولقَّمَه حتى اُنتهى الطعامُ ، ثم أمر له بحُلةٍ

---

(١) الحى : واحد أحياء العرب .

(٢) الوثاق ويكسر : ما يشد به .

(٣) تبسم وخف إليه وارتاح له .

حسنةٍ وصِلةٍ[1] ، وأمرَ بردِّهِ إلى أهْلِهِ مُكرَّماً ، ولم يعاتبْه على جُرمٍ ولا جنايةٍ . ثم ٱلتفتَ إلى جُلسائهِ وقال لهم : إن أفضلَ الأصحابِ من حضَّ الصاحبَ على المكارمِ ، ونهاهُ عن ٱرتكابِ المآثمِ . وحسَّنَ لصاحبِهِ أن يُجازىَ الإحسانَ بضِعفهِ ، والإساءةَ بصفْحه ؛ إنَّا إذا جازيْنا من أساءَ إليْنا بِمثْلِ ما أساءَ فأيْنَ موقِعُ الشكرِ على النعمةِ فيما أُتيحَ من الظَّفرِ ؟

وقيلَ ، غضِبَ هارونُ الرشيدُ على حُميدٍ الطوسيِّ ، فدعَا له بالسيفِ ، فبكَى ، فقال لهُ : ما يُبكيك ؟ فقال : واللهِ يا أميرَ المؤمنين ما أفزَعُ من الموتِ ؛ لأنَّه لا بدَّ منه ، وإنما بَكيتُ أسفاً على خُروجي من الدُّنيا وأميرُ المؤمنين ساخطٌ عليَّ . فضحِكَ الرشيدُ ، وعفا عنه .

وقال خَالدُ بنُ عبدِ الله لسليمانَ بنِ عبدِ الملك حينَ وَجَدَ[2] عليه : يا أميرَ المُؤمنينَ ، إن القدرةَ تُذهِبُ الحفيظةَ[3] ، وأنت تَجِلُّ عن العقوبةِ ، ونحنُ مُقِرُّون بالذنبِ ، فإن تعفُ عنى فأهلُ ذلك أنت ، وإن تُعاقبْنى فأهلُ ذلك أنا ؛ فعفا عنْه[4] .

وتتمثَّلُ المشاركةُ الوجدانيةُ فى «أبراهَامَ لِنْكُولْن[5]» أحدِ

---

(١) عطية . (٢) غضب . (٣) الغضب .

(٤) انتهى من نهاية الأرب جـ ٦ ص ٦٤ . طبعة دار الكتب سنة ١٩٢٦ .

(٥) ولد فى ١٢ من فبراير سنة ١٨٠٩ ، وقتل فى ١٥ من ابريل سنة ١٨٦٦ م .

الرؤساءِ السابقينَ للولاياتِ المتحدةِ بأمريكا ، ومُصْلحِها الأكبرِ ؛ فقد روَى أحدُ قوادِ الجيشِ قال : فى الأسبُوعِ الأول الذى تسلمْتُ فيه العملَ صدرَ حكمُ المحكمةِ العسكريةِ بإعدامِ أربعةٍ وعشرينَ جُنديًّا من الفارِّينَ من الجيشِ . ثم أُرسِلَ الحُكمُ أو (القرار) إلى الرئيسِ (لِنْكُولن) للموافقةِ عليه ؛ فرفضَ ، فذهبَ القائدُ إلى مدينةِ واشنطونَ ، وقابلَ الرئيسَ ، وقال له :

« سيدى الرئيس ، إننا إذا لم نُمَثِّلْ بهؤلاءِ الفارِّينَ شرَّ تمثيلٍ فإنَّ الجيشَ يكونُ فى خطرٍ عظيمٍ ، والشفقة على الأقليّةِ ظلمٌ للأكثريةِ . » فأجاب (لِنْكولن) :

« أيُّها القائدُ ! إن الولاياتِ المتحدةَ قد مُلِئَتْ بالثَّكالَى[1] من الأراملِ[2] ، وأرجُو ألا تسألَنى أنْ أَزيدَ الطينَ بِلَّةً ؛ فإنى لنْ أجيبَك إلى رغبتِك . » وَعفَا عنْهُمْ جميعاً .

وفى يومٍ من الأيام أصدرَ أمرًا بالعفوِ عن جُنْدِيٍّ حُكِم عليهِ بالقتْلِ ؛ لأنَّهُ وُجد نائِماً فى مركزِ حراستِهِ ، ثمَّ قال : « إنى لا أستطيعُ أن ألقَى الله ودمُ هذا الشابِّ المسكينِ على ملابسى . إنى لا أقبل أنْ

(١) الثَّكلى : من فقدت ولدها . (٢) الأرملة : المرأة التى لا زوجَ لها .

يُضربَ بالرصاص وقد غلبَهُ النومُ لشِدَّةِ تعبه » . وبعْدَ أشهرٍ قُتِلَ ذلك الشابُّ في أثناءِ الحرْبِ ، وقد وُجِـدَ معلَّقاً صورةَ (لِنْكُولنَ) على قلبهِ ، كاتباً عليها : « حفِظ اللهُ الرئيسَ لنكولن » .

وبينَما كان (لِنكُولْنُ) يزورُ جَرْحَى الحربِ إذ سَمِـعَ جريحاً يَئِنُّ[1] وهو في النَّزْعِ[2] الأخيـرِ ويردِّدُ : «أمِّى ، أمِّى» ؛ فبَكى «لِنكولْنُ» وذهبَ إليهِ ، وانْحَنَى عليهِ ، وسألهُ : ماذا أستطيعُ أن أفعلَ لك يا بُنَيَّ العزيز ؟ فأجابَ الجريحُ : «أرجُو إرسالَ هذهِ الرسالةِ إلى أمِّى» . فازدادَ بكاءُ (لِنْكولنَ) ، وأقنعَهُ بصوتٍ يعلوُه الحزنُ والعطفُ بتنفيذِ رغبتـهِ . وأمر بإرسالِ رسالتِه في الحالِ إلى أُمهِ مع رايةٍ خاصةٍ .

وحدَثَ أنْ رأى الرئيسُ (لِنْـكولنُ) غلاماً صغيراً ممتقعَ[3] اللونِ ، نحيفَ الجسمِ ، ضعيفَ القُوَّةِ ، واقفاً بجانبِ القصْرِ الأبيضِ ، فدعاه الرئيسُ ، وقال له : أقبِلْ يا بُنَيَّ وأخبرْنى بمـا ترغبُ ، فتقدمَ الغلامُ نحوَهُ ، وأحْنَى رأسَه احتراماً له ، وقال والخوفُ يبدُو من نَبَرَاتِ صوتِه : «مولاىَ ؛ كنتُ أشتغِلُ في مصْنعٍ ، فطردنى صاحبُـه ،

---

(١) يتوجع . (٢) النفس الأخير من الحياة .
(٣) أصفر .

مرضتُ ، فذهبتُ إلى المستشفى ، فمكثتُ به مدةً ليستْ بالقصيرةِ ، والآنَ لا مأوَى لِي ؛ فقدْ قُتِلَ أبي في الجيشِ ، وماتتْ أُمِّي وأنا صغيرٌ ، وليْسَ لِي إخوةٌ ولا أخواتٌ ، ولا أصدقاء ، وليْسَ هُناكَ مَنْ يَعُولُني[1] » . ثم أخذَ يبكي . فامتلأَتْ عيْنا (لِنكولن) دُموعا ، وسَرْعانَ ما فَرَّحَهُ ، وأَدْخَلَ السرورَ فى قلبِهِ . وأمرَ أحَدَ الموظَّفِينَ بالعنايةِ بهِ ، والقيامِ بشئونِهِ وتربيتِه ؛ ولا عجبَ فقد كانَ (لنكولنُ) يُحِبُّ الفقراءَ ، ويعطِفُ على المساكينِ ، ويُشْفِقُ على الإنسانيةِ ، وهُوَ خيرُ مَثَلٍ للمشاركةِ الوجدانيةِ .

ومِمَّنْ كانَ يُشارِكُ الفقراءَ فى آلامِهِم الأديبُ الإنكليزىُّ « صامويل جُونْسون » (١٧٠٩ — ١٧٨٤ م) ؛ فقد كانَ دائمًا مستعِدًّا للإحسانِ إلى المساكينِ ، والعطفِ على البائسينَ ، وكان إذا مرَّ فى طريقهِ بالفقراءِ وهم نائِمُونَ فى الشارعِ ، وضعَ فى يَدِ كلٍّ منهُم قطعةً من النقُودِ ؛ حتى يشعرُوا بِشىءٍ من السّرورِ بعد يَقَظتِهِم ؛ ولا غرابةَ فقد كانَ جونسونُ فقيراً ، جرَّب آلامَ الجوع ، ولا يشعرُ بالشىءِ شعوراً قويًّا إلا من يُجرِّبُه .

وقد دُعِىَ الطبيبُ « أُوليفَرجُولْدْسمِثْ » لزيارةِ عاملٍ مريضٍ فى

(١) ينفق علىَّ .

بيتِهِ ، فوجدَ أَنَّ الرجلَ ليسَ فى حاجةٍ إلى الدواء ، ولـكنَّهُ فى حَاجةٍ إلى الغـذاء . فطلبَ الطبيبُ إلى زوج العاملِ أنْ تأتىَ معَهُ لأخذِ الدواءِ . وأعطاها صُندوقاً . وأمرَها ألا تفتحَه إلا فى منزلَها . فلما فتحتْهُ فى منزلِها وجدتْهُ مملوءاً بالنقودِ ، ووجدتْ ورقةً كُتِبَ عليها : « يُؤخذُ منه كلما دَعَتِ الحاجةُ » . وكانَتْ هذه النقودُهىَ كلُّ مامعَ (جولْدسْمِث) فى ذلك الوقتِ . ولمثلِ هذا فليعملِ العامِلُون .

الفصل الخامس

٤ — الشجاعة

رُبما كانتِ الشجاعةُ أهمَّ عُنصرٍ من عناصرِ الشخصيةِ القويةِ ، فى أوقاتِ الرخاءِ والشدَّةِ على السواء . ولكنْ ما الشجاعةُ ؟ الشجاعةُ قوةٌ بها يتمكنُ الإنسانُ من السيطرةِ على قُواهُ مع ضبْطِ نفسهِ وقتَ الخطرِ الذى يُهدّدُه ، سواءٌ أكانَ ذلك الخطرُ حقيقيًّا أم وهْميًّا .

وكما أنَّ الشجاعةَ فضيلةٌ فى الجُنديِّ والملَّاح ، كذلك هِيَ فضيلةٌ فى غيرِهما من بنِى الإنسانِ ، وهىَ خيرُ مقياسٍ يقاسُ به الإنسانُ فى أوقاتِ الشدَّةِ ، حيثُ يُتَطَلَّبُ الثباتُ أو الإقدامُ . وبهذا المقياسِ يُمكِنُ وضعُ الشخْصِ فى مرتبتِهِ الخاصَّةِ بينَ الشُّجعانِ أو الجُبناءِ ، وبينَ العظماءِ أو العاديِّينَ .

وقدْ قِيلَ ، وقيلَ حقًّا : إنَّ الشجاعةَ تتوقفُ على القوةِ الجسميةِ والعصبيةِ والعَقليةِ والخُلقيةِ التى لدَى الإنسانِ . وإنَّ المدنيةَ الحاضرةَ قد قَللتْ من الشجاعةِ بينَ الأفرادِ ؛ فقد صرَّحَ أحد النُّظَّارِ السابقينَ لمدرسةِ « إيتون » الإنكليزيةِ المشهورةِ بأنه رأى غلامًا دخلتْ فى

عيْنهِ ذبابةٌ ، فحاولتْ أمُّهُ وأخواتهُ الثلاثُ إخراجَها بغيرِ جَدوَى ، ولمْ يكن الأمرُ فى حاجةٍ إلى أكثرَ مِنْ أنْ يتحملَ الولدُ الألم دقيقةً واحدةً ، ولكنَّه لم يتحملْ آلامَ دقيقةٍ — إن كانت هناك آلامٌ — فأُخِذَ فى سيَّارةٍ إلى طبيبٍ فى مدينةٍ تَبعدُ خمسةَ أميالٍ عن القريةِ . كلُّ هذا من أجلِ شىءٍ يسيرٍ كان فى استطاعة أى فردٍ من الأسرةِ أن يقومَ به بسُهُولةٍ .

هذه حكايةٌ عن شبانِ الأمسِ وأمهاتِ الأمسِ بإنجلترا . أما اليوم فتجدُ الأمهاتِ والآباءَ يغرسون الشجاعةَ ، وخُلُقَ الرجولةِ فى نفوسِ أبنائهم من الصغر ، ويعوِّدُونهم الصبرَ وضبطَ النفسِ ، وكتمانَ الشعورِ ، وتحملَ الألم من الطفولةِ الأولى .

وبهذه الوسيلةِ يبثُّون الشجاعةَ فيهم . ولا يظهر الخُلق المتينُ ، ولا تبدو الشخصيةُ القويةُ ، إلا بهذا النوعِ من الشجاعةِ ، وهو القدرةُ على احتمال الآلامِ . وإنَّ مَنْ يستطيعُ أن يحْتمِلَ دقائقَ أكثرَ من غيرهِ يمكنُه أن يفوزَ بالنجاح والنصرِ ، سواءٌ أكان جنديًّا أم قائداً ، متعلماً أم معلماً ، غنيًّا أم فقيراً .

وبالشجاعة يظهرُ الفرقُ الكبيرُ بين الشخصية القويةِ ، والشخصية الضعيفةِ .

والآن نُريدُ أن نبيّنَ مظاهرَ الشجاعةِ وأثرَها فى النجاح فى العمل ، وفى الحياة الاجتماعية فنقولُ :

مظاهر الشجاعة :

أولاً : الشجاعةُ فى ضبْط النفسِ ؛ وذلك بأن نَقفَ موقفاً طَبعيًّا بكُلِّ شجاعةٍ عنـد مقابلة الرؤساء ، أو عند الظهورِ أمام مجتمعٍ لإلقاء محاضرةٍ ، أو الاشتراكِ فى مناظرةٍ ، أو التعبير عن رأيٍ ، أو الدفاعِ عن مبدإٍ أو عقيدةٍ ، بحيثُ لا نَرْتعدُ ولا نضطربُ ، ونظهرُ بأحسنِ مظهرٍ فى حديثِنا وإلقائِنا ، ونُبرهنُ بأعمالنا وآرائنا على مقدِرَتِنا بكل لطفٍ وأدب . وإذا لم يكنْ لدى الإنسانِ قدرةٌ على إظهار مقدرتهِ بالعمل وضبطِ النفس ، فقد تضيعُ الفرصةُ الذهبيةُ التى قد لا تصادفُه مرةً أخرى . وكثيراً ما تَضيعُ الفرصةُ من الشخص ، ثم يندبُ سوءَ حظِّه ، ويَشكُو الظروفَ والمقاديرَ ، مع أنه لم يكنْ فى حاجة إلى أكثرَ من الشجاعةِ فى أنتهاز الفرصةِ حين سُنوحِها .

وممّن كان يتمثّلُ فيهم ضبطُ النفسِ جعفرٌ الصادقُ (رضى الله عنه)؛ فقد حُكى أنَّ غلاماً له وقفَ يصبُّ الماء على يديه ، فوقع الإبريقُ من يد الغلام فى الإناء ، فطار الرَّشاشُ فى وجههِ ، فنظر جعفرٌ إليهِ نظرَ

مُغْضَبٍ، فقال : يامولاىَ ، « والكاظمينَ[1] الغيظَ » قال : قد كظَمْتُ غيظى . قال : « والعافينَ عن الناس » . قال : قد عفوتُ عنك . قال : والله يُحِبُّ المحسنين . » قال : أذهبْ فأنت حرٌّ لوجهِ الله الكريمِ .

ولا سببَ يدعو الإنسانَ إلى الخوفِ من أبناء جنْسِـهِ ؛ فقدْ يكُون الخوفُ مبنيًّا على وَهْمٍ لا أساسَ له . وإذا وَثِقَ المتكلِّمُ بنفسهِ ، وعرفَ مايُريدُ أن يقولَه ، وعرف كيف يُعبِّرُ عن خواطرِهِ ، وكيف يُبَرْهِنُ على نظريتهِ بالعقل والمنطقِ ، فإنه يستطيعُ أن يطمئنَّ إلى نفسهِ ، ويُمسِكَ بزمامِها ، ويُقابلَ من يشاء ، ويُخاطبَ من يريدُ ، مادام مُتحلِّياً بالأدب ، واثقاً بنفسـهِ ، وكان عقلهُ مرتباً ، وكانت أفكارُه منطِقيةً ؛ بحيث لايتسرعُ فى ذكرِ شىءٍ يدُلُّ على عقلٍ مضطربٍ ، أو روح قلِقَةٍ ، ولا يتظاهرُ بما ليس فيهِ . وإذا وثقتَ بما تريدُ أن تقولَه ، فهذا وحدَهُ كافٍ لأن تؤثِّرَ فى نفوس سامِعيك ، وتجعلَ قلبَك وروحَك فى إثباتِ ماتريدُ إثباتَهُ ، أو نَفْىِ ما تريدُ نفيَه ، فتتكلَّمَ بقلبك لا بلسانِك .

قيلَ مرَّ عمرُ بن الخطاب (رضى الله عنه) بصبيانٍ يلعبون ، وفيهم عبدُ الله بنُ الزُّبَيْر[2] ، ففرُّوا حينَ رأَوْهُ ، وثبتَ عبدُ الله ، فقال عُمرُ :

---

(١) كظم غيظه يكظمه : رده وحبسه .

(٢) هو عبد الله بن الزبير بن العوام دعا لنفسه بالخلافة أيام يزيد ، وبايعه أهل الأقطار إلا الشام ، وقتل سنة ٧٣ هـ .

ما لكَ لا تَفِرُّ مع أصحابك ؟ قال : لم أُجْرِمْ فأخافَك ، ولم يكنْ فى الطريق ضيقٌ فأُوسِعَ لكَ .

ولا شيء يَقْضِى على الشجاعة ويَخْضِدُ[1] شوكتَها أكثرُ من الهَلَع[2] ؛ فحيثما وُجدَ وُجدَ الألمُ ، والقلقُ النفسىُّ ، وتعبُ الضمير ، واضطرابُ العقل ؛ فتضطربُ شخصيةُ الإنسان . وإذا كان الخوفُ ثمناً ندفعُه فى سبيل المحافظةِ على الحياةِ فالإفراطُ فيه عيبٌ من العيوب الإنسانيةِ التى يجبُ تهذيبُها ، والتى تقضى بأنْ يُفكِّرَ الإنسانُ فى الشىءِ وفى نتائجِه .

ويُضاف إلى المخاوف التى تلحقُ الشخصَ فى حاضرِه وتحيطُ به من وقت لآخرَ ، مخاوفُ وهميةٌ يتوهمُها ، ويتخيلُ حدوثَها فى المستقبل ، فيقلقُ بالُه ، ويضطربُ فكرُه وتضعفُ شخصيتُه . وكثيراً ما تكونُ هذه الأوهامُ المخيفةُ مبنيةً على غير أساسٍ ، ويندرُ أن تقعَ . وكم اغتَمَمْنا[3] لتوقع مصائبَ لم تحدثْ ، ولن تحدثَ . وتكثرُ هذه المخاوفُ عادةً لدَى ذوى الشخصياتِ الضعيفةِ ؛ أما ذوو الشخصياتِ القويةِ فلا يُكثِرُون الهمومَ ، من غير ما سببٍ ، ولأقلِّ سببٍ ،

---

(١) يقال خضد الشجر : أى قطع شوكه ، وبابه ضرب .

(٢) الهَلَع : أشد الجزع . (٣) اغتم : أصابه الغم والكَرب .

بل يستقبلون الحياةَ كما هىَ ، ويواجهونها بما فيها من مسراتٍ وأحزانٍ ، وسعادةٍ وشقاء ، يبتسِمُون بهدوء حتى فى مواطِن البكاء ، ويَصبِرُون فى مواقف البأساء ، وهؤلاء جديرُون بالنجاح فى الحياةِ ؛ لشِدَّةِ ثقتِهم بالله .

والحياةُ مملوءةٌ بالحوادث والمصائبِ ، ولا يقدرُ الإنسانُ أن يعرفَ ما ينتظرُه فى الغدِ من المقاديرِ . وبالصبر على الشدائد تُختَبرُ رجولتُنا ، ويُعرَفُ مَعدِنُ الرجولةِ فينا . وبالروحِ التى نُقابلُ بها هذه الحوادثَ تظهر شخصيتُنا أو تستترُ . ولا يَظهر الرجالُ إلا عند الشدائدِ والمصاعب .

ومن حيثُ إن النجاحَ فى الحياةِ ليس من السهل ، فيجبُ أن يتعلمَ الإنسانَ كيف يبتسِمُ فى الأيام المُظلمةِ ، كما يبتسمُ عند المسراتِ فى أيام السعادةِ والهناءةِ . وينبغى أن يتعودَ الشجاعةَ والاحتفاظَ بقُواه عند المِلمَّات ؛ حتى يكتسبَ إعجابَ رفقائِه واحترامَهم ، ويثبُتَ ثُبوتَ الطَّودِ[١] فى مَهَبِّ الرياحِ .

وليس من الشجاعة أن تُكْثِرَ شكوى الحياةِ والظروفِ والأيامِ ؛ فشكوى سوءِ الحال لن تُغيِّرَ ما حدث بل تَذهَب بنَضرةِ[٢]

(١) الطود : الجبل العظيم . (٢) النضرة : الحسن والرونق .

العقلِ وقوةِ القلبِ . وإن الخوفَ من الخذلان والهزيمةِ يُؤدِّى إلى الهزيمة . وقوةُ الأمل فى النجاح مع التشجيع والمثابرة تحفظُ روحَ الإنسان وهمَّتَهُ ، وتبعثُ فيه كثيراً من الرجاء فى الفوز ، وبخاصةٍ إذا عمِلَ بعقله وقلبه ويده . وإن الاعترافَ بالنقص فضيلةٌ ، والعملَ على علاجه شجاعةٌ .

فنحنُ فى حَاجةٍ إلى الشَّجاعة التى بها نَستطيعُ مواجهةَ المخاوفِ ، ومقاومتَها بكل ثبات وصبرٍ وتفكيرٍ حتى نتغلبَ على مصاعبِ الحياةِ ، ونقلِّلَ من الخوف الذى يَهدِمُ الرجولةَ من أساسِها ، ويقتلُ الشخصيةَ فى مَهدها .

وإن أعظمَ انتصارٍ فى الحياة هو الانتصارُ على النفس بضبطِها ، وكَبْحِ[1] جِمَاحِها ، والتغلبِ عليها . وليست الشجاعةُ فى أن تنتصرَ على سبُعٍ مُفترسٍ فَحَسْبُ ، ولكن الشجاعةَ فى أنْ تُسيطرَ على نفسِك التى بين جنبيك . وأرقى مظاهرِ الشجاعةِ الصبرُ والتحملُ عند المقدرةِ . قيل : « مرَّ المسيحُ بنُ مريمَ عليه السلام بقومٍ من اليهود ، فقالوا له شرًّا ، فقال خيراً . فقيل له . إنهم يقولون شرًّا وتقولُ لهم خيراً ؟ فقال : كلٌّ واحد يُنفِق مما عنده » .

---

(١) كبح الدابَّةَ : جذبها إليه باللجام لكى تقف ولا تجرى .

وَذُكِرَ عن المأمونِ أنه قال ليحْيى بنِ أكثمَ يوماً : سِرْ بنا نتفرَّجُ ، فسارا . فبينما هما فى الطَّريقِ وإذا مَقْصَبَةٌ[1] خرج منها رجلٌ بقَصبةٍ للمأمون يتظلَّمُ له . فنفَرَتْ دابَّتهُ منه ، فألْقَتْهُ على الأرض صرِيعاً . فأمرَ بضرب ذلك الرجل . فقال الرجلُ : « يا أميرَ المؤمنين ، إن المضطرَّ يركبُ الصعبَ من الأمور وهو عالمٌ برُكُوبِه ، ويتجاوز الأدبَ وهو كارهٌ لتجَاوُزِه . ولو أحسنَت الأيامُ مُطالبتى لأحسنْتُ مطالبتَكَ ، ولأنتَ على رَدٍّ مالمْ تفعلْ أقدرُ مِنى على ردِّ ما قد فعلتُ » .

فبكى المأمونُ وقال : « باللهِ أَعِدْ عَلَيَّ ما قُلْتَ » . فأعادَه ، فالتفتَ المأمونُ إلى يحيى بنِ أكثمَ وقال : « أما تَنْظُرُ إلى مخاطبةِ هذا الرجل بأصغَرَيْهِ[2] ، والنبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ : « المرء بأصغريه : قلبِه ولسانِه » . واللهِ لا وقفْتُ لك إلا وأنا قائمٌ على قدمى » . فوقفَ ، وأمرَ له بصِلَةٍ جزيلةٍ ، واعتذرَ إليه .

وحُكى أنَّ جاريةً جاءت لأبى عبدِ الله بنِ جعفرٍ بقَصْعةٍ من ثريدٍ تُقَدِّمُها إليه وعنده قومٌ . فأسرعَتْ بها ، فسقطَتْ من يدِها ، فانكسَرَتْ ، فأصابَهُ وأصحابَهُ مما كان فيها . فارتَاعت[3] الجاريةُ عِنْدَ

(١) أرض زرعت قصبا . (٢) عقله ولسانه .
(٣) فزعت .

ذلك . فقال لها : «أنتِ حرةٌ لوجه الله تعالى ، لعلّه أن يكونَ كفَّارَة للرّوعِ[1] الذي أصابَكِ» .

وقيل للأحنفِ بنِ قيسٍ : مِمّنْ تعلّمتَ الحِلْمَ ؟ قال من قيسِ بنِ عاصمٍ المِنْقَريّ ؛ رأيتُه قاعداً بفِناءِ دارِه محتبياً[2] بحمائلِ[3] سيفهِ يُحدِّثُ قومَه ، حتى أُتِيَ برجل مكتوفٍ ، ورجلٍ مقتولٍ ، فقيلَ له : هذا ابنُ أخيك قتلَ ابنَك . فوالله ما حلّ حَبْوَتَه ، ولا قطعَ كلامَه . ثم التفتَ إلى ابنِ أخيه وقال له : يا ابنَ أخي أثِمْتَ بربِّكَ ، ورميْتَ نفسَك بسهمِك . وقتلتَ ابنَ عمِّكَ . ثم قال لابنٍ له آخرَ : قُمْ يا بُنيّ فوَارِ أخاك ، وحُلّ كِتافَ[4] ابنِ عمِّك ، وسُقْ إلى أُمِّه مائةَ ناقةٍ ديةَ ابنِها ؛ فإنها غريبةٌ[5] .

وقيل لقيسِ بنِ عاصمٍ ما الحلمُ ؟ قال : أنْ تصلَ من قطعكَ ، وتُعْطِيَ من حرَمك ، وتعفوَ عمّنْ ظلمكَ . وقال لقمانُ الحكيمُ : ثلاثةٌ لا تعرِفُهم إلا عند ثلاثةٍ : لا يُعرفُ الحليمُ إلا عند الغضبِ ،

---

(١) الروع : الفزَع .

(٢) احتبي بالثوب : اشتمل أو جمعَ بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ، والاسم الحَبوة ، ويضم .

(٣) حمائل السيف لا واحد لها من لفظها ، وإنما واحدها مِحْمَل ، وقيل حِمالة .

(٤) الكتاف : الحبل الذي تشد به اليد إلى الخلف .

(٥) انتهى من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري جـ ٦ ص ٥١ ، طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦ .

ولا الشجاعُ إلا عنْدَ الحربِ ، ولا تَعرفُ أخاكَ إلا إذا أحتجْت إليه .
وقال مورِّق العِجلى : ما تكلَّمتُ فى الغضب بكلمةٍ ندمتُ عليها فى الرِّضا . وقال حكيمٌ : لا يظهر الحلمُ إلا مع الانتصارِ ، كما لا يظهرُ العفوُ إلا مع الاقتدارِ .

وقال أحدُ الفلاسفةِ : الحريّةُ الحقّةُ أن يضبطَ المرء نفسَهُ . وقال آخرُ : إن جُلّ فضائلِ الإنسان تظهرُ فى الصبر وضبطِ النفس والحلمِ . وقال سقراطُ : من كثُر احتمالُه ، وظهر حلمُه ، قلَّ ظالمُه ، وكثُرَت أعوانُه . وقال ابنُ المعتزّ : عقوبةُ الغضب تبدأُ بالغَضْبان ؛ تُقبِّحُ صورتَه ، وتَثْلِمُ [1] دينَه ، وتُعجِّل ندمَه .

والحلمُ دفعُ السَّيئةِ بالحسنةِ ، وهو دِعامةُ [2] العقلِ ، وعِقالُ الشرِّ ؛ قال اللهُ تعالى : « ولا تستوى الحسنةُ ولا السَّيئةُ ادْفع بالتَّى هىَ أحسنُ ؛ فإذا الّذى بيْنَك وبينَهُ عَداوةٌ كأنه ولىٌّ حَميمٌ . وما يُلقَّاها إلَّا الّذين صَبَرُوا وما يُلقَّاها إلَّا ذُو حَظٍّ عظيم . » وقد رُوى عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأشجّ عبدِ القيس : « يا أَبا المُنْذِرِ ، إن فيكَ خَصْلتيْنِ [3] يرضاهُما الله ورسوله : « الحلمُ والأناة » . وقيل :

---

(١) الثُّلمة : الخلل .   (٢) الدِّعامة : عماد البيت وما يستند به الحائط .

(٣) فى الإحياء للغزالى « خلقين يحبهما ... » جـ ٣ ص ١٢٣ طبع بالمطبعة اليمنية .

الحلمُ والأناةُ توءمانِ يُنْتِجهُما علوُّ الهِمّةِ . ومن كلام النُّبُوَّة : « كادَ الحليمُ أن يكونَ نبيًّا » .

وقيل : الحلمُ بالتحلُّمِ كما أنّ العلمَ بالتعلُّمِ . وَيَدُلُّ على ذلك ما حُكيَ عن جعفرٍ الصادقِ أنه كان عنده رجلٌ سيِّئُ الخُلُقِ ، فقيل له : أما تأنَفُ من مثلِ هذا عندك وأنت قادرٌ على الاستبدالِ به ؟ فقال : إنما أَتْرُكُه لأتعلَّمَ عليه الحلْمَ . قال الشاعرُ :

وليس يتمُّ الحلمُ للمرءِ راضياً * إذا هو عند السُّخط لم يتحلَّمِ[1]

كما لا يتمُّ الجودُ للمرءِ موسراً * إذا هو عند القَتْرِ[2] لم يتجشَّمِ[3]

ورُوِى عن سَرِيٍّ السَّقَطيِّ أنه قال : الحلمُ على خمسةِ أوجهٍ : حلمٌ غَرَزِيٌّ[4] ؛ وهو هِبَةٌ من الله للعبد ، يعفُو عمَّن ظَلَمَهُ ، ويصلُ مَن قَطَعَه ، ويُعطى مَن حَرَمه ، ويُحسنُ لمن أساء إليه ؛ وحِلمُ تحالُمٍ ؛ يَكْظِمُ غيظَه رجاءَ الثَّوابِ وفى القلب كراهيةٌ ؛ وحلمُ كِبْرٍ لا يرَى المسيءَ أهلًا أن يجازيَه ؛ وحِلْمٌ مذمومٌ ، رياء وسُمعة وهو حاقدٌ ساكتٌ يُرائى به جلساءَهُ ؛ وحلمُ مَهَانةٍ وذِلة وعجزٍ وضَعف نفسٍ وصِغَرِ همةٍ .

وقال أبو هلالٍ العسكريُّ : ومنْ أشرفِ نُعوتِ الإنسان أن

---

(١) يتظاهر بالحلم .
(٢) الضيق .
(٣) يتجشم : يتذمم ويستحى .
(٤) طبعى .

يُدْعَى حليماً ؛ لأنه لا يُدْعَاه حتى يكونَ عاقلا وعالماً ومُصطبِراً ومحتسباً وعفُوًّا وصافحا ومحتمِلا وكاظِماً . وهذه شرائفُ الأخلاقِ ، وكرائمُ السّجايا والخِصال .

وقال معاويةُ لابنه يزيدَ :

« عليكَ بالحلمِ والاحتمالِ حتّى تمكنكَ الفرصةُ ، فإذا أمكنتْكَ فعليكَ بالصَّفْحِ ؛ فإنه يدفعُ عنكَ مُعضِلاتِ الأمورِ ، ويكفِيكَ مصارعَ المحذُورِ .

حُكِيَ أنه لما أفضَت الخلافة إلى بنى العباسِ[1] اُختفَتْ منهم جَمِيعُ رجالِ بنى أُمَيَّةَ ، وكان منهم إبرهيمُ بنُ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ . وكان إبرهيمُ هذا رجلًا عالما كاملاً أديبًا ، وهو مع ذلك فى سِنِّ الشَّبيبةِ ، فأخَذوا له أمانًا من السّفاحِ ، فأعطاه أبُو العباسِ السفاحُ أمَانًا وأكرمَه ، وقال له : اِلزَمْ مجلِسى . فذاتَ يومٍ قال له أبو العباسِ السفاحُ : يا إبرهيمُ حدِّثنى عما مرَّ بك فى اُستخفائِك من العدُوِّ . فقال سمعاً وطاعةً يا أميرَ المؤمنينَ .

« كنتُ مُختفياً فى الحِيرةِ[2] بمنزلٍ فى شارعٍ على الصحراء ،

---

(١) من مجانى الأدب ج ٣ ص ٢٩٩ .
(٢) مدينة بالقرب من الكوفة .

فبينما كنتُ يومًا على ظهرِ ذلك البيتِ ، إذ بَصُرْتُ بأعلامٍ سُودٍ قد خرجَت من الكوفة تُرِيدُ الحِيرَةَ — فتخيَّلتُ أنها تُرِيدُنى . فخرجتُ مُسرِعًا من الدار متنكِّرًا ، حتى أتيتُ الكوفةَ وأنا لا أعرفُ أحدًا أختفِى عنده . فبقِيتُ فى حَيْرَةٍ . فنظرتُ وإذا أنا ببابٍ كبيرٍ وَاسِعِ الرَّحَبة[1] ، فدخلتُ فيه . فرأيت رجلاً وسيماً[2] حسنَ الهيئةِ ، مُقْبلاً على الرَّحَبة ومعه أتباعُه ، فنزلَ عن فرسِه والتفتَ ، فرآنى ، فقال لى : من أنتَ ؟ وما حاجتُك ؟

فقلتُ : رجلٌ خائفٌ عَلَى دَمِهِ ، وجاء يستجيرُ فى منزِلك . فأدخلَنى منزلَه ، وصيَّرَنى فى حُجرة تلِى حرَمَه . وكنت عندَه فى كلٍّ ما أُحِبُّه من طعام وشرابٍ ولباس . وهو لا يسألُنى عن شىءٍ من حالى ، إلا أنه كان يركب فى كلِّ يومٍ من الفجر وَيَمْضِى ولا يرجعُ إلا قرِيبَ الظهرِ .

فقلتُ له يومًا : أراكَ تُدْمِنُ[3] الركوبَ كلَّ يومٍ ، ففيمَ ذلكَ ؟ فقال لى : « إنَّ إبرهيمَ بنَ سُليمانَ بنِ عبدِ الملك كان قد قتَلَ أبى ظلمًا ، وقد بلغنى أنه مُخْتَفٍ بالحِيرَةِ ، فأنا أطلُبه يوميًا لعلِّى أجِدُه وأُدرك منه ثأرى » .

---

(١) الساحة والفناء .   (٢) حسن الوجه .

(٣) تديم وتداوم ، وتواظب وتلازم .

فلما سمعتُ ذلكَ يا أميرَ المؤمنين كثُرَ تعجُّبي وقلتُ في نفسي : إنَّ القدَرَ ساقني إلى حَتْفِي[1] في منزلِ مَنْ يطلُبُ دمي . فواللهِ يا أميرَ المؤمنين إني كرِهْتُ الحياةَ . ثم إني سألتُ الرجلَ عن اسمه واسمِ أبيه ، فأخبرني . فعلمتُ أن كلامَه حَقٌّ ، وأني أنا الذي قتَلَ أباه ؛ فقُلتُ له : يا هذا إنه قد وجبَ عَلَيَّ حقُّك ، ولمعرُوفِك لي يلزَمُني أن أَدلَّك على خَصمِك الذي قتلَ أباكَ ، وأقرِّبَ عليك الخُطْوَةَ . فقال : وما ذاكَ ؟ فقلتُ له : أنا إبرهيمُ بنُ عبدِ الملك ، وأنا قاتلُ أبيك ، فخُذْ بثأركَ .

فتبسَّم مني وقال : هل أضجركَ الاختفاء والبعدُ عن منزلِك وأهلِك فأحببتَ الموتَ !

فقلتُ : لا واللهِ ، ولكنِّي أقولُ لك الحقَّ ، وإني قتلتُه في يومِ كذا ، من أجْلِ كذا . فلما سمِعَ الرجلُ كلامي هذا وعلِمَ صِدْقِي تغيَّرَ لونُه ، واحمرَّتْ عيناه ، ثمَّ فكَّر طويلاً ، والتفتَ إليَّ وقال : أمَّا أنتَ فسوفَ تلقَى أبي عند حاكمٍ عادلٍ فيأخذُ بثأره منك ، وأما أنا فلا أخفِرُ[2] ذِمَّتي ، ولكنِّي أريدُ أن تخرجَ عنِّي ، فإني لَستُ آمَنُ عليك من نفسي . ثم إنه أعطاني ألفَ دينار : فأبيتُ أخذَها وانصرفتُ عنه . فهذا يا أميرَ المؤمنين أكرمُ رجلٍ رأيتُه وسمعتُ عنه في عُمْري بعد أميرِ المؤمنين .

---

(١) هلاكي .   (٢) أنقض عهدي وأغدرك .

وقيل : قُتل للأحنف بن قيس ولدٌ ، وكان الذى قتله أخا للأحنف ، فجىء به مكتوفاً ليقيِّده ؛ فلما رآه الأحنفُ بكى ، وأنشدَ :

أقولُ للنفس تأساءً[1] وتعزيةً * إحدى يَدَىَّ أصابتْنى ولم تُرِدِ

كلاهما خَلَفٌ من فقْدِ صاحبِهِ * هذا أخى حينَ أدْعُوه وذا ولَدِى

ويرى الفيلسوفُ الإنكليزىُّ « هربرت سبنْسَر[2] » أنَّ ضبطَ النفسِ أساسُ الكمالِ الإنسانىِّ ، وأنَّهُ الغرضُ من التربية .

وقد ذكرَ المؤرِّخون أنَّ « جورجَ واشِنْطون »[3] مُحَرِّر أمريكا كان مثلا فى القدرةِ على كتمانِ الشعورِ ؛ إذ لم يغضبْ فى حياته إلا مرةً واحدة .

ثانياً : هناك مظهرٌ للشجاعة يتبينُ فى التغلب على الصعاب التى تعترض الإنسان فى الحياة ، وإصلاحِ الأخطاءِ التى تمرُّ بنا ، سواءٌ أكانت هذهِ الأخطاءِ منسوبةً إلينا أمْ منسوبةً إلى غيرنا . وهناك كثيرٌ من المصاعب التى يمكنُ التخلصُ منها بقليلٍ من الشجاعة والحزْمِ والثباتِ .

وكثيراً ما يكونُ الجُبْنُ سَببًا فى الفشل ، وعدمِ النجاح فى العملِ . وكما تكونُ الشجاعةُ فى الإقدامِ على الشىء تكونُ فى الإحجامِ عنه

---

(١) تعزية وسلوى .

(٢) كان من كبار المربين من الإنكليز (١٨٣٠ — ١٩٠٣ م) .

(٣) ولد فى ٢٢ من فبراير سنة ١٧٢٢ م . وتوفى فى ١٤ من ديسمبر سنة ١٧٩٩ .

عند تحقُّقِ التَّهْلُـكَةِ . ولا تقلُّ الشجاعةُ فى الإحجَام والتريُّثِ[1] حينئذٍ عن الشجاعة فى الإقدامِ .

وممن كانُوا مثلاً للشجاعةِ واُقتحامِ المخاطرِ بين العرب سيدُنا عمرُ بنُ الخطاب (رضى الله عنـه) ؛ فقد ترَبَّى على الشهامة والنَّجْدةِ[2] والجُرأةِ ، وقولِ الحقِّ لا يرَى فيه هَوَادةً ؛ فعند الهجرة إلى المدينـةِ كان النـاس يخرُجُون يتسلَّلون[3] ؛ خِيفَة أن يَحجُزَهم أهلُوهم . أما هو فأعلنَ أنه مُهاجِرٌ ، وقال : من أرادَ أن تَثْكَلَه[4] أمه فليلْقَنى وراء هـذا الوادى ! ثم خرج مهاجراً فلم يتبَعْه أحدٌ .

وكذلك خالدُ بنُ الوليـدِ ؛ ومن أقوالهِ : لقد لَقِيتُ كذا وكذا زحْفاً ، وما فى جَسدِى موضعُ شبرٍ إلا وفيه طعنةٌ أو رَميةٌ ، ثم هأنذَا أموتُ على فراشى حتْفَ أنـفِى . فلا نامت أُعينُ الجبناءِ .

قال جريرٌ :

قلْ للجبانِ إذا تأخرَ سرجُهُ * هل أنتَ من شَرَكِ المنِيَّةِ[5] ناجِ

وتقول العربُ : الشجاعةُ وقايةٌ ، والجبنُ مَقْتَلَةٌ . وقال أبُو بكرٍ (رضى الله عنه) لخالدِ بنِ الوليدِ : اِحرِصْ على الموت تُوهبْ لك الحياةُ .

---

(١) الإبطاء والإمهال . (٢) القتال والشجاعة . (٣) يخرجون .
(٤) تفقده . (٥) الموت .

وفى الحكايةِ الآتيةِ تبدُو الْجُرأةُ والإقدامُ :

قال ابن الجوْزِىِّ[١] : كان بالكوفةِ رجل حَسَنِىٌّ يُعرفُ بالأدرَع شديدُ القلب جدًّا . وكان فى خرائبِ الكوفةِ شىءٌ يظهَرُ للمُجتازِينَ ليلا ، فيه نارٌ ، يَطولُ تارةً ويقصُرُ أُخْرَى ، يقولون : هو غُولٌ يَفْزَع منها الناسُ .

فخرج الأدرعُ ليلةً راكباً فى بعض شأنِه ، قال لى الأدرعُ : فاعترضَ لى السَّوادُ والنارُ ؛ فطالَ الشَّخصُ فى وَجْهى ، فأنكرتُه ، ثم رجعتُ إلى نفسى . فقلتُ أَمَّا شيطانٌ وغُولٌ فهَوَسٌ[٢] ، وليس إلَّا إنسانًا . فذَكَرتُ اللهَ تعالى ، وصَلَّيتُ على نبيِّه صلى الله عليه وسلم . وجمعتُ عِنان الفَرس ، وقرَعْتُه بالْمِقْرَعةِ ، وطرحتُه على الشَّخصِ ، فازداد طولُه ، وعَظُمَ الضوءُ فيه ، فنفَر الفرسُ ، فقرعْتُه ، فطَرَحَ نفسَه عليه ، فقصُر الشَّخصُ حتى عادَ على قدْرِ قَامةٍ . فلمَّا كادَ الفرسُ يخالِطُه ولىَّ هاربًا . فحرَّكتُ الفرسَ خلفَه ، فانتهى إلى خَرِبَةٍ فدخلها . فدخلْتُ خلفَه ، فإذا هو قد نزل مِردابًا فيها . فنزلْتُ عن فرسى وشدَدْتُهُ ونزلتُ ، وسيفى مجرَّدٌ .

---

(١) هو صاحب كتاب « الأذكياء » ، وهو الزاهد المحدث المؤرخ الشاعر أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى عين أعيان بغداد فى القرن السادس الهجرى ، توفى سنة ٥٩٧ هـ .

(٢) الهوس : طرف من الجنون .

فحِينَ حصَلتُ فى السِّرْداب أحسَسْتُ حَركَة الشخص يُريد الفِرارَ منى ، فطرحتُ نفسى عليه . فوقعتْ يدى على بَدَنِ إنسانٍ ، فقبَضتُ عليهِ فأخرجتُه ؛ فإذا هى جاريةٌ سوداء .

فقلتُ : أىُّ شىءٍ أنتِ ؟ وإلّا قتلتُك الساعةَ .

قالت : قبلَ كلِّ شىءٍ أنت إنسِىٌّ أم جِنِّىٌّ ؟ فما رأيتُ أقوَى قلبًا منك قَطُّ .

فقلتُ : أىُّ شىءٍ أنتِ ؟

قالت : أَمَةٌ لقومٍ بالكُوفةِ أَبَقْتُ[1] مِنْهم مُنذُ سنين ، فتغرَّبْتُ فى هذه الخَرِبة ، فولَّد لى الفِكرُ أن أحتالَ بهذه الحيلة ، وأُوهِمَ النَّاسَ أنِّى غُولٌ حتى لا يَقْرُبَ الموضِعَ أحدٌ ، وأَتَعَرَّض ليلاً للأحداثِ ، وربما رمَى أحدُهم مِنديلاً أو زاداً فآخذُه ، فأبيعُه نهاراً ، وأقتاتُ به أيَّامًا .

قلتُ : فما هذا الشخصُ الذى يطولُ ويقصُرُ ؟ والنارُ التى تظهر ؟

قالت : كِساءٌ معى طويلٌ أسودُ (وَأخرجَته من السِّرداب) ، وقصَباتٌ هنديَّةٌ أُدخِلُ بعضَها فى بعض فى الكِساء وأرفعُه فيطولُ ؛ فإذا أردت تقصيرَهُ دفعتُ من الأنابيب واحدةً فى واحدةٍ فيقصُرُ .

---

(١) هربت .

والنارُ فتيلةُ شمعٍ معى فى يدى ، لا أُخرِجُ إلّا رأسَها مقدَار ما يضىء الكِسَاءَ (وأرَتْنى الشمعةَ والكِساءَ والأنابيب)، ثم قالت : قد جاوزت هذه الحيلة نَيِّفًا وعشرين سنة ، واعترضتُ فُرسانَ الكوفةِ وشُجعانَها وكلَّ أحَدٍ ، فما أقدمَ أحدٌ علىَّ غيرُك ، ولا رأيتُ أشدَّ قلباً منك .

فحَمَلَها الأدرعُ إلى الكوفة ، فردّها إلى مَواليها . فكان يُحدِّثُ بهذا الحديث ، ولم يُرَ بعدَ ذلك أثرُ غول ، فعُلِم أن الحديثَ حق .

وممن اُشتهر بالإقدامِ من الأوربيين (نابليون بونابرت) إمبراطورُ فرنسا ؛ فقدكان قائداً فريداً ، وسياسيًّا مُحنَّكاً ، وكان فى حربٍ مع معظمِ الممالكِ المحيطةِ بفرنسا . لم يَرْضَ (نابليونُ) لنفسه أن يخضَعَ حتى للعوارض الطبَعِيَّةِ التى لا قِبَلَ للإنسان بمُقاوَمتِها ومُغالبتِها ؛ فقد قيل له لما أراد أن يكتسحَ إيطاليا بجيشهِ الجرّارِ : « إن جبالَ الألبِ الشاهقة تَعوقُكَ عن المسير ، وتَحُولُ دُون أمَانيك » . فأرسَلَ فِئةً من الكشّافةِ لرؤية طُرقٍ فى الجبال . فلما عادُوا سألهم قائلاً : هل يمكنُ اجتيازُها ؟ فهزُّوا رءوسَهُم ، فأجاب أحدُهم : يمكنُ ولكنْ . . . فقال نابليونُ : لا أريدُ أن أسمعَ أكثرَ من ذلك . إلى الأمامِ ! إلى إيطاليا ! يجبُ أن تُمْحَى هذهِ الجبالُ من الأرضِ . فَضحِك الناسُ واُستغربُوا كيف يَعبُر جيشٌ مؤلفٌ من ستينَ ألفَ نفسٍ جبالاً لا طريقَ فيها .

ولكنَّ نابليونَ أنتظرَ حتى رتّبُوا كلَّ شيء فضُربت الأبواقُ ، وأمرهُم بالمسيرِ . وحينئذٍ تحركَ الجيشُ ، وبذل كلٌّ غايةَ جُهْدِه ، وسَرْعان ما صعِدوا بأمانٍ فوق هذهِ الجبالِ الشامخةِ . وبعد أربعة أيامٍ كانُوا فى سهولِ إيطاليا . فقال نابليونُ : « إنَّ الرجلَ الذى صمَّمَ على النجاحِ لا يَعْتقِدُ أن فى الدُّنيا مُحالاً » ؛ ولا غَرابةَ ؛ فكلُّ غايةٍ قريبةٌ فى نظَر المِقدام ، وبعيدةٌ فى نظر المحْجِمِ ، كما قال المستر لويدْ جُورج .

ثالثاً : تظهر الشجاعة فى الإجابة وفى ابداء الرأى :

من الشجاعةِ أنْ يُجيبَ الإنسانُ بكل أمانةٍ وإخلاصٍ عما يُسألُ ، وأن يُبدىَ رأيَهُ بكلِّ صراحةٍ ، ويُدافِعَ عنه من غيرِ تغييرٍ للحقائقِ ، ومن غيرِ اُضطرارٍ إلى الإنكارِ ، أو ذكْر نصفِ الحقيقةِ خوفًا من أن يظهرَ بنفسه الحقيقيَّةِ كما هى . وإذا اُعترفنا بكُلِّ إخلاصٍ بأننـا فعلْنا كذا ، ولم نسمعْ روايةَ كذا ، أو لم نقرأْ كتابَ كذَا ، أو أننا لا نُحبُّ فلاناً ، فقد يَعْجَبُ المستمِـعُ العادىُّ ، ولكنَّنا لو ذكرْنا السببَ بطَلَ العجبُ . وهذا أفضلُ من تشويهِ الحقائقِ بالتغييرِ والزَّخْرفةِ ، وتضليلِ الناسِ . وهناك أسئلةٌ شخصيةٌ تدُلُّ على تطفُّلِ السائلِ ، وتدخُّلِه فى شئونِ غيرِه ، فَمِثْلُ هذه الأسئلةِ يَجِبُ أن تُحارَبَ برفضِ الإجابةِ عنها بكُلِّ أدبٍ ؛ عِقاباً لذلك المتطفِّل .

وتبْدُو الشجاعةُ فى ضِرارٍ الصُّدائى[١] ؛ إذ قال له معاوية (رضى الله عنه) : ياضِرارُ صِفْ لى عليًّا .

فقال : أَعْفِنى يا أميرَ المؤمنين .

قال : لَتصِفَنَّه .

فقال : أما إذْ أذِنْتَ فلا بُدَّ من صِفَتِه . كانَ واللهِ بعيدَ المدَى[٢] شديدَ القُوَى ، يقول فصْلاً[٣] ، ويحْكُمُ عدلاً ، يتفجَّرُ العِلمُ من جوانبِهِ ، وتنطقُ الحِكمةُ من نواحيه ، يستوحشُ[٤] من الدُّنيا وزَهرتِها[٥] ، ويستأنسُ بالليل وظلمتِهِ . كان واللهِ غزيرَ الدَّمْعةِ ، طويلَ الفِكرةِ ، يُقلِّبُ كفَّه[٦] ويُخاطِبُ نفسه ، يُعْجبه من اللباس ما قَصُر[٧] ، ومن الطعام ما خَشُن . وكان فينا كأحدِنا ؛ يُجيبُنا إذا سألناه ، ويُنبِئُنا إذا استنبأناه . ونحنُ مع تقريبهِ إيانا ، وقربه منا لا نكادُ نكلِّمُه لهيبتِهِ ، ولا نبتدئه لعظمتِه . يُعظِّمُ أهلَ الدينِ ، ويُحبُّ المساكينَ . لا يَطمعُ القويُّ فى باطلِهِ[٨] ، ولا ييْأَسُ الضعيفُ من عدْله . وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقِفه ، وقد أَرخَى الليل سُدولَه[٩] ، وغارت[١٠] نجومُه ، وقد مثَلَ[١١] فى مِحرابه قابضا على لحيته يتململ[١٢] تململَ السليم[١٣] ،

(١) نسبة إلى صداء حى من مذحج من اليمن . (٢) الغاية . بعيد النظر .
(٣) حقاً . (٤) يبتعد . (٥) حسنها .
(٦) يحاسب نفسه ويندم (٧) لما فى ذلك من طهارة الثياب والقصد فى المال .
(٨) أى فى باطل يجامل به القوى . (٩) جمع سدل كقفل وحمل : الستر .
(١٠) غربت فى وقت السحر . (١١) وقف منتصب القامة .
(١٢) أى لايكاد يستقر كأن به وجعاً . (١٣) الملدوغ كأنهم تفاءلوا له بالسلامة .

ويبكي بكاء الحزين ، ويقول : يادنيا غُرِّى غيْرى ! ألِى تعرَّضتِ ؟ أم إلىَّ تشوَّقتِ ، هيهاتَ هيهات ، قد باينتُكِ[١] ثلاثا لارَجعةَ فيها ؛ فعُمرُكِ قصير ، وخَطرُكِ[٢] حقير . آهِ من قلة الزاد[٣] ، وبُعدِ السفَر ، ووحشة الطريق .

فبكى معاويةُ حتى أخضَلَت[٤] دموعُه لحيتَه . وقال : رحمَ اللهُ أبا الحسنِ ؛ فلقد كان كذلك . فكيْف حُزنُكَ عليه يا ضِرارُ ؟ قال : حُزْنُ من ذُبح واحدُها فى حِجرها ؟

وفى القِصَّة التَّاريخيّةِ الآتية يبدُو حِلمُ معاويةَ ، وشجاعةُ الزرقاء . قيلَ : إنه لما وَلِىَ معاويةُ الخلافةَ وانتظمتْ إليه الأمورُ ، وامتلأت منه الصدورُ ، وأذعنَ لأمره الجمهورُ ، وساعده اللهُ فى مُراده ، استحضرَ ليلةً خواصَّ أصحابِه وذاكرَهم وقائعَ أيامِ صِفِّينَ . ومن كان يتولَّى كِبْرَ الكريهةِ من المعروفين . فانهمكُوا فى القول الصحيحِ والمريضِ ، وآل حديثُهم إلى من كان يجتهدُ فى إيقادِ نارِ الحربِ عليهم بزيادة التحريضِ . فقالوا : امرأةٌ من أهلِ الكوفةِ تُسَمَّى الزرقاء بنْتَ عَدِىٍّ ، كانت تتعمَّدُ الوقوفَ بين الصُّفوفِ ، وترفعُ صوتَها صارخةً : يا أصحابَ علىٍّ ، تُسْمِعهم كلامًا كالصَّوارمِ ؛ مُسْتَحِثَّةً لهم بقولٍ لو سمِعَه الجبانُ

---

(١) طلقتك . (٢) قدرك .
(٣) أى الزاد للآخرة . (٤) بلت .

لقاتَلَ، والمُدْبِرُ لأقْبلَ ، والمسالمُ لحاربَ ، والفارُّ لكَرَّ ، والمتزلزلُ لاستقرَّ .

فقال لهم معاويةُ : أيُّكم يحفظُ كلامَها ؟

فقالوا : كلُّنا نحفظُه .

قال : فما تشيرونَ عَلَيَّ فيها ؟

قالوا : نُشيرِ بقتلها ؛ فإنها أهلٌ لذلك .

فقال لهم معاويةُ : بئْسَ ما أشرْتُم به . وقُبْحًا لما قُلتم . أيَحْسُنُ أن يَشْتهرَ عنى أنَّى بَعد ما ظَفِرْتُ وقدَرت قتلتُ امرأةً قد وفَتْ لصاحبها ؟ إنى إذاً للَئيمٌ . لا واللهِ لا فعلتُ ذلك أبداً ..

ثم دَعا بكاتبه فكَتب كتابا إلى واليهِ بالكوفةِ أنْ : أَنْفِذْ إلىَّ الزرقاءَ بنتَ عَدِيٍّ مع نفَرٍ من عشيرَتِها ، وفُرْسانٍ من قومها ، ومَهِّدْ لها وِطَاءً[1] لَيِّنًا ، ومَرْكَبًا ذَلُولاً[2] .

فلما ورِدَ عليْهِ الكتابُ ركِب إليها وقرأه عليها . فقالت بَعدَ قراءةِ الكتاب : ما أنا بزائغةٍ[3] عن الطاعةِ . فحملها فى هَوْدَجٍ[4] ، وجعل غِشَاءَهُ خَزًّا[5] مُبَطَّنًا . ثم أحسنَ صُحْبَتَها .

---

(١) الوطاء : ضد الغطاء . (٢) ليناً سهلا . (٣) مائلة .
(٤) مركب للنساء . (٥) نسيج من وبر .

فلما قَدِمَت على معاويةَ قال لها : مرحبًا وأهلًا خيرَ مَقْدَمٍ قَدِمَهُ وافدٌ. كيفَ حالُك يا خالةُ ؟ وكيف رأيتِ سَيْرَكِ ؟

قالت : خيرَ مَسيرٍ .

فقال : هَلْ تعلمين لِمَ بعثتُ إليكِ ؟

قالت : لا يعلمُ الغيبَ إلا اللهُ سبحانه وتعالى .

قال : ألستِ راكبةَ الجملِ الأحمرِ يومَ صِفِّينَ ، وأنتِ بين الصفوفِ تُوقِدِينَ نارَ الحربِ ، وتُحَرِّضِينَ على القتالِ ؟

قالت : بَلَى !

قال : فما حَمَلَكِ على ذلك ؟

قالتْ : يا أميرَ المؤمنينَ ، إنه قدْ ماتَ الرأسُ ، وبُتِرَ[1] الذَّنَبُ . والدهرُ ذُو غِيَرٍ[2] ، ومنْ تفكَّرَ أبصَرَ ، والأمرُ يحدُثُ بعدَه الأمرُ .

فقال : صَدقتِ ، فهلْ تعرفينَ كلامكِ ، وتحفظِين ما قُلتِ ؟

قالت : لا واللهِ . قال : للهِ أبوكِ ، فلقد سَمِعْتُكِ تقُولين :

« أيُّها الناسُ ، إن المصباحَ لا يُضيءُ في الشمس ، وإن الكواكبَ لا تُضيءُ مع القمرِ . وإن البغلَ لا يسبقُ الفرسَ . ولا يُقطعُ الحديدُ إلا بالحديدِ . ألاَ من استرشدَنا[3] أرشدْناه . ومن سألَنا أخبرْناه . إنَّ الحقَّ كانَ يَطلبُ ضالَّةً فأصابَها . فصبراً يامعشرَ المُهاجرِينَ والأنصارِ .

---

(٢) قطع .　　(٢) تغيرات ونوائب .　　(٣) طلب منا الهداية .

فكأنكم وقد التأم شملُ الشتاتِ[1] ، وظهرتْ كلمة العدلِ ، وغلبَ الحقُّ باطلَه ، فإنَّهُ لا يستوى المحِقُّ والمبْطِلُ . أفمنْ كان مُؤمناً كمنْ كان فاسِقاً ؟ لا يَسْتوُون . فالنِّزالَ[2] النِّزالَ ، والصبرَ الصبرَ ! ألاَ وإن خِضابَ النساء الحِنَّاء ، وخِضابَ الرجالِ الدِّماء . والصبر خيرُ الأمور عاقبةً . ائتُوا الحربَ غيرَ ناكِصينَ[3] ، فهذا يومٌ له ما بعدَه » .

يازرقاء أليسَ هـذا قولكِ وتحريضَكِ ؟

قالتْ : لقد كان ذلك .

قال : لقد شاركْتِ علِيًّا فى كل دمٍ سَفَكه .

فقالت : أحسنَ اللهُ بِشارتَك يا أميرَ المؤمنين ، وأدامَ سلامتَك ، مِثْلُكَ من يُبَشَّرُ بخير ، ويَسُرُّ جليسَهُ .

قال معاويةُ : أَوَقَدْ سَرَّكِ ذلك ؟

قالتْ : نعمْ ، واللهِ لقد سرَّنى قولُك ، وأنَّى[4] لى بتصْدِيقهِ ؟

فقال لها معاويةُ : واللهِ لوفاؤُكم له بعدَ موتهِ أعجبُ إلىَّ من حُبِّكم له فى حياتهِ . فاذْكُرى حوائجَكِ تُقْضَ .

فقالتْ : يا أميرَ المؤمنينَ إنِّى آليتُ[5] على نفْسى ألاَّ أسألَ أحداً بعد علِيٍّ حاجةً » .

---

(١) التفرق . (٢) المحاربة والمضاربة . (٣) راجعين ومحجمين .
(٤) من أينَ . (٥) أقسمت .

فقال : قد أشارَ عليّ بعضُ من عرفَكِ بقتلكِ .

فقالت : لؤمُ مِن المُشيرِ . ولو أطعتَه لشاركْتَه .

قال كلاّ ، بل نعفُو عنكِ ، ونُحْسنُ إليكِ ونرعاكِ .

فقالت . يا أميرَ المؤمنينَ ، كَرَمٌ منك . ومِثْلُكَ من قدَرَ فعَفا ، وتجاوزَ(١) عمن أساءه ، وأعطَى من غيرِ مَسألةٍ . فأعطاها كُسوةً ودراهمَ ، وأَقطَعها ضَيْعةً(٢) تُغِلُّ لها فى كل سنةٍ عشرةَ آلافِ درهمٍ . وأعادَها إلى وطنِها سالمةً ، وكتب إلى والى الكوفةِ بالوصيةِ بها وبعشيرتِها .

وقد خطبَ الحجَّاجُ يوماً فأطالَ . فقال رجلٌ من الحاضرينَ : « الصلاة » ؛ فإن الوقتَ لا ينتظرُك ، والربّ لا يعذرُك . فأمر بحبْسِه . فأتاه قومُه وزعمُوا أنَّهُ مجنونٌ .

فقال الحجَّاجُ . إن أقرّ بالجنونِ خلَّصْتهُ . فقال الرجلُ : لا يسوغُ لى أنْ أجحدَ(٣) نعمةَ اللهِ التى أنعَم بها علىّ ، وأُثبتَ لنفسى صفةَ الجنونِ التى نزّهنى الله عنها . فلما رأى صِدْقَه خلَّى سبيلَهُ .

---

(١) صفح . (٢) أرضاً . (٣) أنكر .

الفصل السادس

٥ ـ الحكمة

إنّ شخصيةَ الإنسانِ لا تكونُ متينةً إلا إذا زانَتْها الحكمةُ والعلمُ والحزمُ ، ووضعُ الأشياءِ فى مواضِعها ، وقدْرُها حقّ قدرِها . والرجلُ الحكيمُ هو السديدُ الرأيِ ، البعيدُ النظرِ ، الحسَنُ التقديرِ ، الذى يعرفُ الحقَّ فيتمسَّكُ به ، ويَفْعلُ ما يجبُ أن يُفعلَ ، ويتركُ ما يَنْبغى أن يُترَكَ ، ويقولُ ما يجبُ أن يُقالَ . يرى الفرصةَ فينتهزُها ، ويَشعُرُ بالطريقِ المستقيم فَيسْلُكه ، يُحِسُّ نتيجةَ الشىء حتى قبلَ حُدُوثِها ، ويعاملُ غيرَه بما يُحبُّ أن يُعاملَ به ، ويحكُمُ على غيره بما يَودُّ أن يُحكَمَ به عليه ، يُحبُّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه . وإذا حكَمَ على غيره كان حكْمهُ بعيداً عن الأهواء والأغراضِ ، تتمثَّلُ فيه النزاهةُ والعدالةُ . كلُّ هذه الصفاتِ نتيجةُ الحِكْمةِ وحسنِ التَّقْدِيرِ . قال جلّ شأنهُ : « وَمَنْ يُؤتَ الحِكمةَ فَقَدْ أوتِىَ خيراً كثيراً . » وقال صلى الله عليه وسلم : « الحكمةُ ضالّةُ المؤمن » .

والحكمةُ صِفةٌ أساسيّةٌ فى تكوينِ الشخصيَةِ الساميَةِ تحمِلُ

الإنسانَ على العمل وَفْقَ العقلِ . وهى خلاصــةُ الأخلاقِ ، وأساسُ كلِّ فضيلةٍ ؛ بها يتدبَّرُ الإنسانُ عواقبَ الأمورِ ، ويُميِّزُ بين الخيرِ والشرِّ ، والحقِّ والباطلِ .

قال ابن مسكويه الفيلسوفُ الإسلاميُّ فى كتابهِ : « تهذيبِ الأخلاق » : « الحكمةُ وسطٌ بين السَّفَه والبَلَهِ » . ويَعنِى بالسفَهِ هنا استعمالَ القوةِ الفكريةِ فيما لا ينبغى وكما لا ينبغى . ويَعنِى بالبلَهِ تعطيلَ هـذه القوة الفكريةِ وإهمالَهَا قصداً . أما إذا انْتفَت الحكمةُ فإن الإنسانَ يكونُ واهِنَ[1] الرأيِ ، مضطربَ البصـيرةِ ، سيِّءَ الحظِّ ، عاثِرَ[2] الجدِّ ، ضعيفَ الشخصيةِ ، يعجز عن تقدير الأشياء ، ويفعل ما يجب أن يُترَك ، ويُهمل أموراً تجب العنايةُ بها ، ويهتم بأشياءَ لا قيمةَ لها . يُحب ما ينبغى أن يُـكرَه ، ويَكرَهُ ما ينبغى أن يُحَبَّ ، فيُصبح ضحيةً لوجدانهِ وأقواله وأفعاله . ويصير مكروهاً لدَى من يعرفونه .

قيل لرجل من بَنِي عَبْسٍ : ما أكثرَ صوابَكم . قال : نحن ألفُ رجلٍ وفينا حازم ، ونحن نطيعُه ، فكأننا ألف حازم .

ومن الحكمةِ أن تجتهدَ فى إرضاء النـاس — وإن كان إرضاؤهم جميعاً غايةً لا تدرَك — من غير أن تُضحِّيَ بمبدأ من مبادئك ، أو مظهر

---

(١) ضعيف .   (٢) سيء الحظ .

من مظاهر رجولتك ؛ حتى تمتلك قلوبهم . وهـذا دليل على وجود الشخصية القوية الجذابة . ومنها أن تكون ذا أناة[1] عند القدرة، وذا حلم عند الغضب ، وذا سطوة[2] عند المغالبة .

وكثيراً ما تفسد الحكمة وتشوه بالفخر ، أو التكبر ، أو الحقد ، أو الغيرة ، أو الغش . فينبغى أن يهذب الإنسان نفسه ، ويترك الفخر جانباً ولا يتكبر ، ولا يحقد على غيره ، ولا يغش أحداً أو يضله ؛ حتى تكون علاقته بغيره حسنة ، وتكون شخصيته محبوبة لدى من يتصلون به أو يعرفونه .

وليس من الحكمة الغضب فى غير غضب ، والكلام فى غير نفع ، والعطية فى غير موضع ، والثقة بكل أحد ، وعدم معرفة الصديق من العدو . وفى كليلة ودمنة : « ليس من الحكمة أن تصدق ما ينبغى أن يكذب ، وتكذب ما ينبغى أن يصدق ، وتلتمس تقويم من لا يستقيم ، وتعالج تأديب من لا يتأدب ، وتتدخل فيما لا يعنيك ، وتعمل غير عملك ؛ فإن الذين يعملون غير أعمالهم ليسوا على شىء ؛ كالذى يضع الرماد موضعاً ينبغى أن يضع فيه الرمل ، والرجل الذى يلبس لباس المرأة ، والمرأة التى تلبس لباس الرجل ، والضيف الذى يقول : أنا رب البيت ، والذى ينطق بين الجماعة بما لا يسأل عنه » .

(١) تأن . (٢) قوة وسلطان .

قيل لعنترةَ العبسيّ : أأنت أشجعُ العربِ وأشدُّهم بطشاً ؟ فقال : لا . فقيل له : كيف شاع لك هذا الاسمُ بين الناس ؟

فقال إنى أُقْدِمُ إذا رأيت الإقدامَ عزمًا ، وأُحجِم إذا رأيت الإحجامَ حزمًا ، ولا أدخل مدخلًا إلا إذا رأيتُ لى منه مَخْرجًا ، وأعمِـد إلى الضعيف الساقط فأضربُه ضَرْبةً يطير بها قلبُ الشجاعِ ، فأثنى عليه فآخُذه ، والحربُ خُدعة[1] .

وقد ذَكرَ أعرابى قومًا فقال : أدَّبَتْهم الحكمةُ ، وأحكَمَتْهم التجاربُ ، ولم تَغرُرْهم السـلامةُ المنطويةُ على الهَلَكةِ ، فأحسنُوا المقالَ ، وشفعوه بالفعال[2] .

قيل لعربىّ : مَن أحزمُ الناسِ ؟ فقال : من أخذَ[3] رقابَ الأمورِ بيديه ، وجعلَ العواقبَ نُصْبَ عينيه ، ونبذَ التَّهيُّبَ[4] دَبْرَ[5] أُذُنيه . وقيل له : ومن أخرقُ الناس ؟ فقال : من ركبَ الخِطارَ[6] ، واعْتَسَفَ[7] العِثَارَ ، وأسرعَ فى البِدَارِ قبْلَ الاقتدارِ .

---

(١) يقال خدعه : ختله وأراد به المكروه من حيث لا يعلم . والحرب خُدعة وخَدعة بالضم ، والفتح أفصح .

(٢) انتهى من الأمالى لأبى على القالى ص٢٣ ج ٢

(٣) الأمالى ج٢ ص٢٨١ طبعة بولاق سنة ١٣٢٤ هـ .

(٤) التخوف . (٥) خلف . (٦) الأمور التى لا تؤمن عاقبتها .

(٧) اعتسف : ركب الطريق على غير هداية ، والعثار : ما يوقع فى السقوط ،

والحكيمُ : الحِلمُ طبيعتُه ، والرأىُ الحسَنُ سَجيَّتُه ، إن سُئِلَ أجاب ، وإن نَطَقَ أصاب ، وإن سَمِعَ العلمَ وعَى [1] . وأما الأحمقُ فإن تكلم عَجِلَ [2] ، وإن حدَّث أخطأ ، وإن اُسْتُنْزِلَ عن رأيه نَزَلَ .

وتتطلبُ الحكمةُ قبل الشروع فى الفعل :

(١) التروِّىَ فى الأمور ؛ لأن العَجلَةَ كثيراً ما تؤدِّى إلى الخطأ . وإذا قلنا بالتروِّى فإننا لا نقولُ بالإغراقِ فيه ؛ لأنه يَحُولُ دونَ النجاحِ فى كثير من الأعمال ، ويفوّت الفرصةَ .

(٢) وَفرة العلمِ والتجربةِ فإنها سبيلُ الحكمةِ .

(٣) توافر الفطنة ؛ إذ لا سبيلَ لصحةِ الفكر بغيرها .

(٤) توافر الثباتِ وكَبح النفسِ .

ومما يحول دون الحكمة :

(١) العجلةُ فى الفعل .

(٢) الإغراقُ فى التروِّي .

(٣) قلةُ التجربةِ والعرفانِ .

(٤) سُقْمُ الفكرِ أو خطؤُه .

(٥) التشبث والجمودُ .

---

(١) حفِظ .   (٢) أسرَعَ .

وتتضمن الحكمةُ حسنَ التدبير ، وجودةَ الذهن ، وثقابةَ[1] الرأى ، وصوابَ الظنِّ . قال معاويةُ بنُ أبى سفيانَ[2] : « إنى لا أضعُ سَيفى حيث يكفينى سَوطى ، ولا أضع سَوطىَ حيث يكفينى لسانى ، ولو أن بينى وبين العامّة شعرةً ما انقطعَتْ أبداً ، قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : كنت إذا جذبوها أرخيتُها ، وإذا أرْخَوْها جَذَبْتُها » .

وفى هذا القولِ تتمثلُ الحكمةُ والحلمُ . وقد سألَ الإسكندرُ الأكبرُ يوماً جماعةً من حكمائه ، وكانَ قد عزَمَ على سفر ، فقال : «أوضِحُوا لى سبيلاً من الحكمةِ أُحْكِمُ فيه أعمالى ، وأُتقِن به أشغالِى» .

فقال كبيرُ الحكماء :

أيها الملكُ : أَعمِلِ الفكْرَ واتَّخِذْه وزيراً ، واجعلِ العقلَ صاحباً ومُشيراً ، واجتهدْ أن تكونَ فى ليلك مُتيقِّظاً ، ولا تَشرَعْ[3] فى أمرٍ بغيرِ مَشُورَةٍ ، وتجنَّبِ الميلَ والمحاباةَ فى وقت العدلِ والإنصافِ ؛ فإذا فعلتَ ذلك جرَتِ الأمورُ على إيثارِك[4] ، وتصرّفتْ باختيارك .

---

(١) اتقاد واشتعال .

(٢) انتهى من نهاية الأرب ج ٦ ، ص ٤٤ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦م .

(٣) تبدأ . (٤) ماتحب وتختار .

الفصل السابع

٦ ــ التفــــاؤل

من العناصر التى لا تقلُّ أهميـةً فى تكوين الشخصيةِ الممدوحة: التفاؤلُ والتيمنُ[١] والنظرُ إلى الأشياء بمنظارِ الفألِ الحسَنِ ، ويُمنِ الطالع ، لا بمنظار التشاؤمِ والتطيّر[٢] ؛ ذلك المنظار الأسود ، مِنظار الشؤمِ والطِّيَرَة ؛ فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يحب الفألَ ، ويَكرَه الطِّيَرَة . وفى الحديث : « ليس مِنّا من تَطيّر » . قيل :

لما قدِمَ رسول الله المدينةَ نزلَ على رجل من الأنصار ، فصاح الرجل بغلاميه : ياسالمُ ويا يَسارُ ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): « سَلِمتْ لنا الدارُ فى يُسرٍ » . وفى هـذا تتمثل روحُ التفاؤل لدى الرسولِ الكامل .

ولا نقصد بالتفاؤل أن نُغمِّض أعيننا عن الحقائقِ ، ونتائجِ الأمور ، بل نقصدُ أن نعتادَ فى تفكيرنا النظرَ إلى الأشياء بعينِ الأملِ والرحمة ، لا بعين اليأسِ والقنوط ، وننظر إليها فى نور الأمل ، لا فى ظلام اليأس ، من الناحية المضيئةِ من الطريق ، لا من الناحيةِ المظلمةِ الحالكةِ .

(١) رجاء الخير ، والتبرك .

(٢) يقال تطير من الشىء وبالشىء ، والاسم الطيرة وهو ما يتشاءم به من الفأل الردىء .

والمتفائلُ يَرضَى بالماضِي خيرِه وشرِّه ، ويثقُ بالمستقبل ثم يؤدى الواجبَ ويترك النتيجةَ لله سبحانه وتعالى . وتُعتبر هذه العادةُ العقليةُ — وهى عادةُ التفاؤل — من الأمورِ الجوهريةِ فى تقويةِ الشخصية . وكثيراً ما ينشأ التفاؤلُ من نشاطِ الشخصِ ، وقوتهِ العقليةِ والعصبيةِ ، وعن نوع الأفكار التى يَسمحُ لهـا بالدخول إلى العقل . وإذا تعود الإنسانُ أن يُزوِّدَ نفسَه بالأفكارِ الصحيحةِ السارّة فإنه لا يتجنبُ التشاؤمَ والحزنَ فحسْبُ ، بل قد يُطِلُّ من نوافذ العقلِ على النـاحيةِ السارّةِ المضيئةِ من الحياة .

وينشأ التشاؤمُ عن ضعفِ النشاطِ وضعفِ القوةِ العصبيةِ ، وَوَهْنِ [١] الرقابةِ العقليةِ (Mental Control) فى الإنسان ؛ فيسمحُ لنفسه بأن تسبحَ فى جوٍّ مظلم من الأوهام ، حتى يُصبحَ عقلُه متلبداً بغيومٍ لا حقيقةَ لها ، ودخانٍ لا أصلَ له ؛ هى غيومُ التطيرِ ، ودخانُ التشاؤمِ .

وإن ضبطَ النفسِ والنظرَ إلى الناحيةِ السعيدة دائماً ، مما يُزيلُ عن أولئك المتشائمين ، وهؤلاء المتطيّرينَ هذه الهمومَ والأحزانَ التى تسيطرُ على نفوسهم .

(١) ضعف .

وإذا كان التفاؤل مُوقظاً للعقل ، ومَدعاةً للنشاط ، وباعثاً على الإقدام ، ومحرِّراً للإنسان ، ومنشِّطاً لجميع قواه العقلية ، فالتشاؤمُ سببٌ في الخمولِ والكسَل وكثرةِ الترددِ والفشل ، والشقاءِ والضعف ، لا في التفكير فَحَسْبُ ، بل في الشخصيةِ كذلك .

فالشخصيةُ الحيـةُ القوية ، ينبغى أن تتمسكَ بالتفاؤل ، وتلتزمَ الناحيةَ السارة ، يقودُها الأمل ، ويُحييها الرجاء ، تُفكر في النجاح أكثرَ من الخيبةِ ، وفى التقدمِ أكثرَ من التأخرِ ، وتميل إلى جانبِ الثقة أكثر من الميل إلى جانبِ التردد ، وتثقُ بما تقول وما تفعل ، ولديها كلُّ علاج ، وهى مَنبعُ النشاطِ والقوةِ .

ومن الحكمة أن ترجِّحَ جانبَ الخيرِ على جانب الشر ، واللينَ على الشدة ، والتعقلَ على الطيش ، والأملَ على اليأس ، والنورَ على الظلام .

قال صلى الله عليه وسلم : « إذا رأى أحدُكم الطيرَ ، فقال : اللَّهُمَّ لا طيرَ إلا طيْرُك ، ولا خيرَ إلا خيرُك ، ولا إلهَ غيرُك ، لم تضره » .

وكان الرسول الكريم يتفاءلُ ولا يتطيَّر ، ويحب الاسمَ الحسنَ . وقال[1] : « ثلاثة لا يَسلَم منهنَّ أحد : الطِّيَرةُ والظنُّ والحسدُ . قيل له : فما المخرجُ منهنّ يارسولَ الله ؟ قال : إذا تَطيَّرتَ فلا ترجِعْ ، وإذا

(١) انتهى من العمدة لابن رشيق ، ج ١ ص ٣٩ ، طبعة سنة ١٩٠٧ للخانجى .

ظَنَنت فلا تُحقِّقْ ، وإذا حسَدْتَ فلا تَبغِ » .

قال الشيبانيُّ : لما قَدِمَ قتيْبةُ بن مسلم والياً على خراسان قام خطيباً ، فسقطت المِخصرةُ(١) من يدِه ، فتطيّر به أهلُ خراسان ، فقال : « أيها الناسُ ليس كما ظننتُم ، ولكنه كما قال الشاعر :

فألقَتْ عصاها واُستقرَّ بها النوَى * كما قرَّ عيناً بالإِيابِ المسافرُ

وهنا يبدو حضورُ الذهنِ ، وروحُ التفاؤل لدَى قُتيبةَ .

وفى الأدب العربى كثير من النوادر عن التطيّر والتشاؤم ؛ ولا عجبَ فقد كانت العربُ تتطيّر من بعض الأقوال والأفعال ، وأصواتِ البُوم والغربان . قال أبو الشِّيص :

وفى نَعَبات(٢) الغراب اُغترابٌ * وفى البانِ(٣) بيْنٌ(٤) بعيدُ التدانى

وقال آخر فى السَّفرجَل :

أهدى إليه سَفرْجلاً فتطيّرا * منه فظلَّ مُفكِّرًا مُستعبِرا

خوْفَ الفِراقِ لأنَّ شَطرَ(٥) هِجائه * سَفَرٌ وحقٌّ له بأن يتطيّرا

ويتنافى التشاؤم مع العقل السليم ، ويدل على قِصَر النظر ، والوسوسةِ ، وضعفِ العقيدةِ ؛ ففى التطير ظنٌّ بمعرفة الغيبِ ، « وما

(١) كالسوط ، أو كالعصا مما يمسكه الإنسان بيده فيتوكأ عليه أو يشير به .
(٢) أصوات الغراب ، يقال نعب الغراب أى صوّت وصاح .
(٣) غصن البان الذى ينوح عليه الغراب .   (٤) البين : الفراق .
(٥) شَطر الشيء : نصفه .

يعلمُ الغيْبَ إلا الله » . « وعَسى أن تكرهوا شيئاً وهوَ خيرٌ لكم » .

وكان ابنُ الرومىّ[١] كثيرَ الطيَرَةِ ، ربما أقام المدّةَ الطويلة لا يتصرف ؛ تطيراً بسوء ما يراه ويسمعه ، حتى إن بعضَ إخوانه من الأمراء افتقدَه[٢] ، فأُعلم بحاله فى الطيرة ، فبعثَ إليه خادماً اسمه إقبال ، ليتفاءل به . فلما أخذ أُهْبَتَه[٣] للركوب ، قال للخادم : انصرف إلى مولاك ؛ فأنت ناقص ، ومَنكُوسُك[٤] أسمك «لا بقا[٥]» . وابن الرومى هو القائل : الفألُ لسانُ الزمان ، والطيرةُ عنوانُ الحِدْثان[٦] ، وله فيه أحتجاجاتٌ وشعر كثير .

وعجيبٌ أن آثارَ تلك الروح ، روح التطير والتشاؤم لا تزال سائدةً فى خُرافاتِ الأمم المتمدينةِ والمتوحّشةِ ؛ فالمشىُ تحت السلّم ، ورقم ١٣ ، والحُلة الخضراء للعروسِ ، وكسر الآنية ، ورمى القلل القديمة وراء المبغَضِين ؛ كلها تؤدى إلى السوءِ والشرِّ فى نظر المخرِّفين المتشائمين . وما أبعدَ هذه التُّرَّهَاتِ[٧] عن الحقيقة والواقع .

---

(١) ابن الرومى هو أبو الحسن على بن العباس المعروف بابن الرومى ، وهو من الشعراء العباسيين ، عرف بالهجاء والعتاب فى شعره ، وهو مولى يونانى ولد ببغداد سنة ٢٢١ ومات مسموماً سنة ٢٨٣ هـ .

(٢) افتقده وتفقده : طلبه عند رغبته .

(٣) عدته .

(٤) معكوس حروفه .

(٥) يزيد « لابقاء » .

(٦) حدثان الدهر : نوبه .

(٧) التُّرَّهات : الطُّرق الصِّغار غير الجادّة تتشعّب عنها الواحدة (تُرَّهَة) فارسىّ معرب ثم استعير فى الباطل .

الفصل الثامن

٧ — التواضع وعدم التصنع

العنصر السابع من عناصر الشخصية التواضعُ وعدمُ التصنع ؛ وذلك بأن يكونَ لدى الإنسانِ استِعدادٌ به يقدر نفسَه ومركزَه تقديراً يدل على التفكيرِ والحكمةِ من غيرِ تصنُّعٍ ، أو تظاهرٍ بما ليس فيه .

فإذا تصنعَ المرء وادَّعَى صراحةً أو ضِمناً ما ليس فيه ؛ كأَن يقدرَ نفسَه فوق قدرِها ، ويُعطيَها أكثرَ من حقها ، ويتعظمَ وما هو بالعظيم ، ويَدّعىَ العلمَ وما هو بالعالم ، والثروةَ وما هو بالثريّ ، وَالقوةَ وما هو بالقويّ — إذا ادَّعَى شيئاً من هذه الأشياء فقد يتضحُ أمرهُ لدَى الناس . ويتبينُ جهلُه أو فقرُه أو ضعفُه على عكس ما أُدّعَى ، فيعلمون كذبه ، فيحتقرونه ويَزْدَرونه ، ويَنفِرون منه ، ويتباعدون عنه ، ويصبحُ ممقوتاً عندهم جميعاً .

وإن مدْحَ الإنسانِ نفسَه ثقيلٌ لا يُقبَل ، وإذا قُبِلَ فإنه يجب أن يُؤسَّسَ على حقائقَ . والأَوْلَى أن يترُكَ الإِنسانُ عملَه ليدلَّ عليه ، ويتحدثَ عنه ، بدلا من أن يتحدثَ هو عن نفسه . وإذا كان المرء

جديراً بالمدح فسرعانَ ما تظهرُ حقيقتُه ، ويقدرُ الناسُ كفايتَه ، ويَزِنون أعمالَه ، ويعترفون بشخصيتِه ومقدرته .

فالتواضع فى غير ذِلةٍ سبيلُ النجاحِ والرفعة ، والتصنعُ سبيلُ الفشلِ والمَهانة .

وإننا وإن كنا ضِدَّ التصنُّع والتظاهر ، لا نمنع أن نُنْزِلَ أنفسَنا منزلتَها ، ونَعُدها وحدةً من المجموع ، لها ما له ، وعليها ما عليه ، ونستحسن أن نتركَ لغيرِنا الحكمَ لنا أو علينا ، وأن نتحلَّى بالتواضع فى غير ضَعفٍ أو ضَعَة . فالتواضع أساسٌ للشخصيةِ المحبوبةِ الجذابة . وإننا نجتذب غيرَنا ، بقدر حبِّ غيرِنا لنا .

وإذا كانت الشخصيةُ مظهراً لقوةِ النفس ، فهى عدوةُ الكذبِ والتضليل . فليس المهمُّ أن يدَّعِىَ الإنسانُ كذباً ، ولكن المهمَّ أن يعملَ حتى يُثبِتَ لنفسه العظَمَةَ إن كان عظيما ، والزعامةَ إن كان زعيماً .

عن أبى أمامةَ قال : خرج علينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) متوكئاً على عصا ، فقمنا له ، فقال : « لا تقوموا كما يقومُ الأعاجمُ يُعظِّمُ بَعضُهم بعضاً » . ودخل عليه رجل فأصابتْه من هَيبتِه رِعدَةٌ . فقال له : « هَوِّن عليك فإنى لستُ بملك ، إنما أنا ابنُ امرأةٍ من قريش

كانت تأكلُ القديد[1] » . وكان يَعُودُ المساكين ، ويجالسُ الفقراء ، ويُجيبُ دعوةَ العبدِ ، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم حيثما انتهى به المجلسُ جلس . وكان يُدْعَى إلى خبز الشعير والإهالة[2] السَّنِخة[3] فيجيب .

وأصبح النجاشيُّ يوماً جالساً على الأرض والتاجُ عليه ، فأعظمتْ بَطَارِقتهُ ذلك ، وسألوه عن السبب الذى أوجبَه . فقال : « وجدت فيما أنزل الله على المسيح : إذا أنعمتُ على عبدى نعمةً فتواضعَ أتممتُها عليه ، وإنه وُلد لى هذه الليلةَ غلامٌ ، فتواضعتُ شكراً لله » .

وقد كان التواضعُ يتمثلُ فى سيدنا عمرَ بن الخطاب (رضى الله عنه) ؛ فقد قال : أريدُ رجُلاً إذا كان فى القومِ وهو أميرُهم كان كبعضِهم ، وإذا لم يكنْ أميرَهم فكأنّه أميرُهم . وفى ذاتِ مرةٍ خاطبه رجل بقوله : « اتّقِ الله يا أميرَ المؤمنين » ، فهالَ ذلك رجلاً كان حاضراً ، وقال : أتقولُ لأمير المؤمنين اتّقِ الله ؟

فقال له عمر : « دَعْه فليقلْها لى . نِعْمَ ما قال . لا خيرَ فيكم إذا لم تقولوها . ولا خيرَ فينا إذا لم نتقبّلْها » . وإلى مثل هذا ينتهى الأدبُ والتواضعُ ، ورقةُ الجانبِ ، ولطفُ المعاملةِ .

---

(١) القديد : اللحم المقدد .   (٢) الدسم : الزيت والشحم :

(٣) يقال سنخ الدهن : زنخ .

قال أبو تمام :

مُتَبذِّلٌ (١) فى القومِ وهْوَ مُبَجَّلٌ (٢) * متَواضعٌ فى الحىِّ وهْوَ مُعَظَّم

وقال آخر :

متواضعٌ والنُّبلُ يحرُسُ قدرَه * وأخو التواضع بالنَّباهةِ يَنْبُلُ

وكان الرشيدُ يتواضعُ للعلماء ؛ قال أبو معاويةَ الضريرُ ، وكان من العلماء :

أكلتُ مع الرشيدِ يوماً ، فصَبَّ على يدَىَّ الماء رجلٌ ، فقال لى : يا أبا معاويةَ ، أتدرِى من صَبَّ الماء على يدك ؟ فقلتُ : لا يا أميرَ المؤمنين. قال : أنا . فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، أنت تفعل هذا إجلالاً للعلم. قال : نعم (٣) .

ومما يحكى عن تواضع « لُوِيس باستُور (٤) » العالم الفَرَنسىِّ وهو من أعظمِ العلماءِ نفعاً للبشرية — فهو من الذين خدَموا العلمَ ورقَّوْه ، وعالج الكَلَبَ والجمرةَ وآفاتِ الكُروم والخنازير . ممـا يحكى عنه أنّه دخل مرة فى مؤتمر طبيٍّ دولىٍّ عُقد فى سنة ١٨٨١ م . فقام الأطباء ، وحيَّوْه بهتاف عال ، فنظر إلى جارِه قائلاً : « أظن هذا الهتافَ لأن ولىَّ العهدِ

(١) من لا يصون نفسه عن القبيح . (٢) محترم .

(٣) انتهى من الفخرى .

(٤) Louis Pasteur (ولد سنة ١٨٢٢ ، وتوفى سنة ١٨٩٥ م) .

قد حضر . كان يجب عليّ أن أبكر » .

وممن يعدون مُثلا عليا للتواضع ، «المهاتما غاندى الزعيمُ الهندىُّ» ؛ فقد سئل مرةً : لماذا تركب فى الدرجةِ الثالثةِ من قُطُرِ السكةِ الحديدية ؟ فقال : « لأنى لا أجد فيها درجةً رابعة » .

والتصنعُ والتظاهرُ والجعجعةُ من علامات الضعف ؛ فالرجل الذى يَشعرُ بنقص فى ناحية يعملُ على أن يَسُدَّ ذلك الفراغَ ، ويُكمِّلَ ذلك النقصَ بالادِّعاء حيناً ، والإعلانِ أحياناً .

قالَ المأمونُ : ما تكبَّر أحدٌ إلاّ لنقصٍ وجَده فى نفسِه ، ولا تطاوَلَ إلاّ لوَهْنٍ أَحَسّ مِن نَفسِه . وأظنك قرأتَ فى كليلةَ ودمنـةَ أن ثعلباً أتَى أَجَمة[1] فيها طبلٌ معلقٌ على شجرة . وكلما هَبَّت الريحُ على قُضبانِ تلك الشجرةِ حرَّكتها . فضربت الطَّبل ، فَسُمِعَ له صوتٌ عظيم ، فتوجَّه الثعلبُ نحوه لأجل ما سمِع من عظيمِ صوته . فلما أتاه وجدَه ضخماً ، فأيْقَنَ فى نفسه بكثرةِ الشَّحمِ واللحمِ . فعالجه حتى شقَّه . فلما رآه أجوفَ لا شىءَ فيه قال : لا أدرى ! لعلَّ أفشلَ الأشياءِ أجهرُها صوتًا ، وأعظمُها جُثّة .

فليس من الحكمة أن يغترَّ الإنسانُ بالمظاهر ؛ فقد دخل كُثيِّر

---

(١) الشجر الكثير الملتف .

عَزةَ على عبد الملك بن مروانَ ، فقال عبدُ الملك : أأنت كُثيرُ عَزّة ؟ قال . نعم . قال أن تسمعَ بالمَعيدىِّ خيرٌ من أن تراه . قال يا أميرَ المؤمنين: كلٌّ عند محلّه رحْبُ[1] الفِناء ، شامخُ[2] البِناء ، عالِى السَّناء[3] . ثم أنشأ يقول قصيدةً ، من أبياتِها :

ترى الرجلَ النحيفَ فتزدريه[4] * وفى أثوابه أسـد هَصُورُ[5]

بُغَاث[6] الطَّيرِ أطولُها رِقابًا * ولم تَطُلِ البُزاةُ ولا الصُّقُورُ

ضِعَافُ الأُسْدِ أكثرُها زئيراً[7] * وأصْرَمُها[8] اللَّواتى لا تَزِيرُ[9]

فما عِظَمُ الرِّجالِ لهم بزينٍ * ولكنْ زينُهم كَرَمٌ وَخِيرُ

فقال عبدُ الملك : لله دَرُّه . ما أفصحَ لسانَه ، وأضبطَ جَنَانَه[10] ، وأطولَ عِنَانَه . والله إنى لأظنُّه كما وصفَ نفسَه .

وقد اجتمع عامرُ[11] بنُ الظَّرِب العَدَوَانىّ وحُمَمَةُ بن رافع الدَّوسىّ عند ملك من ملوك حِمير . فقال : تَسَاءَلا حتى أسمعَ ما تقولان . فقال عامرٌ لحممةَ : مَن أحقُّ الناسِ بالمقتِ ؟

قال : الفقيرُ المختالُ ، والضعيفُ الصَّوّال[12] ، والعَيِيُّ[13] القوّال[14] .

---

(١) واسع . (٢) عالى . (٣) من الرفعة .
(٤) تحتقره . (٥) كاسر . (٦) طائر أغبر ضعيف .
(٧) صوتاً وصياحاً . (٨) أقواها . (٩) تصيح .
(١٠) قلبه وعقله . (١١) وفى رواية عمرو .
(١٢) الصوال : المعتدى على غيره . (١٣) العي : من عنده لكنة .
(١٤) الكثير القول .

ووقف عُيينةُ بنُ حصن بباب عُمَرَ بنِ الخطابِ (رضى الله عنه) فقال : اُستأذنوا لى عَلَى أميرِ المؤمنين ، وقولوا : « هذا اُبنُ الأخيارِ بالباب . » فأَذِنَ له ، فلما دخل عليه قال له : أأنت اُبنُ الأخيار ؟ قال : نعم . قال له : بل أنت اُبنُ الأشرار ، وأما اُبن الأخيارِ فهو يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إبرهيمَ .

وقال يحيي بنُ حيّان : الشريفُ إذا تقوّى تواضعَ ، والوضيعُ إذا تقوّى تكبّر .

وقال كسرى : احذروا صولةَ الكريمِ إذا جاع ، واللئيمِ إذا شَبِع .

وقيلَ مَن وضَع نفسَه دُونَ قَدْرِهِ رَفَعهُ الناسُ فوقَ قدرِه . ومن رفعَها عن حَدِّه وضَعَه الناسُ دونَ حَدِّه .

وقال عبد الملك : أفضلُ الرجالِ من تواضعَ عن رِفعةٍ ، وعفَا عن قُدْرَةٍ ، وأنصفَ عن قوّة .

الفصل التاسع

٨ – حسن مَظْهر الإنسان وقوامه

لمظهرِ الإنسانِ أثرٌ في شخصيته ؛ فالرجل الصحيحُ الجسمِ ، الحسَنُ القامةِ ، قد لا يحتاج في إظهارِ شخصيتِهِ والتأثيرِ في غيره إلى ما يحتاج إليه الشخصُ النحيفُ الجسمِ ، المشوَّهُ الخِلقةِ ؛ فبينما تجد الأولَ طبعيًّا في معاملته ؛ لأنه لا يشعرُ بنقص خارجيٍّ يريد أن يكمله إذ تجدُ الثانيَ محبًّا للتظاهرِ ، متكلِّفاً في أقوالِهِ وأفعاله ، منتهزاً كلَّ وسيلةٍ يستطيعُ أن يُظْهِرَ بها نفوذَه ، فيتظاهرُ بالعلمِ تارة ، ويفخر بحسَبِه ونَسَبِه تارةً أخرى . وقد يتخذ أحياناً وسائلَ ثُعبانيةً أو ثَعلبية ، ليُظهرَ بها نفسَه أمامَ من يبغِي الظهورَ بينهم ، فيلجأ إلى الوشاية حيناً ، وإلى الملَق حيناً آخرَ . وقد يُضْطَر إلى التجملِ في جسمِه ولبسه ، أو المداعبةِ في حديثه ؛ كلُّ ذلك ليكملَ ما فيه من نقص جسميّ .

فالإنسان حينما يحس نقصاً من الناحية الجسمية مثلا ، تراه يعمل على أن يملأ هـذا الفراغ ، ويكمل ذلك النقص من الناحية العقلية

أو الخلقية ؛ حتى يُظهرَ شخصيتَه للملأ .

فسقراطُ[١] مثلا شيخُ الفلاسفةِ من اليونان، كان أفطسَ الأنفِ، غليظَ الشفتينِ، جاحظَ[٢] العينينِ، قبيحَ المنظرِ، ولكنه قد وَصَل بمواهبِه العقليةِ والخُلقية الأخرى إلى ذِرْوةِ المجد . ويكفيه فخرًا أنه أستاذُ أفلاطون، وأنه أكبرُ فلاسفةِ اليونان .

والجاحظُ[٣] كان أديبَ العلماء، وعالمَ الأدباء، وما لُقِّبَ بهذا اللقب الذى كان مُبَغَّضًا إليه إلا لأنه كان جاحظَ العينين (بارزهما) دميمَ[٤] الخلقةِ، حتى قيل : إن الخليفةَ المتوكلَ سمعَ بمنزلتِه من العلم والفهم، فاستقدمه إليه (بُسرَّ منْ رَأى) ليؤدبَ ولدَه . فلما رآه أُستبشَع منظرَه، وصَرَفه بعشرةِ آلافِ دِرهم . ولكنه بجانب ذلك كان خفيفَ الروحِ، ذكىَّ الفؤادِ، واسعَ الاطِّلاع . وكان يُعَدُّ دائرةَ معارف فى الآدابِ والعلومِ واللغةِ والتاريخ ؛ حتى أصبح لقبهُ — الذى كان يكرهُه — دليلًا عَلَى التبحُّرِ فى العلم والأدب، والفوقِ فى فنون البلاغةِ والبيان . سُئل كيف حالُك ياأبا عثمانَ ؟ فقال : « حالى أنّ

---

(١) ولد بأثينا سنة ٤٦٩ ق . م . وحكم عليه بالقتل ظلماً سنة ٣٩٩ ق . م

(٢) جحظت عينه : عظمت مقلتها ونتأت .

(٣) ولد بالبصرة سنة ١٦٠ هـ، وتوفى سنة ٢٥٥ هـ، وعاش نحو ٩٥ سنة .

(٤) قبيح .

الوزيرَ يتكلمُ برأيى ، وينفذُ أمرِى ، ويُوَاتِرُ[1] الصِّلاتِ إلىَّ . . »

والتاريخ حافل بكثير من العظماء المشوهةِ أجسامُهم ، الساميةِ أرواحُهم وعقولُهم . فلا تَستَهِنْ برجل قبيح المنظَرِ ، ولا تغتر بشخص حسَن المظهرِ ؛ فقد تجد فى الأول عظمةً وبُطُولة ، وقد تجد فى الثانى نقصاً أو ضَعفاً فى أية ناحية من النواحى ، ولا حاجةَ بنا إلى التطويل . وكل ما نريد أن نقوله : هو أنه إذا نَقصَ الإنسانُ من جهة حاولَ أن يكمِّلَ نفسَه من جهة أخرى . وإذا حُرِم الإنسانُ صفةً من الصفات وُهِبَ صفةً أخرى تحُلُّ محلَّها .

---

(١) يتابع العطايا .

الفصل العاشر

٩ — قوةُ البيان

إن قوةَ البيانِ ، وفصاحةَ اللسانِ ، وحسنَ المنطقِ ، والقدرةَ على التأثيرِ في السامعِ مع رَجاحةِ العقلِ ، تُكسبُ الإنسانَ شخصيةً قويَّةً ، وتجعل له منزلةً بين سامِعيه ؛ ولذلك لما أمرَ اللهُ تعالى سيدَنا موسى (عليه السلام) أن يذهبَ إلى فرعونَ ، شكا موسَى العِيَّ في القول ، وطلب من الله أن يُرسلَ معه أخاه هرونَ لفصاحته ، قائلاً : « وأخِي هرونُ هو أفصحُ مِنِّي لسانًا فأرسلْه مَعِيَ رِدْءاً[1] يُصَدِّقُنِي» يريد فرعون.

وإننا لا نريد بالفصاحةِ الثَّرثرةَ والتشدُّقَ ، والتوعُّرَ في الكلام ، كما لا نريدُ بها أن يزيدَ كلامُ الإنسانِ على عقله ، بل نريدُ حسنَ التعبيرِ عما في النفس ، وقوةَ التأثيرِ في المستمِع ، والتكلمَ من غيرِ تهيُّبٍ أو تخوف بحيث يكون الكلامُ حلواً رشيقاً ، سهلاً عذباً مؤثراً . أما العِيُّ[2] والحصَر[3] واللجلجةُ[4] والتَّمتمةُ[5] والفأفأة[6] وكثرة

---

(١) عونا ومساعدا
(٢) البطء في الكلام .
(٣) العى وضيق النفس
(٤) التردد في الكلام .
(٥) رد الكلام إلى التاء والميم
(٦) ترديد الكلام كثيراً .

الترددِ فى القول ، والخجلُ فى أثناء التكلمِ فتقلّلُ من تأثيرِ الشخصِ فى سامعيه .

وإنّ حسنَ التعبيرِ عما فى النفس شرطٌ أساسىٌ لقوةِ الشخصيةِ ، وهو يتطلبُ العلمَ بالشىء الذى نريد التكلمَ عنه ؛ لأن أفكارَنا إذا عُرِفَتْ كان من السهلِ التعبيرُ عنها .

وكما يجب أن نعرفَ ما نريدُ أن نقولَ ، وما نريدُ أن نفعلَ ، كذلك يجبُ أن نُحسنَ القولَ ، ونحسنَ العملَ . وما أجملَ الكلمةَ الصائبةَ فى اللحظةِ المناسبةِ . وكما ينبغى حسنُ التكلمِ والخطابِ ، كذلك ينبغى حسنُ الإصغاء والاستماعِ للمتكلم . وقد تكون لدينا الأفكارُ الساميةُ ، ولكننا نحتاج إلى شجاعةٍ فى إظهارِها حتى ينتفعَ بها غيرُنا .

ولقوةِ البيانِ أثرٌ كبيرٌ فى نفسِ المستمعِ ؛ فقد تنجّى من القتل ؛ قيل :

أُتِىَ مُصعَب بنُ الزُّبيرِ [١] بأَسْرَى من أصحابِ المختار ، فأمرَ بقتلهم بين يديه ، فقام إليه أسيرٌ منهم ، فقال : « أيها الأميرُ ، ما أقبحَ بك أن أقوم يومَ القيامةِ إلى صورتك هذه الحسنةِ ، ووجهِك المليحِ الذى يستضاء به . فأتعلقَ بك وأقول : يا ربٌ ، سَلْ مُصعباً فِيمَ قتلَنى ؟ »

---

(١) انتهى من العمدة لابن رشيق جـ ١ ، ص ٤٢ طبعة الخانجى سنة ١٩٠٨ .

فاستحيا مُصْعَبٌ ، وأمرَ بإطلاقه .

فقال الأسير : أيها الأمير ، أجعلْ ما وهبْتَ من حياتى فى خَفضٍ ودَعَةٍ من العيش .

قال : قد أمرتُ لك بثلاثين ألفَ درهم .

قال : إنى أُشهِدك أيها الأميرِ أن شَطرَ هذا المالِ لعبد الله بنِ قيس الرُّقيات . قال : ولِمَ ذلك ؟

قال : لقوله :

إنما مُصعَبٌ شهابٌ من اللـ * ـه تجلَّتْ عن وجهِه الظّلْماء

فضحكَ مُصْعَبٌ . وقال : اقبضْ ما أمرنا لك به . ولابن قيسٍ عندنا مثلُه . فما شعر عبدُ الله بنُ قيس إلا وقد وافاه المال .

وإن الرجلَ الفَصيحَ تكون الأعناقُ إليه أميلَ ، والعقولُ عنه أفهمَ ، والنفوسُ إليه أسرَع . وقد ذكر اللهُ لنبيه (صلى الله عليه وسلم) حالَ قريش فى طلاوةِ عباراتهم ، وخلابةِ ألسنتهم ، واستمالتهم الأسماعَ بحسن مَنطِقهم ، فقال : « وإن يَقولُوا تَسمعْ لقولهم » . وكلّما كان اللسانُ أبينَ كان أحمدَ .

قال الجاحظُ فى كتابه « البيان والتبيين[1] » :

(١) جـ ١ ص ٤٢ طبعة « محب الدين الخطيب »

والبيانُ اسمٌ لكل شيء كشفَ لك عن قِناع[١] المعنى، وهتكَ[٢] الحُجبَ دونَ الضمير، حتى يُفضِيَ السامع إلى حقيقته، ويهجُمَ على محصوله[٣]، كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أيِّ جنسٍ كان ذلك الدليل؛ لأن مدارَ الأمرِ، القصد الذى إليه يجرى القائلُ والسامع: إنما هو الفهمُ والإفهامَ، فبأيِّ شيء بلغتَ الإفهامَ، وأوضحتَ عن المعنى، فذلك هو البيان فى ذلك الموضع.

قيل لجعفرِ بنِ يَحْيَى البرمَكىِّ: ما البيان؟

قال: أن يُحيطَ لفظُكَ بمعناك، ويكشِفَ عن مغزاكَ، ويُخرجَه من الشركة، ولا يستعان عليه بالفكرة، ويكون سليماً من التكلُّف، بعيداً من الصنعة، بريئاً من التعقيد، غنيّاً عن التأويل.

وذكر سهل بنُ هَرون[٤] جعفرَ بنَ يحيى فقال:

قد جَمعَ فى كلامِه وبلاغتِه الهذَّ[٥] والتمهل، والجزالةَ والحلاوة. وكان يُفهِم إفهامًا يُغنيه عن الإعادةِ للكلام... فإنه لا يتحبَّس ولا يتوقف فى منطِقه، ولا يتلجْلَجُ، ولا يتسعَّلُ، ولا يترقبُ لفظاً قد استدعاه من بُعد، ولا يلتَمِسُ معنًى قد عصاه بعد طلبه له.

---

(١) حجاب، والمراد خفى. (٢) كشف (٣) بقيته.
(٤) كان خطيباً شاعراً توفى سنة ١٧٣ هـ (٥) الهذ: السرعة.

فمثلُ جعفرِ بنِ يحيي يُقالُ إن لديه قوةَ بيانٍ .

وقيل : البيانُ بَصرٌ ، والعيُّ عَمًى ، كما أن العلمَ بَصَرٌ ، والجهلَ عمى ، والبيان من نتاج العلم ، والعيّ من نتاج الجهل . قال سهل بن هرون : العقلُ رائدُ الروح ، والعلمُ رائد العقل ، والبيانُ تَرجُمَان العلم . وقيل : حياةُ المروءة الصدقُ ، وحياةُ الروحِ العفافُ ، وحياةُ الحلمِ العلمُ ، وحياةُ العلمِ البيانُ .

وقال يونسُ بنُ حبيبٍ : ليس لعيٍّ مروءةٌ ، ولا لمنقوصِ البيانِ بهاء ، ولو حك بيافوخه عنان السماء . وقال ابن التوام : الروح عمادُ البدن ، والعِلمُ عِمادُ الروح ، والبيانُ عماد العلم .

وقال الجاحظ : وأحسنُ الكلام ما كان قليلُه يُغنيك عن كثيره ، ومعناه فى ظاهر لفظه ، فإذا كان المعنَى شريفاً ، واللفظُ بليغاً ، وكان صحيحَ الطبعِ ، بعيداً عن الاستكراه ، ومُنزَّها عن الاختلال ، مَصُونًا عن التكلُّف — صَنَع فى القبِ صَنِيعَ الغيثِ فى التربةِ الكريمةِ ، ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ، ونفذَتْ من قائِلها على هذه الصفة ، أصحبَها اللهُ من التوفيقِ ، ومنحَها من التأييد ، ما لا يمنعُ من تعظيمها به صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمِها عقولُ الجهلة .

وقد قال عامرُ بنُ عبد القيس : الكلمة إذا خرجتْ من القلبِ وقعتْ فى القلب ، وإذا خرجتْ من اللسانِ لم تُجاوز الآذان .

وقال الحسَنُ (رضى الله عنه) وسَمع متكلِّماً يَعِظُ فلم تقعْ موعظتُه بموضع من قلبه ، ولم يَرِقّ عندها ، فقال له : يا هذا إنّ بقلبِك لشرًّا أو بقلبي .

وقيل[1] : إن أولَ ما عُرِف من تقدمِ الأحنفِ بنِ قيس أنه وَفَدَ على عمرَ بنِ الخطاب (رضى الله عنه) وكان أحدثَ القومِ سنًّا ، وأقبحَهم منظَرًا . فتكلم كلُّ رجلٍ من الوفدِ بحاجتِه فى خاصَّته ، والأحنفُ ساكتٌ ، فقال له عمرُ : قلْ يا فتى ؟ فقال :

يا أميرَ المؤمنين ، إن العَرَبَ نزلتْ بمساكنَ طيِّبةٍ ، ذاتِ ثمارٍ وأنهارٍ عذبة ، وأكِنَّةٍ ظليلةٍ ، ومواطنَ فسيحةٍ ، وإنا نزلنا بِسَبِخَةٍ[2] نشاشَةٍ[3] ، ماؤُها ملحٌ ، وأفنيتُها ضيقةٌ . وإنما يأتينا الماءُ العذبُ فى مثلِ حَلقِ النعامةِ بالأنزار ، كنا يا أميرَ المؤمنين نحفر نهراً يقدر ماؤُه ، حتى تأتىَ الأَمَةُ فتغرِفَ بجرَّتها وإنائها ، ونوشك أن نهلِك .

قال : ثم ماذا ؟

---

(١) من زهر الآداب جـ ٣ ص ٦٠ طبعة مصطفى محمد . (٢) أرض سبخة أى ذات ملح ونز . (٣) سبخة نشاشة : لا يجف ثراها ، ولا ينبت مرعاها .

قال : تزيد فى صاعِنا[١] ومُدّنا . وتثبت من تلاحق فى العطاء من ذرِّيتنا .

قال : ثم ماذا ؟

قال : تخفف عن ضعيفِنا ، وتنصف قوِيَّنا ، وتتعاهد ثغورَنا ، وتجهز بعثَنا .

قال : ثم ماذا ؟

قال : إلى هنا أنتهت المطالب ، ووقف الكلام .

قال : أنت رئيسُ وفدِك ، وخطيبُ مِصْرِك ، قُمْ عن موضعِك الذى أنت فيه ، فأدناه حتى أقعدَه إلى جانبِه ، ثم سأله عن نَسَبه ، فانتسب له ، فقال أنت سيدُ تميمٍ ، فبقيتْ له السيادةُ حتى مات .

فبحُسنِ البيانِ كان للأحنفِ بنِ قيسٍ منزلةٌ ساميةٌ بين الخلفاء والأمراء ، مع أنه كان دميمَ الخِلقة ، أصلعَ الرأسِ ، متراكمَ الأسنان ، مائلَ الذقن ، ناتئَ الوجنتين ، ماحقَ[٢] العينين . وكانت العيونُ تقتحمه[٣] لدمامته[٤] ، وقلة رُوائه[٥] ، ولكنه كان إذا وقف ليتكلمَ أصغَت القبائلُ إليه ، وانثالتْ[٦] عليه ، وخشعت الأبصارُ لكلامِه .

---

(١) الصاع الذى يكال به . (٢) غائر . (٣) تحتقره .

(٤) لقبح منظره ، وصغر جسمه . (٥) حسن شكله .

(٦) اجتمعت . انثال الناس عليه من كل وجه : اجتمعوا .

وقال الناس : هذا أبو بحر ، هذا خطيبُ بَنى تميم .

وقيلَ أمرَ الحَجّاجُ صاحبَ حَرَسِه أن يطوفَ بالليل ، فمن رآه بعد العشاء سكرانَ ضربَ عُنقَه . فطاف ليلةً من الليالى ، فوجد ثلاثةَ فِتيانٍ يتمايلون وعليهم أماراتُ السُّكر . فأحاطت بهم الغِلمانُ . وقال لهم صاحبُ الحرسِ : مَن أنتم حتى خالفتم أمرَ أميرِ المؤمنين ، وخرجتم فى مِثلِ هذا الوقتِ ؟ فقال أحدهم :

أنا ابنُ من دانتِ الرقابُ لهُ * ما بين مَخزومها وهاشمِها
تأتيه بالرغمِ[1] وهىَ صاغرةٌ * يأخذُ مِن مالِها ومن دمِها

فأمسكَ عنه وقال : لعلّه من أقاربِ أميرِ المؤمنين .

ثم قال للآخر : وأنتَ مَن تكون ؟ فقال :

أنا ابنُ مَن لا تَنزِلُ الدّهرَ قِدرُهُ * وإن نزلَتْ يومًا فسوف تعودُ
تَرى الناسَ أفواجًا إلى ضوءِ نارِه * فمنهم قيامٌ حولَها وقعودُ

فأمسكَ عنه ، وقال : لعلّه ابنُ أشرفِ العربِ .

ثم قال للآخَرِ : وأنتَ مَن تكون ؟ فأنشدَ على البديهةِ :

أنا ابنُ من خاضَ الصُّفوفَ بعَزمِه * وَقَوّمها بالسّيفِ حتى استقامَتِ
وَرَكْبَاه لا يَنفكُّ رِجلاه منهما * إذا الخيلُ فى يومِ الكريهةِ[2] وَلّتِ

---

(١) بكره وذلة وانقياد . (٢) الشدة فى الحرب .

فأمسكَ عنه، وقال: لعلَّه ابنُ أشجعِ العربِ. وحافظَ عليهم جميعاً.

فلما كان الصَّباحُ رَفعَ أَمرَهم إلى أميرِ المؤمنين، فأحضرَهم، وكشَفَ عن حالهم، فإذا الأولُ ابنُ حجَّامٍ، والثانى ابنُ فوّالٍ، والثالثُ ابنُ حائكٍ. فتعجَّب من فصاحَتِهم، وقال لجلسائهِ: «علِّموا أولادَكم الأدبَ، فواللهِ لولا فصاحتُهم لضَرَبْتُ أعناقَهم».

وذُكِر أن الباديةَ قحِطَتْ أيامَ هشامِ بنِ عبدِ الملك، فوفَد عليه رؤوسُ القبائلِ. فجلسَ لهم وفيهم صبيٌّ ابنُ أربعَ عشْرَةَ سنةً يُسَمَّى دِرْوَاسَ بنَ حبيبٍ، فى رأسه ذُؤابةٌ[١]، وعليه بُرْدَةٌ يَمَنيَّةٌ، فاستصغره هشامٌ وقال لحاجبه: «ما يشاءُ أحدٌ أن يَصِلَ إلينا إلّا وَصَلَ حتى الصبيانُ».

فقال دِرْوَاسٌ: ياأميرَ المؤمنين، إنَّ دخولى لم يُخِلَّ بك، ولا انتقَصك، ولكنه شرَّفنى. وإن هؤلاءِ قدِمُوا لأمرٍ فهابُوكَ دُونَه. فأعجَبَه كلامُه، وقال: «اُذكرْ ما تشاء، لا أُمَّ لك»[٢].

فقال: «إنَّا أَصابَتْنا سِنونَ ثلاثٌ: فَسَنَةٌ أكلَت اللحمَ، وسَنَةٌ أذابَتِ الشحمَ، وسَنَةٌ أنقَتِ[٣] العَظْم. وفى يديكم فُضُولُ أموالٍ، فإن

---

(١) شعر فى منبت الناصية من الرأس.

(٢) يوضع هذا موضع المدح. (٣) أخذت.

كانت لله عزَّ وَجَلَّ ففرِّقوها على عباده ، وإن كانت لهم فلا تَحْبِسوها عنهم ، وإن كانت لكم فتصَدَّقوا بها عليهم ، فإن الله يَجْزِى المتصَدِّقين ، ولَا يُضِيعُ أجرَ المحسِنين . وإن الوالىَ من الرعيةِ كالرُّوحِ من الجسدِ لا حياةَ له إلا به » .

فقالَ هشام : « ما تركَ الغلامُ فى واحدةٍ من الثلاثِ عذراً » . وأمرَ بمائةِ ألفِ دينارٍ ففُرِّقَتْ فى أهلِ الباديةِ . وأمرَ له بمائةِ ألفِ دِرْهم .

فقال درواسٌ : «أُرْدُدْهَا فى جائزةِ العربِ ، فما لِى حاجةٌ فى خاصَّة نفسى دُونَ عامَّة الناس » .

الفصل الحادى عشر

١٠ — الثقة بالنفس والاعتماد عليها

من العناصر الأساسيةِ فى تكوين الشخصيةِ الثقةُ بالنفس أولاً ، والاعتمادُ عليها ثانياً . ومتى وُجدت الثقةُ بالنفسِ فمن السهلِ الاعتماد عليها فى كل عملٍ ممكنٍ من الأعمال ، وفى التغلبِ على مَشاقِّ الحياةِ . والسببُ فى كثرةِ الاعتمادِ على النـاس أن الغريزةَ الاجتماعيةَ قويةٌ فى الجنسِ البشرىِّ ، متأصلةٌ فيه ، وأننا اعتدنا التفكيرَ الجمعىَّ لا التفكيرَ الاستقلالىَّ .

فينبغى أن نُعَوِّدَ الأطفالَ الاعتمادَ على أنفسهم ، والاستقلالَ فى تفكيرِهم ، من غير اتكالٍ على أحدٍ ؛ كي يستطيعوا فى المستقبلِ أن يَعيشوا مستقلِّين بأنفسِهم .

ولا يُرادُ بذلك أن يَعتزلَ الإنسانُ العالمَ ، ويَنقطعَ عن الناس ، ويُفكرَ فى نفسه فحسْبُ ، فليس هذا من الإنسانيةِ فى شىء ، بل إنه باعتزالِه غيرَه يَفقِدُ كثيراً ، ولا يَربحُ إلا قليلا . ولكننا نريدُ تعويدَ الأطفالِ الاستقلالَ الشخصىَّ ، والقدرةَ على القيامِ بأعباءِ الحياةِ من

غيرِ أتكال على غيرهم في كلِّ شيء؛ حتى يُمكنَهم أن يقوموا بواجبهم نحوَ أنفسِهم، ونحوَ المجتمعِ. وَكثيراً ما يحتاجُ الإنسانُ إلى مُعاونةِ صديقِهِ، ومُسَاعدةِ رئيسهِ، ومَعُونةِ خادمِهِ. فالتعاوُن ضروريٌّ للجمَاعةِ التي تربُطُ أفرادَها روابطُ وثيقَةٌ من الحُبِّ والإخاء.

والاعتمادُ على النفسِ يتطلبُ أن يكون لدينا شيءٌ جوهريٌّ يمكن الاعتمادُ عليه هو الثقةُ بالنفس، والدقةُ في العمل، والتحققُ منه؛ حتى تكونَ أحكامُنَا صائبةً، وأمورُنا نافذةً، وأقدامُنا ثابتة. أما إذا انتفت الثقةُ بالنفس أو الدقةُ في العمل أو التثبتُ منه، فالاعتمادُ على النفسِ حينئذ يكون عَبثاً ومن قبيلِ الأحلامِ.

والاعتمادُ على النفس أمرٌ ضروريٌّ، يجبُ أن يُحلَّهُ المرءُ من نفسهِ محلاً رفيعاً في كلِّ عَمَلٍ يُقْدِمُ عليهِ، وأنْ يَنْتَفِعَ بقُواهُ الشخصيةِ، وَيثِقَ بقُدرتهِ على القِيَامِ بما يحتاجُ إليهِ، مِنْ غيرِ أنْ يَلْجَأَ إلَى سِواهُ، أَوْ يَعْتَمِدَ عَلَى غيرهِ.

والرجلُ الواثقُ بنفسِهِ ثقةً بعيدةً عن الغرور والاستبداد، الواثق بقولِه وفعلِه يستطيع أن يقفَ وحدَه مُنادياً برأيه، مُبرهناً على سدادِه وصوابه. وليس من يستقِلُّ برأيه في أمرٍ من الأمورِ يكونُ مخطِئاً دائماً، بل قد يكون مصيباً في رأيه، وقد يسبقُ في آرائه المجتمعَ الذي

يعيش فيه بعشَراتِ السنين ، كأمثالِ المصلِحين ؛ فإنهم غالباً يكونون فى وادٍ ، والمجتمعُ فى وادٍ آخرَ ، لايُقدَّرُ رأيهُم إلا بعـدَ مماتِهم . وبالمصلِحين الذين يثقون بأنفسهم يَحيا المجتمعُ .

وَلعلَّكَ سمِعْتَ قصةَ ذلكَ البحَّارِ الجرىءِ (روبنسُن كرُوزُو) ، الذى تحطَّمتْ سفينتُهُ قُربَ شواطئِ أمريكا الجنوبيَّةِ ، فتَعلَّق بلَوْحٍ من الخشَبِ ، وجعَلَ يُصَارعُ الموْتَ ويُغَالِبُهُ ، حتَّى استطاعَ بعد جُهْدٍ ومشقَّةٍ أنْ يصِلَ إلَى شَـاطئِ إحدى الجزائِرِ ، التى لم تطَأْها قدَمُ إنْسَانٍ قَبْلَهُ .

نَزَلَ الجزيرَةَ ، وَأَخَذَ يجُوسُ خِلَالهَا ، حتَّى اهْتَدَى إلى بُقْعَةٍ بِها كثيرٌ من أشْجارِ الفاكهةِ ، ويجْرى عن كثَبٍ منْها جدْوَلُ ماءٍ عذْبٍ ، فَعوَّلَ علَى البقَاءِ بِقُرْبِهَا ، وَأَخَذَ يَعْمَلُ فى جِدٍّ ونَشَاطٍ ، حتَّى بنَى كُوخًا جمِيلاً ، حوْلَهُ سُورٌ مِن أَغْصَانِ الأَشجَارِ ، التِّى اقتَطعَها مِن غَابَاتِ الجزيرَةِ ؛ ليَحْميَهُ منْ هَجَماتِ الوُحوشِ الضَّاريَةِ فِى أثْناءِ اللَّيْلِ ، وَصنعَ لنفْسِه مَقْعَدًا يجلسُ عليْهِ ، ونَضَدًا يضَعُ عليْهِ الطَّعَامَ ، وَصِحَافًا مُخْتلفَةَ الأَشْكالِ ، اتخذَهَا من جُذُوعِ الأَشْجَارِ ، كَمَا أَعَدَّ لنَفْسِهِ حَشِيَّةً ينَامُ علَيْها ، وصنَعَ مِغْزَلاً وَمِنْسَجًا ينْسِجُ علَيْهِ ثيابَهُ ، واقتَطَعَ مِنَ الحِجارَةِ طاحُونةً يطحَنُ علَيْها الحبُوبَ التى استَنْبَتَها بأرضِ تلكَ الجزيرَةِ ، واتَّخَذَ

أَعَدَّ لِنَفْسِهِ زَوْرَقًا كبيرًا ؛ كيما يركبَهُ وَيَعُودَ بهِ إلى وطَنِهِ ، بعْدَ أن عاشَ فى تِلْكَ الجزيرَةِ زَمَنًا طَوِيلاً بمفردِهِ ، أَعَدَّ فِيهِ لِنَفْسهِ كلَّ ما احتاجَ إِليْهِ .

ذَلِك مَثَلٌ مِنْ أَمْثِلَةِ الاعتمادِ على النَّفْسِ ، ولَنْ يستطيعَ المرءُ أَنْ يَعْمَلَ عملَ رُوبنْسُن كرُوزُو إلَّا إِذَا اعتادَ مُنْذُ الصِّغرِ الاعتمادَ على نفْسِهِ ، وقامَ بكلِّ ما يَسْتَطيعُ القيامَ بهِ ، بِدُونِ أَنْ يكونَ كَلًّا عَلَى غَيْرِهِ ، وَعِبْئًا ثَقِيلاً عَلَى مَنْ يَتَّصِلُ بهِ .

فاعْمَلْ عَلَى أَنْ تَخْدُمَ نَفْسَكَ بنَفْسِك ، واستعْمِلْ قُوَاكَ فِى تَدْبِيرِ شُئُونِك ، ولا تَلْجَأْ إِلَى غَيْرِكَ مَا دُمْتَ قَادِرًا على عملِكَ ، وَأَعِدَّ نَفْسَكَ للنُّزولِ فى مُعْتَرَكِ الحياةِ كى تَخْرُجَ إِلَى المجْتَمَعِ رَابطَ الجأْشِ ، قَوِىَّ العزيمةِ ، ثابتَ القلبِ ، قَوِىَّ الإِيمَانِ بنفْسِكَ .

وإذا مدحْنا الثقةَ بالنفس فلا نمدحُ الإفراطَ فيها ؛ لأنه قد يكون علامةً على الضعفِ لا على القوة ، كما لا نمدحُ ضعفَ الثقةِ فإنه دليلٌ على ضعفِ الشخصية .

قال « جوستاف لوبون » : « من وَثِقَ بنفسه لا يحتاج إلى مدحِ الناس إياه . ومن طلبَ الثناءَ فقد دَلَّ على أُرتيابهِ فى قيمةِ نفسه » .

الفصل الثانى عشر

١١ — اعتدال المزاج

من العناصر الهامَّةِ المؤثِّرةِ فى الشخصية: المزاجُ. وقد تكلمنا عنه بالتفصيل فى الجزء الثالث من كتابنا «فى علم النفس». فارجع إليه إن شئت.

وكلُّ ما نريد أن نقولَه هنا بالإيجاز هو أن الناسَ يختلفون فى أمزجتِهم، كما يختلفون فى شخصياتِهم؛ فهذا مُتفائلٌ، وذاك مُتشائم. وهذا سريعُ التأثر، وذلك بليدٌ لا يكاد يتأثر. وهذا كثيرُ الترددِ، وذلك كثيرُ الإقدام. كلٌّ له مِزاجٌ خاصٌّ، وسلوكٌ يختلف باختلاف ذلك المِزاج.

ولكن ما السببُ فى اختلافِ هذه الأمزجةِ؟ وللإجابة عن هذا السؤال يجب أن نذكرَ رأىَ العلماء قديماً، والعلماءِ حديثاً؛ حتى تتضحَ لنا الأسبابُ التى من أجلها اُختلفَت الأمزجةُ، فنقول:

إن العلماءَ قديماً حاولوا تقسيمَ الأمزجةِ إلى أربعةِ أقسام: دَمَوِىٌّ وصفراوىٌّ وبَلْغمىٌّ وسَوْداوىٌّ، وبَنَوْا هذا التقسيمَ على السوائل والإفرازاتِ الجسميةِ(١)؛ فالشخصُ الاجتماعىُّ المتفائلُ، الواثقُ بنفسه،

(١) The Fluids of the body.

الغيورُ على عمله ، الصافِي الذهنِ ، الحادُّ الذاكِرَةِ ، كانوا يعتبرونه كثير الدَّمِ ، وبعبارة أخرى دَمويَّ المِزاجِ (١) .

والشخصُ العنيدُ ، السريعُ الانفعالِ ، القويُّ الإرادةِ ، كانوا يقولون إن لديه كَمِّيةً زائدةً من الصفراء أو المِرَّة ، ويَدْعُونه صفراويَّ المِزاجِ (٢) .

والشخصُ الهادئُ الذي يغلبُ عليه الكسلُ ، وتلوحُ عليه البلادةُ ، الذي لا يُبالِي ولا يَكترثُ كثيراً ، ولا يتأثرُ بسهولة ، كانوا يَظنُّون أن عنده مقداراً زائداً من البَلَغَم ، ويُسمُّونه بلغميًّا (٣) .

أما الشخصُ الذي تنتابُه الأحزانُ ، وتلعبُ به الوساوسُ ، وتتقاسمه الهمومُ والمخاوفُ من غيرِ سببٍ ، ولأقلِّ سببٍ — فكانوا يَخالُون أن لديه زيادةً في المِرّةِ السوداء أو الطِّحال ، ويَعُدُّونه سَوْداويًّا (٤) .

وقد زاد بعضُهم مِزاجًا خامساً وهو المزاجُ العصبيُّ الناشئُ عن وَفرةِ السائلِ العصبيِّ (٥) .

أما المُحدَثون من العلماءِ فيَرَوْن أن هذا التعليلَ قديمٌ لا قيمةَ له من الوجهةِ العلمية ؛ لأنه مَبنيٌّ على الجهلِ بعلمِ وظائفِ الأعضاء ، وعلى نقصِ

---

(١) Sanguine (٢) Choleric (٣) Phlegmatic

(٤) Melancholic (٥) The Nerve fluid

فى المباحثِ العلمية قديماً . وهم وإن أنكروا هذا التعليلَ فى اختلافِ الأمزجة ، لا ينكرون اختلافَها ، ويُسلِّمُون بتعدد أنواعها ، ويعتقدون أن هناك أسباباً أخرى لاختلافِ الأمزجةِ كالوراثةِ والمناخِ والبيئةِ والغذاءِ ، والمرضِ ، وضعفِ الأعصاب ، كما يعتقدون أن إفرازاتِ الغُدد لها أثرٌ كبيرٌ فى اختلافِ الأمزجة ؛ فمزاجُ الشخص يختلف باختلافِ قوة إفرازِ الغُدد أو ضعفه . فلهذه الإفرازاتِ تأثيرٌ كبيرٌ فى الجسم والعقل ، وعنها وعن الأمور السابقةِ ينشأ الاختلافُ فى الأمزجة .

فالمزاجُ فى رأى المحدَثين يتأثر بالموادِّ الكيميائيةِ وإفرازاتِ الغُدَد المختلفةِ التى يحملها الدمُ إلى المخِّ والعضلات ، لا بوفرةِ الدم ، أو الصفراءِ أو البلغمِ ، أو السوداء كما يقول القُدامَى من العلماء . ومن هذه الغدد :

١ — الغُدَّتان الخاصتان بالكُلْيتين [1] . ولهما صلةٌ بالانفعالات والعواطفِ ، فإذا كان إفرازُهما قويًّا كان الشخصُ سهلَ التأثرِ ، سريعَ الغضبِ . وإذا كان إفرازُهما ضعيفًا كان حليماً بطىءَ التأثرِ ، قليلَ الغضبِ .

٢ — والغددُ الكفية هى غددٌ صغيرةٌ أسفل العنق ، ولها صلةٌ بالذكاء ، فإذا كانت قويةَ الإفرازِ كان الشخصُ ذكيًّا ، وبالعكس .

(١) Adrenal glands

ويَرى (مَكْدُوجُل) — وهو حُجةٌ فى علم النفس — أن الضعفَ العقلىَّ ينشأ عن قلةِ إفرازِ الغُدَدِ الكفيةِ أو عن عَدمِ وجودها .

٣ — وغدةُ تفاحةِ آدمَ ولها صِلةٌ بنشاطِ الشخصِ ومثابرتِهِ على العمل . وبالتجربةِ رأى بعضُ الأطباء وعلماء وظائف الأعضاء أن للغددِ تأثيراً قويًّا فى الإنسان . وقالوا — ونرجو أن تُثبِتَ التجاربُ قولَهم — إن بالعملياتِ الجراحيـةِ يمكنُ تنظيمُ إفرازِ غُدَّتى الكُليتينِ ، وتغييرُ سلوكِ الشخصِ وطباعِه .

وإذا ثبت أن للغددِ تأثيراً كبيراً فى ذكاء الشخص ومِزاجه ، فينبغى التفكيرُ فى معالجةِ الضعفِ العقلىِّ وحِدَّةِ الطبعِ من الوِجهتينِ : الطِّبيةِ والنفسيةِ معاً . ومجملُ القول أن الشخصيةَ القويةَ يجب أن تتحققَ فيها العناصرُ الآتية : —

(١) الجاذبيةُ .
(٢) النشاطُ العقلىُّ أو الذكاء .
(٣) المشاركةُ الوجدانيةُ .
(٤) الشجاعة .
(٥) الحِكمة .
(٦) التفاؤل .
(٧) الاعتدال وعدمُ التظاهر .
(٨) حُسنُ مَظهرِ الإنسان وقوامه .
(٩) قُوة البيان .
(١٠) الثقة بالنفس والاعتمادُ عليها .
(١١) اعتدالُ المِزاج .

الفصل الثالث عشر

أنواع الشخصية

الشخصية نوعان : عمليةٌ ، وفكْريةٌ ، وَلْنتكلمْ عن كُلٍّ منهما بالتفصيل فنقول :

(١) الشخصية العملية

كثيرًا ما يُسألُ الإنْسَان : أَيُّهمَا أفْضلُ : الأمورُ النظريةُ أم العمليةُ ؟ وَبعبارة أخرى أيُّهما أفضل : الأفكارُ أم الأعمال ؟

وجوابُنا عن ذلك أننا لا نَسْتطيع التفضيلَ أو التفرقةَ بين النظَرياتِ والعمليات . فنحن فى حاجةٍ إليهما معاً ، وكِلاهُما متوقفٌ على الآخر ، ومُكَمِّلٌ له ، لا ضِدُّه ونقيضُه كما يظنُّ بعضُ السائلين ؛ فالأفكارُ أمهاتُ الأعمال ، ومن الممكنِ اجتماعُهما فى شىء واحد .

وكما أن للأمورِ ناحيتين : إحداهما نَظَرية ، والأخرى عَمَلِيَّة ، فللشخصية كذلك ناحيتان : نظريةً ، وعمليّة ؛ فالرجلُ مثلًا قد يكون موضعَ الإعجاب ؛ لأفكارِه أو لأعماله ، ولو أن الأعمالَ فى النهاية نتيجةٌ للأفكار . ومعَ ذلك فقد تغلِبُ على الإنسان إحدَى الناحيتين :

النظرية أو العملية ، تبعاً للميلِ والعادة ؛ فهذا قد يميلُ إلى الجهةِ العملية ، وذلك قد يميـل إلى الناحيةِ الخيالية ، فتُنَمّى فيه بطريقة التعودِ هذه الناحية أو تلك .

ولاشكَّ فى أن الشخصيةَ العمليةَ التى تَظهَرُ بالعمل والتنفيذ أكثَرُ أثرًا وَظُهورًا فى الحياةِ العملية من الشخصيةِ الخيالية البعيدةِ عن هذه الحياة . والأولى كممثلٍ يقومُ بتمثيل دَوره عمليًّا عَلَى المسْرَح أمام الناس ، والثانيةُ كمَن يقوم بتمثيل دَوره فى الخفاء أو وَرَاءَ الستار ، بعيدًا عن الأنظار . فأثرُ الأُولَى أكثرُ وُضوحا وظهورًا من أثر الثانية .

وتتمثَّلُ هـذه الشخصيةُ العمليةُ فى المصلِحين وقادةِ العمل والمستكشِفين الذين نرى آثارَهم فى أعمالهم التى قاموا بتحقيقها وتنفيذِها خدمةً للإنسانية . وتَتمثَّلُ الثانيةُ فى الشعراء والفلاسفةِ الخياليِّين الذين يقومون بتصويرِ الأشياءِ وَوَصْفِها ، فيَغُوصون تارةً فى بحارِ الحقيقة ، ويَسْبَحون طَورًا فى عالَم الخيال ، ولا يُنكِرُ فضلَهم أحد ، ولكنَّ أثرَهم فى هـذا العالَمِ المادّيِّ أقلُّ ظهورًا ؛ ففى اليومِ الذى اُجتاز فيه بليرْيوت (Bleriot) القناةَ الإنكليزيَّةَ بطائرتِه كانت الأفكارُ كلُّها ، وأحاديثُ الفخرِ والإعجاب مُوَجَّهةً إليـه ، لا إلى العالِم الذى فكَّرَ فيها عدةَ سنواتٍ حتى اخترعها .

وَإننا لا نقصدُ بذلك أن نقلّلَ من قيمة العلماء والمفكّرين أو قادةِ الفكر ، ولكننا نقصدُ الاعترافَ بأن تأثيرَ رجالِ الأعمالِ أظهرُ من تأثيرِ رجالِ الفكر ، وأننا نتأثرُ بالأعمالِ النبيلةِ أكثرَ من تأثرنا بالأفكار مهما كانت سديدةً . ولا ننكر أن الفكرَ والوجدانَ ينتهيان بالعمل .

ومنذ زمنٍ ليس بالبعيد كانت التربيةُ تفكر فى العلم أكثرَ من العمل ؛ فكان الإنسانُ إذا اُختُبِرَ سُئل عن « مقدار ما يعرفه » ، أما اليومَ فقد تَبدلت الحال ، وانعكسَ الأمر ، فأصبحت التربيةُ تُعنَى كلَّ العنايةِ بالعمل والأعمال ، وأصبحت الأسئلةُ : « ماذا فعلَ الإنسان ؟ وماذا يستطيعُ أن يفعل ؟ وما مقدارُ ما يَفعل ؟ » .

ولم تكن الجامعاتُ فيما مضى لِتُعْنَى بالجانبِ العمليِّ من الحياة ، ولم تكن لتعملَ على تربيةِ رجال ليعملوا ، بل كانت عنايتُها موجهةً إلى تكوينِ رجالٍ مُثقَّفين حبًا فى الثقافة ، معلَّمين حبًا فى العلم ؛ ليكونوا كزينةٍ لها أينما وُجدوا فى الأسرة أو فى المجمَعِ الدينيِّ أو فى المجمع الأدبى. وكان الرجلُ الجامعىُّ المثقَّف لا يُنْتَظر منه أن يعملَ شيئًا بيده ؛ فكان كأداةٍ من أدوات الزينة . وكان المجتمعُ يزدريه ويَحتقره إذا حاولَ أن يعملَ عملاً يدويًا ؛ أما الأعمالُ اليدويةُ ، وأما الصناعاتُ فكانت خاصةً

بالطبقةِ الفقيرة التى تُدعَى الطبقةَ العاملةَ . وكان يُظَنُّ خطأً أن هذه الطبقةَ خُلِقتْ لتعملَ ، أما الطبقةُ الأخرى فخُلِقَتْ لتفكرَ .

وقد انقَضَت — وللهِ الحمدُ — تلك الأَيامُ ، وذهبَ ذلك العهدُ ، وأصبحت الفكرةُ السائدةُ أن التفكيرَ غيرُ مقصورٍ على طبقةٍ من الطبقات ، وأن العملَ لا تختصُّ به طائفةٌ دونَ أخرى ، وصار التعليمُ عامًّا بين الفقراءِ والأغنياء على السواء ، لا يمتاز به هؤلاء من أولئك ، وجُعِلَ وسيلةً لإعدادِ الجميعِ للقيام بواجبهم العلميِّ والعمليِّ والأدبيِّ فى الحياة . وأصبحت الفرصةُ — فرصة العمل — سانحةً أمامَ الجميعِ من غيرِ ما تفريق ؛ فالعِلمُ الآن فى هذا العالَمِ المادىِّ لا يصلح فى نظر الماديِّين — وما أكثرَهم — لأن يكونَ غايةً مستقِلة ، بل يجب أن يكونَ وسيلةً للعمل .

ولَسنا فى شكٍّ مطلقًا من أن العِلمَ قوةٌ ، لا ، بل أكبرُ قوةٍ فى يد الإنسان . وهو قوةٌ اليومَ كما كان قوةً بالأمس ، وسيكونُ قوةً إلى الأبد . ولكننا فى حاجةٍ إلى العِلم الذى يؤدِّى إلى العمل ، العلم الذى يمكن تنفيذُه والانتفاعُ به عمليًّا بتحويله إلى عملىّ ؛ فالعلم بلا عملٍ لا خيرَ فيه ؛ مثَلُهُ مَثلُ شجرةٍ بغير ثمَر . هذا هو المقياس الذى يُقاسُ به العلم ، ويُحكَمُ به على العلوم اليومَ .

ولا عجبَ ؛ فبعد أن كان العلمُ يُطْلَبُ للعلم ؛ حبًّا في العلم ذاتِه ، أصبحنا لا نفكرُ إلا في المادِّياتِ ؛ نَسأل عن مقدار ما يمكنُ أن يُستفادَ به عمليًّا في الحياةِ من تعلُّمِ هذا العلم ، أو هذه المادةِ ، وأصبحت العلومُ التي لا تؤدِّي إلى أكلِ الخبز ، أو الخبز والزُّبد ، يُنظَرُ إليها نظرةَ تشكُّكٍ في الإقبال عليها . ويكثر الإقبالُ على العلمِ أو المِهْنَةِ بقدر ما يمكنُ أن تُدِرَّه من المال في أقصرِ وقت .

هذا هو مقياسُ الإقبالِ على العلم الآن ، وهذا هو الرأيُ السائدُ بين الأكثريةِ من المربِّين والمتعلِّمين في الأمم المتمدْينة . فالعالَمُ أصبح تجاريًّا ، والعِلمُ كذلك أصبحَ يُنْظَر إليه بنسبة ما يستطيعُ صاحبُه أن يكتسبَه بِوَساطته من وظيفةٍ أو ثروةٍ أو مركزٍ أو نفوذٍ .

ويكاد هذا العصرُ المادىُّ يَقضِي — أو هو قد قَضَى بالفعل — عَلَى العالَمِ الروحىِّ وعَلَى تعلُّمِ العلمِ حبًّا في العلم ، والاشتغالِ بالفنِّ حبًّا في الفن . وإننا لا نكرَه ، ولا ننادى بِكُرهِ المادة أو احتقارِها ، ولكن يؤلمنا أن تُسيطرَ المادةُ على كل شيء ، حتى على أفكارِنا وتعليمِنا . ولا ننكر أن النجاحَ في الحياةِ هو غايةُ الحياةِ ، وهو الفوز . وحبَّذا الأمرُ لو أمكننا أن نجمعَ النجاحَ المادىَّ مع المحافظةِ على الروحِ العلميةِ الخالصة ، فنجمع بين عالَمِ المادة وعالَمِ الروح .

فالحياةُ اليومَ نزاعٌ بين القديم والجديد ، بين عالَمِ الروحِ وعالَمِ المادة ، وهو نزاعٌ لا نهايةَ له ، ولـكنه ليس نزاعًا عِدَائيًّا ، بل هو نزاعٌ وُدّىٌّ تكميلىٌّ ، لاغرضَ منـه سوى النجاحِ فى الحياة . ولـكنْ ما النجاحُ الذى نَبغيه ؟ وما الرقىُّ الذى نريد الوصولَ إليـه ؟ هو نجاح الشعبِ ورقيُّه روحيًّا وماديًّا ، قوةً ونفوذاً ، علمًا وعملاً ، مبدأً وإنسانية .

ولـكن هل يمكن الجمْعُ بين الروحِ والمـادةِ فى آنٍ واحد ؟ ولِمَ لا ؟ إن الإنسانَ يستطيعُ أن يكونَ روحيًّا إلى حدٍّ ما ، وماديًّا إلى حدٍّ ما ، بحيثُ لا تتغلبُ الروحُ على المادة ، ولا تُسيطرُ المادةُ على الروح ؛ فيأخذُ من كل منهما نَصيبَه ، ولا يُعنَى بناحية ويهملُ الأخرى .

والنجاحُ هو الفوزُ بعدَ الجِدِّ والتعب ؛ التعب الجسمىّ والعقلىّ ، سواءأ كان ذلك النجاحُ فى التأليف أو فى نسجِ القطن وغزله ، أو فى بيعِه وشرائه ، أو فى صُنعِ السياراتِ أو الطائرات ، أو فى كتابةِ الروايات . . . . الخ .

ومن الضرورياتِ الأساسيةِ للشخصيةِ العمليةِ العلمُ بالشىء الذى تُريد القيامَ به ، والرغبةُ فى النجاحِ فيه . ولا فائدةَ من العلم والرغبةِ إذا

لم يُصحَبا بقوةٍ تنفيذية ، معنويةٍ أو حِسية ، داخليةٍ أو خارجية ، تعمل على التنفيذ .

فكما أن السيارةَ لا تستطيعُ السيرَ إلا إذا كانت مُعَدَّةً للسيرِ تمامَ الإعداد ، وكان بها المقدارُ الضروريُّ من زيتها ، وكان الطريقُ مُعبَّداً صالحاً لسَيرِ السيارات ، كذلك الإنسانُ لا يمكنه أن يقومَ بعملٍ عظيم إلا إذا كان هناك علمٌ به ، ورَغْبةٌ فيه ، وذكاءٌ وحُسنُ تقدير . ولكن المتَّصِفِين بهذهِ الصِّفاتِ فَقدوا صفةً واحدةً من أهمِّ الصفاتِ الضروريةِ للنجاح ، تلك هى قوةُ العزيمةِ والتنفيذ ، فلم ينجحوا فى أعمالهم ؛ لأنهم يميلون إلى كثرة النقد والتحليلِ ، والتشككِ فى كلِّ شيء حتى فى أنفسِهم ، فيمنعهم ذلك الشكُّ من رؤيةِ فائدةِ الشيء ، فيترددون فى الإقدام ، ويرجعون إلى الوراء ، فتضيعُ منهم فرصةُ النجاحِ . والفرصةُ — إذا أتت مرةً — قد لا تعود مرةً أخرى . فالعزيمةُ الصادقة تُعَد سرًّا عظيما من أسرارِ الشخصيةِ العمليةِ ، والنَّجاح فى العمل والحياة .

الفصل الرابع عشر

وسائلُ تقويةِ الشخصيةِ العملية

هناك وسائلُ لتقوية الشخصية نذكر منها ما يأتى :

(١) تحديد الغرض ومعرفة الطريق الموصّل :

إن تحديدَ الغرضِ فى أىِّ عملٍ من الأعمالِ مع معرفةِ السبيلِ الموصِّل إلى ذلك الغرضِ من أهمِّ الوسائلِ المشجِّعةِ للإنسان على الاجتهادِ فى العمل ، والسيرِ فيه إلى النهايةِ من غير تردد ، وبخاصةٍ إذا صَحِبَ العملَ إرادةٌ قويةٌ ، وثقةٌ به .

فمعرفةُ الغرضِ لها أثرٌ كبيرٌ فى نفوسنا ، سواء أكان ذلك الغرضُ ماديًّا أم عظيماً . وإن نظرةً واحدةً إلى العالَمِ تبيِّنُ لنا أن لكلٍّ إنسانٍ غرضاً يسعَى ليُدركَه . مهما اختلفتْ هذه الأغراضُ ، ولكن المهمَّ أن يكون الغرضُ محدداً ساميًا .

كلٌّ له غرضٌ يَسعَى ليدركَه * والحُرُّ يجعلُ إدراكَ العُلَا غَرَضَا

فالصيادُ يقف على شاطئِ البحرِ وعَصاه فى يدِهِ ، ينتظرُ بصبرٍ كبير ، وملاحظةٍ دائمة ؛ أملًا فى اصطياد السمك ، وما فيه من لذةٍ ،

وإرضاء للنفس . وسائقُ السيارةِ يَسيرُ في طريقه وإنْ لاقَى فيه من مطَر أو ثلجٍ أو ضَباب أو غُبار ، رغبةً في الوصولِ إلى مكانٍ معين . ورُبّانُ الماخرةِ العظيمة ، في البحرِ الْخِضَمِّ ، يقود ماخِرَتَه في خطٍّ مُعين نحو ميناءٍ أو موانٍ معيَّنة ، في جهاتٍ خاصة . وهنا يتمثل تحديدُ الغرضِ ومعرفةُ الطريقِ الصالح ، والاستيثاقُ منه ، والثقةُ به ، والصبرُ والمثابرةُ ؛ للوصول إلى الغرض إن لم تحدثْ حوادثُ أو عوائقُ غيرُ مُنتَظَرة . وَإذا تمثلتْ هذه الأحوالُ العقلية في الشخصيةِ الإنسانيةِ كانت من أعظمِ القُوَى العمليةِ في العالَم .

فينبغي أن يكونَ للشخصِ غرضٌ معيَّن من العمل يَسْعَى لإدراكه وتحقيقه بِكُلِّ ما أوتِيَ من عزيمةٍ ، وقوةٍ ، ومثابرة ، وثقةٍ بالنفس ، حتى ينتفعَ بقواه العقلية ، ويقومَ بواجبه في الحياةِ العملية .

قال (وردِ سْورْث)[1] شاعرُ الطبيعةِ من الإنكليز عن الأفراد الذين يسيرون في الحياة نحوَ أغراضٍ معينة : « إن اجتهادَهم ناشئٌ عن وازعٍ نفسيٍّ ، يُنيرُ الطريقَ أمامهم دائماً ، فيقدِّرون جمالَ الطبيعة ، ويَعملون بما يَعلَمون ، ويُثابرون على التعلم » .

وبَعْدَ الوصولِ إلى الغرضِ الأوّل أو المرحلةِ الأولى من الحياة ،

(١) William Wordsworth (١٧٧٠ — ١٨٥٠م) شاعر إنكليزى يتمثل فى شعره الإجادة فى وصف الطبيعة وحب الإنسانية .

يمكن التفكيرُ في مرحلةٍ أخرى وتحديدُها ، والعملُ للوصول إليها ، وهكذا إلى نهاية الحياة .

قال عُمَرُ بنُ عبدِ العزيز : « إنَّ لي نفسًا تواقةً ، لم تزل تَتُوقُ[1] إلى الإمارةِ ، فلما نِلْتُها تاقَتْ إلى الخلافة ، فلما نِلْتُها تاقت إلى الجنة » .

وقيل : « ذُو الهمةِ إن حُطَّ فنفسُه تأبَى إلَّا علوًّا ، كالشُّعلةِ من النار يوجهها صاحبُها ، وتأبَى إلَّا ارتفاعًا » .

(٢) الرغبة في العمل :

بعد تحديدِ الغرضِ من العمل يجب أن تكونَ هناكَ رغبةٌ فيه ، وميلٌ إليه ؛ لأنَّ الرغبةَ :

ا — ترفعُ من شأنِ العملِ الذى نقوم به .

ب — وتُؤدِّي إلى الإقدامِ والنشاط (وهما القوةُ الطَّبعيةُ للشخصية) ، وتكون كوازعٍ نفسيٍّ أو باعثٍ داخليٍّ ، يستنهضُ هِمَّتنا ، ويستحِثُّنا على العناية بالعمل .

حـ — وتُمِدنا بالقوة التنفيذية ، والإرادةِ الحَقَّةِ الضروريةِ للوصول إلى أغراضنا . فالرغبةُ هى الدافعُ الطَّبَعِيُّ للإنسان على العمل ، وإن لاقَى في سبيل ذلك العملِ كثيراً من المصاعبِ والمتاعبِ .

(١) تاقت نفسه إلى الشيء : اشتاقت إليه .

فالرغبة الحقّة هى تلك القوةُ الروحيةُ التى توحِى إلى العقل القيامَ بالشىء بقوةٍ لا تعرفُ الكَلالَ ، ولا تقفُ دونَها أية عَقَبة . فإذا وُجدت الرغبة ثم وُجِدت الإرادة ، سَهُل الطريقُ مهما كان شاقًّا . والحاجة تفتُقُ الحيلة .

فإذا رغبتَ فى معرفةِ صناعةِ غزلِ القطنِ ونَسجِه كان الذهابُ إلى مَعمل الغزلِ والنسجِ أحبَّ الأشياءِ إليك ، وأخذْتَ تشعر بأنه يجب أن تعرفَ كلَّ شىءٍ يتعلق بالقطن ، وأين يُزرع ، وكيف يُزرع ، وكيف تُتقَى الآفاتُ السماوية ، وما الأحوالُ الجوية التى يتطلبها ، وكيف يُجنَى ، وكيف يوضعُ فى الأكياس ، وكيف يُخزن ، وكيف يُرسَل إلى السفُن ، وكيف يُحلَج ، وكيف يُغزل ، وكيف يُنسَج ؟

وإن رغبة (أبراهام لِنكُولن) فى تحريرِ العبيدِ يومَ أن ذهبَ مع بعضِ العمال إلى السُّوق ، فوجد جاريةً تُباعُ وتُشْرَى ، فتألَمَ لبيعِ الإنسانيةِ وشرائِها الألمَ كُلَّه ، فتمنَّى أَنْ لو أُعطِىَ سُلطةً كى يضربَ على الاسترقاق بيدٍ من حديد . فأُعطِىَ السُّلطةَ بعد زُهاء ثلاثين عامًا بانتخابه رئيساً لجمهوريةِ الولاياتِ المتحدة بأمريكا — تلك الرغبة جعلَتْ من أوائل أعمالِه العملَ على تحريرِ العبيد . وقد أدَّى ذلك إلى حربٍ داخلية ، ولكنَّ النصرَ كان أخيراً فى جانب (لِنكُولن) . وبذلك يُعتبرُ محرِّراً للعبيد ، مُدافعاً عن الإنسانيةِ المظلومة .

وإن الرغبةَ فى الإصلاح الاجتماعىّ هى التى جعلتْ (تشارلزْ ديكنْز)[1] أكبرَ كاتبٍ ، وأعظمَ مُصلحٍ اجتماعىٍّ بانجلترا فى القرن التاسعَ عشرَ .

وإن الرغبةَ فى شراء أسهمِ قناةِ السويسِ بعد التحقُّق من فائدتها هى التى خلدتْ ذكرى (دِزْرَائيلى) بين الإنكليز ، وجعلته يعمل بكلّ ما أُوتِىَ من قوةٍ على تنفيذ الشراء ، مع شدةِ ما لقِىَ من معارضةٍ فى مجلس الأمة ، ومن معارضةِ مُديرِ مَصْرف انجلترا .

وإن الرغبةَ فى الأعمال (الميكانيكية) هى التى قادت (إديسون Edison) إلى أن يكونَ أكبرَ مخترعٍ (ميكانيكى) فى القرن العشرين .

وقد بدأ « تُوماس إِديسون »[2] حياته كبائعِ صُحُفٍ ، ثم تعلّمَ طريقَ إرسالِ الإشاراتِ البَرْقيّةِ وتسلُّمها . وهو مُخْترِعُ المصباحِ الكهربىّ الذى نَستضىء بنُوره . قيل إنّه أَنفَق نحوَ عشرينَ ألفَ « جنيه » فى التجاربِ التى عمِلَها لاختراع هذا المِصباح ، وكادت تضيعُ تجاربُه بغيرِ ثمرةٍ لولا دَأْبُه وجَلَدُه وقوةُ إرادَتِه وعزيمتِه .

---

(١) «Charlès Dickens» ولد سنة ١٨١٢م . وتوفى سنة ١٨٧٠ م وله منزلة كبيرة فى عالم الأدب الإنكليزى ، ومعظم رواياته حول الفقراء وبؤسهم ، وحول الإصلاح الاجتماعى . وتدين انجلترا له بكثير مما فيها اليوم من مدنية وإصلاح .

(٢) انظر كتابنا المطالعة العربية « القسم القصصى » ج ٢ .

وقيل إنه بَقِيَ مرَّةً فى مَعملِه أربعةَ أيامٍ بِلَياليها لا يَنامُ ولا يَستريح إلّا قليلا يُتابِع تَجاربَه، ويُراقِبُ نتائجَها، ويَقول: «الفَوْزُ أو الموتُ.» وقدْ قُدِّرَ له الفوزُ، وتمَّ له اختراعُ هـذا المِصباح، فكسَبَ الشُّهرةَ والمجْدَ. وقد أفادَ العالَمَ بكثيرٍ منَ المُختَرَعات غيرِ هـذا المصباح. والحاكِى الذى نَتَسَلَّى به هو واحدٌ من مُختَرَعاتِه.

وسِيرَةُ «إديسون» تَشهد بفَضلِ الدَّأْبِ، وصِدقِ العَزْمِ، وتَنطِقُ بما يُحَقِّقُه الجِدُّ من الخيرِ والمجْدِ للأُمَّةِ والفَرد.

والأمثلةُ كثيرةٌ لا حصرَ لها.

فبغيرِ الرغبةِ لا يستطيعُ الإنسانُ أن يقومَ بعملٍ عظيمٍ فى الحياة. فإذا أردتَ القيامَ بعملٍ من الأعمال سواءٌ أكان ذلك العملُ دينيًّا أم اجتماعيًّا، أدبيًّا أم علميًّا، فنيًّا، أم حربيًّا. فأوْجِد الرغبةَ الصادقةَ وهى كفيلةٌ بالتنفيذ، والنجاحِ فى ذلك العمل، ما دامت تلك الرغبةُ مصحوبةً بالإرادةِ القويَّة، والعزيمةِ الثابتة.

والرغبةُ نوعان: مُباشِرَةٌ، وغيرُ مباشِرَة؛ فالمؤلِّف الذى يؤلِّف كتابًا، أو يكتبُ مقالةً لصحيفةٍ يومية يجب أن يكونَ تأليفه وكتابتُه عن رغبَةٍ حقيقيةٍ إذا أراد أن يكُونَ لعملِه قيمةٌ علميةٌ أو أدبية. فالرغبةَ فى العمل هى الشرطُ الأساسىُّ للتقدم والفوزِ فى هذا العمل. ولكِنْ

هل الرغبةُ وحدَها تكفِي للنجاح ؟ الحقُّ أنها قد لا تكفى ، بل ينبغى أن يكون هناك بعضُ التشجيعِ الأدبىِّ أو المادىِّ ؛ لأن المؤلفَ أو الكاتب قد لا يكتب حبًّا فى الكتابة فحسْبُ ، بل قد يكتب ليعيشَ ، أو ليحصُلَ على ضروريات الحياةِ أو كمالِيَّاتها ، فهو ينتظرُ تشجيعاً ، ويجب أن يُشجَّعَ بتقديرِ عمله ، وإعطائهِ ما يستحق . وبجانب التشجيعِ يجب أن يتحققَ فيمن يريد النجاحَ — الاستعدادُ للعمل ، ثم القُدرةُ عليه .

وحينما توجد الرغبةُ المباشرةُ الطَّبَعِيَّةُ فى العمل ، ثم تُصحبُ برغبةٍ أخرى غيرِ مُباشرة كالربح المادىِّ أو المركز الأدبىِّ ، فإن النشاطَ يتضاعف ، والاجتهادَ يستمر ، والعملَ يزداد حسناً ، ودواعىَ النجاحِ تكونُ أقوَى وأشد ؛ لأن الرغبةَ متوافرةٌ من كلتا الناحيتين : المباشِرَة وغير المباشِرَة .

أَما المثلُ الأعلَى ففى أن نعملَ حبًّا فى العمل ، ونؤدىَ الواجبَ رغبةً فى أداء الواجب ، ونقومَ بالشىء من غير أن نَنتظرَ جَزاءً ولا شُكوراً . ولكن من حيث إن الإنسانَ إنسانٌ فهو يفكر دائما فى النتيجة ، وفيما يعود عليه من المنفعةِ والمكافأة على العمل . وهذه المكافأةُ نوع من التقديرِ يشجعه على العمل ، ويَدفعه إلى أدائه كما ينبغى وكما يجبُ أن يكون . وكلما كانت المكافأة قَيِّمةً زادت الرغبةُ فيها ،

وَكَثرَ التلهفُ عليها ، والعملُ للوصول إليها . ومعظمُ الأعمالِ التى نقوم بها يوميًّا من قبيل الأعمال التى نُؤْجَر عليها . ويجب أن نُصَرِّحَ بأنه لولا الأجورُ والمرتباتُ التى يتقاضاها العمالُ والموظَّفون ماقام أحدٌ منهم بعمل .

ولا تَكفِى الرغبةُ غيرُ المباشرة — كالرغبة فى الأجر — للنجاح فى العمل ، والحصولِ على شخصيةٍ قوية فى ذلك العمل بالظهورِ والتبريزِ فيه ، بل لابُدَّ أن تُصْحَبَ برغبةٍ طَبَعِيَّة ، وميل حقيقىٍّ إلى العمل ذَاته ، وإلَّا كان مكْروهاً لدى النفس ، تُبغِضه وتنتظر بفارغ الصبر التخلصَ منه ، كالعامل الذى لا يجد لذةً فى عمله ، فيترقبُ انتهاءَ اليومِ ومجىءَ موعدِ الانصرافِ بكل ملل . ونحن لا نَبغِى ذلك النوعَ من العملِ الممقوت ، بل نَبغِى عملاً مصحوباً بلذةٍ ورغبة وسرور ؛ كى ننجحَ فيه ونُجيدَه ، ونجدَ شوقاً إلى العودة إليه ، ونُظهِرَ فيه فَوقاً ومهارةً . ومن الصعب أن ننبغَ فى عملٍ يكون غيرَ محبوبٍ لدينا .

(٣) الشعور بالواجب : The sense of duty

من الوسائل التى تساعدُ على التنفيذ ، وعلى تقويةِ الشخصيةِ العمليةِ تلك الصفةُ الحيةُ وهى الشعورُ بالواجب ، وإجابةُ نداءِ الضمير ؛ فالإنسانُ حينما يَشعُر بوازعٍ نفسىٍّ بأنه يجبُ عليه أن يفعلَ كذا ، أو

بأنه يجب عليه ألا يفعَلَ كذا ، فإن هذا الشعورَ وحده يَرمِى إلى مَغزًى خُلُقىّ ، ويَستدعِى نشاطًا عقليًا لِفعلِ الشىء أو محاربتِـهِ ؛ فهو بمثابةِ مؤثِّرٍ داخلىٍّ يُؤَثِّرُ فيه تأثيراً قويًّا . وإن إجابةَ هذا المؤثرِ أو الباعثِ النفسىِّ خيرُ كفيلٍ لاستنهاضِ الهِمّة ، ومُضاعَفةِ العزيمة .

قال (إمَرْسُون)[١] : « إن الإنسـانَ إذا أُستحثَّه الواجبُ على أن يقومَ بعملٍ ما ، قام به » . وليس الشعورُ بالواجب ، أو إجابةُ الضميرِ أو الصوتِ الداخلىِّ مقصوراً على طبقةٍ دُونَ أخرى ، ولا على جِيلٍ من الأجيال ، ولا سِنٍّ من الأسنان .

وإذا تذَكَّرنا أن الشعورَ بالواجبِ يتضمنُ التهذيبَ[٢] النفسىَّ ، وضَبْطَ النفسِ[٣] — أمكننا أن ندركَ العلاقةَ بينَ الشخصيةِ وبينَ الشعورِ بالواجب وإجابةِ الداعِى النفسى ؛ ففى كل أمرٍ من أمور الحياة نجدُ أن هدوءَ البـالِ أو راحةَ الضميرِ والاطمئنانَ ، ثمرةٌ من ثمراتِ الطاعة ، ومراعاةِ القوانينِ العلميةِ والفنية . فآثار (بدْرَوِسْكى) و (كْرِزْلَر) من الموسيقيِّين المعاصِرين ، و (تِنِسُون)[٤] و (وِرْدِسْوِرْث)

---

(١) Emerson : (١٨٠٣ — ١٨٨٢) م . من أكبر الكتاب الأمريكيين الذين لهم أثر واضح فى الأدب الأمريكى . وله موضوعات قيمة ، ومقالات ثمينة مطبوعة ، فى كثير من الأمور الهامة .

(٢) Self-discipline .

(٣) Self-control .

(٤) Tennyson (١٨٠٩ — ١٨٩٢ م) .

من شعراء الإنكليز فى القرن التاسعَ عشَر ، وروحُهم وجاذبيتهم نستطيعُ أن نَشعرَ بها ونُلاحظَها فى جمال الموسيقى ، ورَوْعةِ الشعر ، وتأثيرِ الفنِّ ، ومُلاءمة قوانين العاطفةِ فى الموسيقى والشِّعر ، والقوانين الفنِّية والتهذيبية . وبالشعورِ ، والجِدِّ ، وإرضاءِ الضمير ، وسلامةِ التفكيرِ قد اكتسبَ الفنِّيون والأدباء مراكزَهم الروحيةَ فى عالَمِ الموسيقى والأدب ، وفى مملكةِ النبوغِ والعبقرية .

وحينما نبحثُ فى تاريخ العظماء والأدباء والفنِّيين نجد أن ذَوِى الشخصياتِ الخالدةِ فى التاريخ كانوا من ذَوِى الضمائر الحيَّةِ الحساسةِ الذين يُجيبون نداءَ الضمير ، ويُصغونَ إلى صوتِ الله ، فيَسيرون بهَدْيه . كانوا يُحِسُّون الواجبَ فيقومون به ، ويعملون على تنفيذِه . وكثيراً ما يكون الضميرُ والشعورُ بالواجبِ سبباً فى إنقاذِ الإنسانِ من صُروف الحياة ، ومن السقوطِ إلى الهاوية ، فلا يكونُ فريسةً للنفس الشريرة . فكل إنسانٍ تُفتَح أمامه السبُل المختلفة ، ولكن الروحَ الطاهرةَ لا تفكر إلا فى الطرقِ الشريفةِ الساميَة ، أما الروحُ الشريرة فلا تنظرُ إلا إلى الطُّرقِ الدنيئة . وبين هذين الطريقين : المستقيم والمعوج ، تسير البقيةُ وهى الأكثرية .

وإن الشعورَ بالواجب ، وحُبَّ الفضيلةِ والتمسك بالخيرِ تُكسِب الشخصَ قوةً وروعةً ووقاراً ، وتبعثُ في نفسه الحياةَ ، وتقودُه إلى الطريق السَّوِيِّ ، وتُعوِّده الصبرَ والمثابرةَ ، وتُقوِّى الإرادةَ فيه ، وهى التربةُ الصالحةُ التى فيها تَنبُتُ وتُثمرُ الشخصيةُ القويَّةُ الغنية . قال المرحوم سعد زغلول باشا ، وقد كان يمثل العظمةَ الإنسانيةَ والبطولةَ المصريةَ والمَثَل الأعلى للشخصية :

« إنِّى رجلٌ قد وَضَعْتُ تحت تصرُّفِ أُمَّتى عقلى واختيارى وَبَيانى ، فإن استفادت الأمةُ من عمَلى فذلك ما يجعلُنى سعيداً ، وإلَّا فهو واجب قد أَخَذْتُهُ عَلَى نفسِى ، فأنا أقومُ به لأُريحَ ضميرى » .

(٤) قوة الوازع الدينى :

إننا فى البحثِ عن الشخصية الإنسانية لا يمكننا أن نَنْسَى الدينَ وأثرَه ، والوازعَ الدينىَّ وقوتَه فى التأثيرِ فى حياةِ الإنسان . فكثيراً ما يُوَاجِهُ الإنسانُ بأزَماتٍ وشدائدَ لا قِبَلَ له بها ، ولولا الثقةُ بالله والإيمانُ به لجزِعَ وَتملَّكَهُ اليأسُ ، واستولت عليه الهمومُ من كل جانب . ولكن الوازعَ الدينىَّ هو الذى ينتشله من وَهْدَةِ القُنوط ، ويبعثُ الأملَ فى نفسه ، ويُحيِيه من يأسه . ويُنيرُ الطريقَ أمامه بعد أن كان مُظلماً ، ويَهديه بَعدَ الضَّلال ، ويُسَلِّيه عند الشدائد .

فالعنصرُ الوجدانىُّ قوىٌّ فى الدين يَستحثُّ الشخصَ على أداء الواجب ، وإرضاءِ الضمير ، والصبرِ والمثابرةِ ، وكلُّها من الصفات الهامَّة فى الشخصيةِ القوية ، كما يُوحى إليه فعلَ الخير ، واُجتنابَ الشر ويدعوه إلى الحركة والعملِ فى الحياة ، ويُرْشِدُ عقلَه ووجدانَه ، فيعملُ العملَ وكلُّه أملٌ وثقةٌ بالله . يؤدِّى واجبَه ويتركُ النتيجةَ لخالقه . لا يفكرُ فى الماضى لِأنه قد فات ، وينظرُ فى الحاضر ، ويترُكُ المستقبلَ لله يفعل ما يشاء . وبهذه الوسيلةِ يَهدأُ بالُه ، ويطمئنُّ خاطرُه ، ويكُون سعيداً فى الحياة .

ومن السهلِ أن تعتمدَ على الدينيِّين ، الذين يَثِقون بالله تمامَ الثقة ، ويفعلون ما يفعلون اُبتغاءَ مرضاةِ الله . أما الرجل الذى لا دينَ له فلا ضميرَ له ، ولا يمكنُك أن تطمئنَّ إليه ، أو تثقَ به .

ومعظمُ المصلِحينَ فى العالَمِ كان الوازعُ لهم فى الإصلاح دينيًّا : أمثال الخلفاءِ الأربعة ، والأئمةِ الأربعة ، والشيخ محمد عبده من المسلمين ، و (هِلِّيل)[١] ، والرَّبانىّ (عَقِيبَة)[٢] من الإسرائيليين ؛ وَمَارتِن لُوثر[٣] ،

---

(١) هليل : إمام من أئمة الإسرائيليين كالإمام أبى حنيفة لدى المسلمين .
(٢) عقيبة : أحد علماء اليهود المصلحين ، كان يثق بالله ثقة لاحد لها .
(٣) Martin Luther : (١٤٨٣ — ١٥٤٦) م . زعيم ألمانى ومصلح دينى .

وكارلَيْل[١] ، ورَسْكِن[٢] من المسيحيين . فالدينُ هو الذى أمَدَّهم بثروة فى العقل ، وقوةٍ فى الروح ، وعَظَمةٍ فى الخُلق ، فأثَّرُوا فى جيلهم ، وفى الأجيال التى أتَتْ من بعدهم .

ولسنا اليوم فى حاجة إلى رجال يقومون بالواجب فَحَسْبُ ، ولكننا فى حاجة إلى رجال يمكنهم أيضاً أن يَحمِلوا غيرَهم على القيام به . قال أحدُ الفلاسفة : « كُنْ كما شاءَ القدرُ أن تكون ، مَسيحياً أو مسلماً أو إسرائيلياً أو بوذِيًا . ولكن لا تَنْسَ أنَّ لَكَ دِيناً تَنزِعُ إليه . وعقيدةً تَحرِصُ عليها ، ووَاجباً نحوَ اللهِ يجب أداؤُه » .

الخلاصة :

وَصَفوَةُ القول أننا فى الشخصيةِ العملية نحتاج إلى ما يأتى :

(١) أن يكون لنا غرضٌ معيَّن فى الحياة ، نعمل لِلوصول إليه ، بحيث نعتمدُ على أنفسِنا ، ولا نكونُ صَدًى لأصوات غَيرنا ؛ نكَرِّر ما يقولون ؛ ونفعلُ ما يفعلون . ولا نتأثرُ بهؤلاء المتردِّدين الذين لا يعرفون لهم غَرضاً فى الحياة ، ولا يَثْبُتون على حال . ولا نَشغَل

---

(١) Carlyle : (١٧٩٥ — ١٨٨١) م : كاتب إنكليزى ، ومصلح اجتماعى ، وفيلسوف ومؤرخ ، وهو أول من اعترف من الإنكليز لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالبطولة والإخلاص ، فى كتابه : «الأبطال» . ومن أحسن كتبه : « الثورة الفرنسية » .

(٢) Ruskin (١٨١٩ — ١٩٠٠م) : كاتب إنكليزى ، ومصلح كبير ، ومحسن عظيم ، محب للطبيعة ، والفن الجميل .

أنفسَنا بكثيرٍ من المشروعاتِ التى لا يمكن تنفيذُها ، بل نَكتفِى بمشروعٍ واحد ، فى وقت واحد ، ثم نعملُ على إجادتِهِ وتنفيذه ، ثم الابتداء بغيره وهكذا .

(٢) أن يكونَ لدينا حبٌّ شديد لأعمالنا ، ورغبةٌ كبيرةٌ فيها ، ونَعمل على ألاَّ نفقِدَ تلك الرغبةَ فى العَمَل ، وعلى تهذيبِها ومضاعفتِها .

(٣) الشعور بالواجب والقيامُ به فى الحال على أكملِ وجه ، من غيرِ تأخيرِ عملِ اليومِ إلى الغد ، وبدونِ تفكيرٍ فيما سنحصُل عليه من الجزاء عند القيام بالعمل ، بل نجعلُ الجزاءَ أمراً ثانويا ، ونؤدِّى العملَ لا لشىء ، إلا لأنه يجبُ أن يؤدَّى . ونَثِقُ بغيرِنا كما نَثِقُ بأنفسنا ، ولا نهزأُ بالمُثُلِ العُليا التى يتخذها سِوانا .

(٤) قوة الوازِعِ الدينىِّ مع التمسكِ بالدين ، بحيث لا نفكرُ فى الماضى ، ونعملُ على الانتفاعِ بالحاضر ، ونقومُ بواجبنا كما ينبغى ، ونترك المستقبلَ لله . وبهذهِ الوسيلةِ نستريحُ وتستريحُ نفوسُنا ، ونكونُ سعداءَ فى حياتنا .

الفصل الخامس عشر

(ب) الشخصيةُ الفكريةُ او الخُلُقية

بعد أن تكلمنا عن الشخصية العملية نريد أن نتكلمَ عن الشخصية الفكرية أو الخلقية ؛ فالفكرُ هو مَصدرُ الجاذبيةِ والقوةِ الشخصيةِ للإنسان . وأقوالُ الإنسانِ وأفعالُه تتوقفُ على ما يفكرُ فيه وما يَشعرُ به فى روحِه الحقيقية . وتظهر أفكارُ الإنسانِ فيما يقوله وما يفعله . وما أعمالُنا فى الغالب إلا مَظاهرُ خارجيَّةٌ لأحوالِنا الداخلية . ففى العمل الإنسانىِّ تبدُو الشخصيةُ العمليةُ والشخصيةُ الفكريةُ للإنسان ؛ فالرجل الفنِّىُّ مثلاً يُعبِّرُ بالصوتِ أو الرسم أو الشكل أو اللون عن الأفكار التى يفكرُ فيها ، والمثُلِ العليا التى يدركها بعقله .

ومن الخطأ أن نظنَّ أن كلَّ ما نحتاجُ إليه للمهارة فى الموسيقى والحفر والرسم مثلاً هو معرفةُ القواعدِ الأساسيةِ لهذه الفنون ؛ فالمعرفةُ وحدَها لا تكفِى ، بل لا بدَّ من أن تُصحَبَ بمقدارٍ كبير من الروح الفنية والميل الفطرىِّ .

وبالتعلّمِ والتربيةِ والتهذيبِ مع الميلِ والرغبةِ وتقليدِ الفنِّيين ، والتمرّنِ والمثابرةِ يمكن كسبُ المهارةِ الفنية .

ومن الواجبِ تربيةُ الوجدانِ والفكرِ والخيالِ والإرادةِ وإحياؤها بالاتصال دائماً بقادةِ الفكرِ في الماضي والحاضر .

وإن الشخصيةَ الفكريةَ هي التي تُكسبُ العملَ قوةً جاذبية . وفي العمل تتمثلُ روحُ صاحبِه وأفكارُه وأخلاقُه . وليست الشخصيةُ الفكريةُ مقصورةً على طبقةٍ دون أخرى ؛ فكما تكون بين الأغنياء تكون بين الفقراء ، ولكنها تختلفُ قوةً وضعفاً من غير نظرٍ إلى طبقةٍ أو جنسية .

وقد وصفَ الشاعر الإنكليزيُّ « رُوبَرْت بْرَوْنِنج » شخصية امرأةٍ فقيرة ، سعيدةٍ قانعةٍ تُدعَى « بِيبا » ، في قصيدته « بِيبَا تمرّ » . وفيها يصفُ هذه الشخصيةَ الفكرية ، والسعادةَ الفِطرية ، والروحَ القويةَ في « بِيبَا » ؛ تلك المرأة العاملة الفقيرة التي تشتغل طولَ عامِها في غزلِ الحرير بمصنع من مصانع (أسُولُو) لتكسِبَ قوتَ يومها ، وتعيشَ معيشةَ الكَفافِ . وفي اليوم الذي تجعله للراحة ، تخرج « بِيبَا » والسعادةُ تبدو عليها ؛ تُغنِّي أُغنِيَّتَها العَذبةَ الجميلةَ ، التي تتمثل فيها تلك الروحُ السعيدة :

« نحن الآنَ في فصلِ الربيع ، في الصباحِ ، اللهُ في مَلكوتِه ، والعالَمُ جميل » .

فى تلك المرأةِ الفقيرةِ تتمثل تلك الروحُ القوية ، السعيدة فى فقرها ، السعيدةُ فى عملِها المُضْنِى، الراضيةُ بالكَفاف، الهانِئةُ بحياتها. وهى مَثلٌ للروحِ السامِية ، والعَظَمةِ الفكرية ، والشخصيةِ القوية ، تستطيع أن تؤثرَ فى غيرها ليرضَى رِضاها ، كما يؤثرُ عظماء الرجال وشُجعانُهم فى غيرهم من ناحيةِ العظَمة والشجاعة . وبينَ الفقراء من الفلاحين أمثلةٌ كثيرةٌ للرضا والقناعةِ فى الحياة .

والروحُ القويةُ قد تجدُها هنا وهناك ممثّلةً فى كلِّ مدرسة ، وفى كل وسط ، فى فردٍ هو الرئيسُ الذى يُوحِى إلى غيره أفكارَه وأخلاقه ، ويُؤثِّر فى المتصلين به تأثيراً كبيراً . وإن وجودَ تلك الروحِ القوية فى رياسةِ أىِّ عملٍ من الأعمال يَكفِى أن يسيرَ هذا العمل بكل هدوء ونجاح . وإذا اُختفتْ تلك الشخصيةُ وهذه الروحُ من الرياسةِ اُبتدأ سوءِ التفاهم ، وكَثُرت المنازعاتُ والمشاجراتُ والتحزُّباتُ والمؤمرات ، فيختلُّ نظامُ العمل ، ويتحققُ الفشل .

فالرئيسُ قد يكون ضَخمَ المرتَّبِ ، قليلَ العمل ، فنظنُّ أنه لا يستحقه لأنه لا يتكافأُ مع العملِ الذى يقوم به . ولكننا نقول : إذا كان الرئيسُ قوىَّ الشخصيةِ كان وجودُه وحدَه كافياً لإيجادِ روحٍ فى ذلك العمل ، ووضعِ نظامٍ أو مقياسٍ يسير عليه الجميع . ومن أجلِ

هذه الشخصيةِ ، وتلك الروحِ القويةِ ، والأَخلاقِ القويمة ، يَستحقُّ ذلك المرتبَ الضخمَ ، لا من أجلِ مقدارِ ما يقومُ به من العمل .

والشخصيةُ القويةُ بأفكارها وأخلاقِها لا تَستدعِى جَلبةً ولا ضوضاء ، ولا تَدعو إلى طَبلٍ ولا زَمْرٍ . وإذا بحثنا وجَدْنا أَن القُوَى العظيمةَ فى الطبيعةِ هى تلك القُوَى الهادئةُ التى تَعملُ ، وتعملُ كثيراً ، ولا تسمعُ لها طنيناً . ومن السهلِ وجودُ الهدوءِ والرزانةِ حتى فى الحياةِ المضطربة .

الفرقُ بين الشخصيتين العَملية والفكرية

بعد أن تكلمنا عن الشخصيتين العَمليةِ والفكريةِ نريد أن نَذْكرَ الفرقَ بينهما ، فنقول : إن الأُولَى تُوجِّه قوتَها نحو عملِ الأشياءِ العظيمة ، فى حينِ أنَّ الثانيةَ تُصرَفُ قوتُها فى أن يكونَ الإنسانُ قويًّا فى روحِهِ ، عظيماً فى خُلُقه . وإن العالَمَ الذى نراه بما فيه من مدنيةٍ وحضارةٍ وتقدُّمٍ فى العِلم والاختراع ، مَدِينٌ لتلك الشخصياتِ القويةِ التى فكرتْ وتخيَّلتْ وجرَّبتْ ونفَّذتْ .

وقد يُظَنُّ أنه لا أثرَ للشِّعرِ والفلسفةِ والفنونِ الجميلةِ فى الأعمالِ الهامَّةِ العظيمةِ فى الحياةِ . والحقُّ أنَّ لها أثراً كبيراً فى تلك

الأعمال ؛ لأنها لا تُزوِّدُ الشخصَ النشيطَ العاملَ بالمُثُلِ العليا فَحسْبُ ، ولكنها تَبُثُّ فيه أيضاً القوةَ والنشاطَ والروحَ الضروريةَ لتنفيذِها والوصولِ إليها .

الصفاتُ التى يجبُ أن تتحققَ فى الشخصية الفكريةِ أو الخُلقية

هناك صفاتٌ تُعدُّ عناصرَ للشخصيةِ الفكريةِ الصامتةِ ، تلك هى :

(١) الهدوء العقلى .　　　(٣) حُسْنُ الطبع .

(٢) الرضا بالحياة مع العمل .

ولنشرحْ كلاً منها فنقول :

(١) الهدوء العقلى :

يُرادُ بالهدوءِ العقلىِّ اطمئنانُ البالِ ، وهدوء الخاطر ، وعدمُ التفكيرِ فى أشياءَ تؤدِّى إلى القلقِ أو الاضطرابِ النفسىِّ . وهذا الهدوء قد يكون فِطريًّا ناشئاً عن طبيعةِ المِزاج ، وقد يُكتَسَبُ بالتربيةِ والتهذيبِ وضبطِ النفس ، وضبطِ العواطف ، والوجداناتِ التى تتأثرُ بالظروف الخارجية للحياة . والخوفُ أكبرُ عدوٍّ مُزعِج للعقل ، وأقوى سببٍ فى الاضطراب العقلىِّ . وما دام العقلُ متأثراً بالمخاوفِ فالهدوء محال .

وقد ينشأ الاضطرابُ عن الغيرةِ أو الحقد، أو عن طلبِ المحال والتعلقِ به، نعم يجب أن تكون آمالُنا كبيرةً، ولكن يجب أيضا أن يكونَ من الممكن تنفيذُها[١]. وقد ينشأ الاضطرابُ العقليُّ عن كثرةِ الرغباتِ التي لا نهايةَ لها؛ فالإنسانُ منا يريد أن يذوقَ الحياةَ ويتمتعَ بما فيها من لذّاتٍ في لحظةٍ واحدة، من غير تفكيرٍ في تركِ شيء للتمتُّعِ به في المستقبل. يريد أن يَقطِفَ الحياة كما يقطفُ عنقودَ العنب، ولَيْتَهُ ينتفع بما يقطفُ؛ فقد يَضْغَطُ العنقودَ لشدةِ حرصِه فيُتلفه، ويبقَى جائعاً كما كان من قبلُ. وإن كثرةَ الرغباتِ لا تتركُ أثراً للمسرّاتِ القلبية، وكثيراً ما تؤدّي إلى التألمِ أو الحِرمان؛ فالحريصُ محرومٌ، لو بلغَ الرزقُ فاه، لولاّه قفاه، كما قال بديعُ الزمان الهمدانيّ[٢].

(٢) الرضا بالحياة مع العمل :

وليس مَعنَى الرضا أن يقبلَ الإنسانُ كلّ شيء كما هو، ولو كان

---

(١) قد صرّح (وليام هازلت) : william Hazlitt (١٧٧٨ — ١٨٣٠) م . الكاتب الإنكليزي المعروف بقوة النقد، وقد حضرته الوفاة، بأنه عاش سعيداً في نفسه. ولكن القارئ لتاريخ حياته يجدها مملوءة بالأحزان؛ فقد كان يتأثر ويهيج ويثور لأقل شيء؛ فكانت حياته تتغير تغير الجو في البلاد الإنكليزية؛ لا يثبت فيها الجو على حال. وكان يعرف أنه مكروه لدى معاشريه، ولا يدري لذلك سبباً. أما السبب فقد كان سرعة تأثره، وعجزه عن ضبط نفسه؛ فنَفَر منه عارفوه، مع أنه كان كريماً مخلصاً أديباً ذكيّاً.

(٢) ولد سنة ٣٥٨ هـ. وتوفى سنة ٣٩٨ هـ. وهو كاتب من كتاب العربية في القرن الرابع الهجري. ونثره خير من شعره. وهو أول من اشتهر بكتابة المقامات، وله ولع كبير بالمحسنات والزخرفة اللفظية والبديعية.

خطأً ؛ فهذا يُعد ضَعفاً وجُبناً ، بل معناه أن يكون الإنسانُ حيًّا ، يفعل ما يجبُ أن يُفعلَ ، ويَرضَى بما يجب الرضا به ، ويحتجُّ على ما ينبغى الاحتجاجُ عليه ، ويرُدُّ على ما يقتضِي الردَّ . هذا هو الرضا ، وهو معنى الحياة . وفى اللحظةِ التى ينقطعُ فيها الردُّ أو الاحتجاجُ تَنقطع الحياة ، ويتلوها الموتُ والفنَاء . أما الرضا المصحوبُ بالكسلِ والخمول فليس بِرِضًا ، وإنما هو الموت فى الحياة . فالرضا بالحياة يجب أن يُصْحَبَ بالجِد والعمل والمثابرةِ مع الاقتناعِ بما يجب الاقتناعُ به . وفى البيئةِ والحياة أمورٌ بَرْهنت التجاربُ على خَطَئِها ، فهذه يجبُ ألَّا نقتنعَ بها ، بل نعمل بكل قوة على علاجها وإصلاحها ، وإلَّا وقفَ العالَم فى مكانه ، وتأخَّرَ الفكرُ والحضارة .

وينبغى أن نقتنعَ القناعةَ التى بها تستريحُ نفوسُنا ، ونكون سعداء ، بحيث نَرْضَى من جهة ، ونعملُ للرقىِّ والكمال من جهة أخرى . وتتمثلُ تلك الروحُ الراضيةُ « فى الروح العظيمةِ بالكوخِ الصغيرِ » .

ومن الخطأ أن ينتظرَ الإِنسانُ المحالَ ، أو يطلبَ أشياءَ ينبغى ألا يُجابَ إليها . ومن العيوبِ التى كانت تُؤخذُ على (جِيتَه)[1] الفيلسوفِ

---

(١) Goethe (١٧٤٩ — ١٨٣٢م .) : هو شاعر وفيلسوف ألمانىٌّ ، له شهرة ذائعة بين فلاسفة العالم ، وعلماء الطبيعة .

الألمانيّ أنه كان يُعارضُ ولا يقنعُ حتى بالأمور التى لامفرَّ منها ، وليسَ منها بدٌّ . وذلك ناشئٌ عن العجزِ عن ضبط النفس ، وهو نقصٌ خُلُقيٌّ شائع . وما الفائدةُ من طلَب المحال ؟ إن عـدَم الرِّضا لن يُقرِّبنَا من تحقيق رغبَاتِنا ؛ لأنها رغباتٌ يستحيلُ تنفيذُها ، ولا يمكنُ الوصولُ إليها . ولو حُدِّدتِ الآمالُ والأحلامُ ، ثم عمِلنا بجِدٍّ وطِيبِ خاطر ، ونفْسٍ مستريحة ، فمن الممكن إدراكُ هـذه الآمال ، وتحقيقُ تلك الأحلام ، بالوصول إليها أو إلى مايقرُب منها .

فليس من الحِكمةِ أن نُحْزِنَ أنفسَنا ، ونُحْرِقَ قلوبَنا ، فى سبيل أحلامٍ لايمكن تحقيقُها . فنحن لا نريدُ قناعةً تُصحَبُ بالضعف أو الإهمال ، كما لا نريد جشَعاً يؤدِّى إلى القلقِ الفكريِّ ، والاضطرابِ العقليّ ، والألَمِ النفسيِّ . ولكننا نريد قناعةً تؤدِّى إلى السعادة ، وتستدعِى العملَ ، وتتطلبُ المثابرةَ فى سبيل الرقيِّ المستمر ، مع راحة الضمير ، وهدوءِ البال . وبهذه الوسيلةِ تكونُ حياتُنا هادئةً سعيدةً مملوءةً بالثقة والأمل . وما الحياةُ إلا حُزْمَةٌ كبيرةٌ مكوَّنةٌ من عيدان صغيرة . وللوصول إلى هذه الحُزمَةِ الكبيرةِ يجب أن نحصل أولاً على العيدانِ الصغيرة .

قال « اللورد أُف بَرِى » فى كتابه : « مسرَّاتُ الحياة » : « كلُّ

من يسعَى للنجاح فى الحياة يناله ، ولكنه لا يصل إلى كلّ ما يتمناه لنفسه .
إن الفشلَ الشريفَ خيرٌ من الفوزِ الدنىء . ولَعَمرِى إن الإنسانَ إذا حاولَ وفشِلَ ، لا يخسَر شيئاً مطلقًا إلا إذا تولّاه اليأس ؛ ودخل فى قلبِه القُنوط . وإذا لم نحصل على مرادِنا مرةً فلا يدعو ذلك إلى قطعِ الآمال » .

وقال « مَارْك توِين » : « حافِظْ على آمالِك ، فإنها إذا ذهبَتْ تركتْكَ هائمًا بغير حياة » .

وقال « بيكون » : من يَسْعَ وَيَتيقَّظْ يُبصِر الحظَّ ؛ فإنه (أى الحظ) — وإن كان ضريراً لا يُبصِرُ — لن يفوتَنا ، ما دامت تُبصِرُه عُيونُنا .

(٣) البشاشة ورُحب الصدر :

إن للبشاشة أثراً كبيراً فى الشخصيةِ الفكريةِ أو الخُلقية ، وتنشأ عنْ ضبطِ النفس ، وحُسْنِ التفكير ، وسلامةِ الأعصاب ، واُعتدالِ الصحة ، والنجاحِ فى الحياة ، ورقىِّ البيئة . أما سوءِ الطَّبع المصحوب بضيق الصدْر ، فينشأُ عن ظلامِ الفكرِ ، أو شدةِ تأثرِ الأعصابِ ، أو ضعفِ الصحةِ ، أو الفَشَلِ فى العمل ، أو تأخرِ البيئَةِ ، أو عنها كلِّها مجتمعة .

ومن السهلِ معالجةُ ذلك النقصِ بالنصحِ تارةً ، ومقاومةِ النفسِ تارةً أخرى ، والاتصالِ كثيرًا بالمُثُلِ العليا فى الأخلاق ، والعملِ دائمًا على مراعاةِ شعور النـاس ، والمحافظةِ على روحِ الصـداقةِ مع الأصدقاء[1] .

ومن مظاهرِ قوةِ الشخصيةِ الفكريةِ أن تتغلبَ على عاطفتِك ، وتشاركَ الناسَ فى سرورِهم لنجاحهم فى أعمالِهم ، مهمَا كنتَ فى دياجيرِ[2] الشقاء ، وفى غياهبِ[3] البؤسِ ، متمثلًا بذلكَ الرجل الضالِّ الشريدِ فى العالم ؛ تطردُه تلك البلدةُ فينتقل إلى أخرى ، وهو يغنِّى تلك الأُغنيَّةَ :

« أيتُها الحياة ! ما أجملَكِ ! وما أجملَ الليلَ والنهار ، والشمسَ والقمر ! هواءٌ عليل ، وسماءٌ صافيـة ، وحياةٌ عذبة . ما أحلَى الحياةَ ! الحياة هنا إلى الأبد » !

وهل هناك من هو أسعدُ نفسًا ، وأقوى رُوحًا من ذلكَ الشرّيدِ الطريد ، الذى يبتسمُ للحياةِ البائسة ، وينظرُ إليها تلكَ النظرةَ السارّة ؟

(١) وقد قيل عن (السير وولتر سكوت) ، الكاتب الأسكتلندى العظيم : إن شخصيته كانت تتمثل فى حسن طباعه ، ومتانة أخلاقه ، وشـدة صبره ، والنظرِ إلى كل إنسان يعرفه أو يتصل به نظرة كلهـا عطف ، نظرة الأب الشفيق إلى الابن البار ، نظرة تدل على تقديره للإنسانية ، وحبه لغيره من بنى الإنسان .

(٢) الديجور : الظلام ، وليلة ديجور : مظلمة .

(٣) الغيهب : الظلمة .

الفصل السادس عشر

مُضعفاتُ الشخصية

هناك أشياء كثيرةٌ تؤدِّى إلى إضعافِ الشخصية ، وتُعَدُّ عائقاً لها ، منها :

(١) اتكال الشخص على غيره :

وذلك بتقليدِ غـيره فى أقوالِهِ وأفعاله ، وحركاتِهِ وسكَناته وَتفكيرِهِ ، بحيث يَصيرُ الإنْسَانُ صورةً مقلَّدَةً لا شخْصيةَ لهـا ، ولـكنها متأثرةٌ بشخصية غيرها .

(٢) التأثر بالعادات والتقاليد :

فالرأىُ العامُّ كثيرًا ما يكون مصيبًا ، وكثيرًا ما يكون حسَنًا ، ولا نستَطيعُ أن ننكرَ ذلك . ولـكننا نريدُ أن يكونَ الرأىُ العامُّ بمثَابةِ القائدِ المرشد ، لا بمثَابة القائدِ المستَبِدِّ ، الذى يتحكمُ فى الأفراد ، فَيُضِلُّهمْ أحياناً ، ويقُودُهم إلى حيثُ يبتعدون عن الحياة ، وينفصلون عن حقائِقِها ، وينقطعون عن العالَمِ انقطاعَ عرباتِ القطارِ عن القاطرَةِ الأماميةِ التى بها يسيرُ القطارُ ، ويتصلون بعالَمٍ آخَرَ هو عالمُ الموتِ ،

أو عالمُ الحقائقِ الميتة التى فقدَتْ كلَّ حياة .

فنحن نريد احترامَ العاداتِ ، ونطالبُ باحترامِ التقاليد ، وتعليمِ الأطفالِ احترامَها ، وتعويدِهم تقديسَ الرأيِ العام . ولكننا نريد مع ذلك أن نعودَهم التفكيرَ بأنفسِهم ، والاستقلالَ بالفكر ؛ حتى لا يكونوا عبيداً لغيرِهم فى آرائهم ، كما نعودهم الخضوعَ للحق ، والانقيادَ لما تُمليه عليهم عقولُهم وضمائرُهم ؛ كى يُحافظوا على شخصياتِهم . فالشخصيةُ لا يمكنُ أن تنموَ فى قفصٍ من حديد لا يجدُ فيه الطفل حريةً فى الرأى ، وحريةً فى التفكير .

وفى حدودِ العاداتِ والتقاليدِ يجب على كلٍّ منا أن يكوِّنَ له رأياً ، وأن يقبَل من الآراءِ ما أثبتته التجربةُ والبراهينُ ، ويتمسكَ بالصواب ، ويتركَ ما يتبيَّنُ خطؤُه . ومن المحال أن نَضِلَّ الطريقَ المستقيمَ إذا أُسِّسَ الرأىُ العامُّ على الحكمةِ ، والعقل ، والصوابِ ، والمصلحةِ العامة .

أما العاداتُ والتقاليدُ الدينيةُ المتصلةُ بالدينِ القويم فيجب أن تُحترَمَ وتُؤْخَذَ كما هى ؛ لأنها تتفقُ مع العقل والمنطق ، ولو أننا قد لا نصل إلى إدراكِ الحقيقةِ أو السرِّ أحياناً ؛ لأن التفكيرَ الإنسانىَّ محدودٌ ، ولو فكرنا فى الأمورِ الدينيةِ لوجَدْنا أن لكل أمرٍ حكمةً

أو سرًّا قد لا ندركُه . فتهذيبُ الشخصيةِ لا يتنافَى مطلقاً مع مراعاةِ الروحِ والتقاليد الدينية .

(٣) ومن الأشياء التى تتحكم فى الشخصية :

التمسكُ بالأفكار التى يقرؤها الإنسانُ فى الكتبِ العادية . وجديرٌ بالإنسانِ أن يقرأَ ، وأن يقرأَ كثيراً ، ثم يُحكِّمَ عقلَه ، ويأخذَ الحسنَ ، ثم يتركَ القبيحَ . ويجب ألا يعتقدَ ما يقرأ ، ولا يصدقَ كلَّ ما يقال ، كما يعتقدُ ويصدقُ كثيرون من القراء . إننا لا نريد ذلك الكسلَ العقليَّ ، والخمولَ الفكريَّ ، بل نريد أن نفكرَ فيما نقرأ ، ونستعملَ عقولَنا ، فلا نتقبل كلَّ بضاعةٍ تُعْرَضُ علينا ولو كانت مزْجَاةً . ولسنا بذلك نقلِّلُ من قيمةِ القراءةِ والاطلاع ، أو من قيمةِ من يقرءون ويَطَّلعون ، ولكننا نود أن يكونَ لكلٍّ منهم شخصيةٌ مستقلةٌ فى التفكير ، فيفكر فى كل شيء ، وفى كُل كتاب يقرؤه ؛ فنحن لا نريد القراءةَ فحسبُ ، ولكننا نريد أن نقرأَ ، ونفكِّرَ فيما نقرأَ ، بحيثُ يكونُ تفكيرُنا أكثرَ من قراءتِنا ، كى نصلَ إلى حديثٍ جديد أو رأيٍ طريفٍ جيِّد ، بحيثُ نَزِنُ كلَّ فكرةٍ ، فتكثرُ الآراءُ السديدةُ ، والأفكارُ الناضِجَةُ . وَبهذه الوسيلةِ تظهرُ شخصياتُنا الحقيقية ، وتبدو أنفسُنا كما هى .

ومما قاله (جَنْ جَاكْ رُوسُو[١]) عن نفسه : «إننى لا أشبه أحداً آخرَ عرفتُه . ومع ذلك فإننى إذا لم أكنْ أحسنَ ، فإنى مختلفٌ عن غيرى على الأقل» . فأساسُ الشخصيةِ هو فى وجودِ شىءٍ خاصٍّ فى كُلٍّ منا يُميزه من غيره . وقد يَخجَلُ الإنسانُ أو يعتذر إذا وجد نَفسَه يختلف عن غيره . وليس فى حاجةٍ إلى الخجل أو الاعتذار ، ولكنه فى حاجةٍ إلى الشجاعةِ فى أن يَرى نفسَه مختلفاً عن غيره ، ويرى غيرَه يختلف عنه فى أمورٍ هى أساسُ الشخصية ، ومظهرٌ من مظاهرِ النفسِ الحقيقية . وفى تربيةِ الشخصيةِ يجب أن نُعوِّدَ الطفلَ أن يظهرَ بحقيقته كما هو ، من غير رياءٍ أو تظاهرٍ أو تغييرٍ للحقائق ، ونفهِّمَه حينما يكبَرُ أن العلمَ يتطلب هدوءًا وتواضعاً ، وإخلاصاً ، ومعرفةً للنفس ، واُحتراماً لها ؛ اُحتراماً بعيداً عن العُجْب والكِبْر والكذب ؛ اُحتراماً مبنيًّا على أداءِ الواجبِ على الوجهِ الأكمل . وإذا اُعتاد الشخْصُ اُحترَامَ نفسِه اُحترَامًا بعيداً عن العُجْب ، فإنَّ حبَّ الظهورِ يَضعُف

---

(١) Jean Jacques Rousseau (١٧١٢ — ١٧٧٨ م .) هو مرب من أكبر فلاسفة التربية وعلماء الاجتماع فى القرن الثامن عشر . ويعد كتابه : (إميل) أكبر ذخيرة فى التربية ، يرجع إليها المربون فى كثير من الأمور حتى يومنا هذا . وهو من الكتب التى ترجمت إلى معظم اللغات الحية ، وعسى أن يترجم إلى اللغة العربية ترجمة دقيقة . ويمكنك أن تطلع على آراء (روسو) فى كتب تاريخ التربية إذا شئت .

تدريجيًّا ، ويُصْبِحُ احترامُ النفسِ مع التحلِّي بالكمال كطبيعةٍ ثانيةٍ لِلشخص .

وإذا قلنا باحترام النفس ، فمعنى ذلك أن نُعطىَ أنفسَنا حقَّها ، ونقدرَها حقَّ قدرها . ولكن ليس معنى ذلك أن نُفكرَ فى أنفسنا أكثر مما ينبغى ، أو أن نرفعَها فوق منزلتها ، أو أن نعطيَها أكثرَ مما تستَحق .

(٤) **ومن مضعفات الشخصية تحكُّم ميولِ الشخص فيه** ، وعجزُه عن ضبطِ تلك الميول ، فيثورُ وَيَهيجُ ، ويبتدئُ اليومَ عملا ويتركه غداً . ويفكرُ اليومَ فى مشروع ، وغداً فى آخر . ومثلُ هذا الشخصِ عادةً نشيطٌ ، وليس بكسلانَ ولا ضعيف الإرادة ، ولكنه فى حاجة إلى التربيةِ ؛ تربية الميول ، وضبطِ انفعالاتهِ ، وتوجيهِ همتِه نحوَ مشروعٍ من المشروعات ، وعدمِ تركهِ إلا بعدَ الانتهاء منه .

الفصل السابع عشر

الصفاتُ الكمالية للشخصية

الآنَ وقد تكلمنا عن ماهيةِ[1] الشخصية، وتعريفِها، والاختلافِ فيها، والعناصرِ الأساسيةِ التى تُبنَى عليها، وأنواعِها، ووسائلِ تقوية الشخصية العملية، والصفاتِ التى يجب أن تتحققَ فى الشخصيةِ الفكرية الخُلُقية، نريد أن نذكرَ الصفاتِ الكماليةَ للشخصيةِ على العموم، وهى كثيرةٌ، منها.

(١) الذاتيةُ أو الاستقلالُ الذاتى[2].

(٢) الإخلاص[3].

(٣) الحماسةُ أو شدةُ الغيرةِ والإقدام[4].

(٤) قوة الوجدانِ أو الإحساس[5]. ولنتكلمْ عن كل منها فنقول:

(١) الذاتية أو الاستقلال الذاتى

الذاتيةُ هى أهمُّ صفةٍ من الصفاتِ الكمالية للشخصية. وقد عُرِّفت بأنها:

---

(١) حقيقة.
(٢) Individuality.
(٣) Sincerity.
(٤) Enthusiasm.
(٥) Sensibility.

مجموعةُ الصفاتِ العقليةِ الخاصةِ بالفرد . وتختلف هذه المجموعةُ باختلافِ الأفراد ؛ فقد تكون كبيرةً لدى بعضِ الأشخاص ، صغيرةً لدى بعضِهم الآخر .

وتختلف الشخصيةُ [١] عن الذاتيةِ فى أن الأُولَى أعمُّ من الثانية ؛ لأن الشخصيةَ تَشْمَلُ الصفاتِ العقليةَ والعمليةَ والجسميةَ والروحيةَ أو الخُلقيةَ الخاصةَ بالفَرد ، بخلاف الذاتيةِ فإنها عنصرٌ هامٌّ من عناصرِ الشخصية يتعلق بمجموعةِ الصفاتِ العقلية للفرد ليس غيرُ .

وإننا نشعرُ بالملكيةِ الذاتيةِ فى نسبةِ الشيء إلى الفَردِ أو الأفراد ، فنقول : هذا كتابِى ، وذاك كتابُه ، وهذا كتابكم ، وذلك مستشفَى الجمعيةِ الخيرية ، وتلك مدرسةُ الطائفةِ الإسرائيلية ، وهذه جماعةُ الشبان المسلمين أو المسيحيين ، وهكذا . ولكل إنسانٍ طريقةٌ خاصةٌ وأفكارٌ خاصة فى الحياة يمتاز بها من غيره .

ومن الأسباب التى أدَّتْ إلى فشلِ كثيرين فى الحياةِ أنهم لا يستقلون بأنفسِهم فى تفكيرِهم ، بل يعتمدون على غيرِهم ، ويقلدونهم فى أقوالهم وأفعالهم وآرائهم ، ويتشبَّهون بهم فى كل شيء ، فيَفقِدون استقلالهم الذاتىَّ ، وتندمجُ شخصيتُهم فى شخصيَّةِ سواهم حتى تضعُفَ .

---

(١) Personality.

فينبغى أن يبذلَ الإنسانُ جهدَه فى أن يعتمدَ على نفسه ، ويستقلَّ فى تفكيره بطريقتهِ الخاصةِ ؛ فالأشياء التى يصلُ إليها بفكرِه الخاصِّ خيرٌ من الأشياء التى يقلدُ فيها غيرَه . والأمرُ الذى يقوم به بنفسهِ يمكنه أن يقومَ به خيرَ قيام .

أما العوامل التى تمتاز بها الذاتية فهى :

(١) **الصراحة وعدم الالتواء فى الفكر والقول والعمل :**

يُراد بالصراحةِ إظهارُ ما فى النفسِ بغيرِ التواءٍ أو اعوجاج أو لفٍّ بعيد[1] بحيث تكون أفكارُ الإنسان ظاهرةً ، وأقوالهُ واضحة ، وأعمالهُ تتفق مع أقواله ، يقولُ ما يعتقد ، ويعتقدُ ما يقول ، ولا يُلقِى القولَ على عواهنه[2] ، ولا يترددُ فيما يقول . لا يُثبِتُ اليومَ شيئاً ثم يَنفِيه غداً . إذا تكلمَ كان كلامهُ عن عقيدة ، يدل على سدادِ رأيٍ ، وحسنِ تفكير ، وتقديرٍ للنتائج . قال المرحومُ سعدُ زغلول باشا : « قد عاهدتُ اللهَ منذ نشأتُ على أن أصرِّحَ بما فى ضميرى ، وهذه هى لَذّتى فى حياتى » .

---

(١) قال صاحب المصباح : صرُح الشيء بالضم صراحة : خلص من تعلقات غيره فهو صريح . وكل خالص صريح ، ومنه القول الصريح وهو الذى لا يفتقر إلى إضمار أو تأويل . . وقال صاحب القاموس : التصريح خلاف التعريض ، وتبيين الأمر .

(٢) لم يبال أصاب أم أخطأ .

وإن كثرةَ الترددِ فى الرأى والقولِ والفعلِ تقللُ من شخصيةِ الإنسانِ ومنزلتِهِ ، وكثيراً ما تعوقُه عن النجاحِ فى الحياةِ العمليةِ والاجتماعيةِ ؛ كأن يطالبَهُ رئيسُه بإبداءِ رأيه فى شأنٍ من الشئون ، فيختلطُ عليه الأمر ، ويضطربُ عقلُه ، وتضطربُ أفكاره ، وتكونُ غامضةً . وهو فى هذا الموقفِ لا يحتاج إلى أكثرَ من أن يفكرَ فى الأمرِ مليًّا[1] ، ثم يبدى رأيه بعبارةٍ مُوجَزة واضحةٍ ، قويةٍ ، مؤثِّرة ، ولا يخرج عن الموضوع .

والناسُ عادة يحبون أن يُصغُوا إلى ما نقول ، وأن يشاركونا فى شعورنا إذا كان ما نقولُ يستحقُّ الإصغاء ؛ كأن تكونَ الأفكارُ سديدةً ، والعبارةُ واضحةً خاليةً من الخطأ ، ويكون الأسلوبُ مؤثِّراً جذاباً . أما إذا كانت الأفكارُ معدومةً أو عقيمةً ، أو ملتويةً معوجّةً ، أو فِجّة غيرَ ناضجة ، ثم عُبِّرَ عنها بلغةٍ غامضةٍ مملوءةٍ بالأخطاء ، أو بعبارةٍ ركيكةٍ معقّدة ، فلا عجبَ إذا نفَرَ السامعون ، وقلَّ إصغاؤُهم وانتباهُهُم ، وأخذوا فى التلهِّى عن المتكلم .

ولا تَلُمْهم إذا انصرَفوا عنه حِرصاً على وقتِهم . وإذا مكثوا ولم ينصرفوا فما ذلك إلّا محافظة على آدابِ الاستماع . ومن السهل

---

(١) ساعة طويلة من النهار .

أُكتسابُ قلوبِ المستمعين بالأفكارِ الصائبة ، واللغةِ السَّلِسةِ السهلةِ الصافية ، الخاليةِ من الغموضِ والتعقيدِ والالتواء ، وبالأسلوبِ الجذاب والإلقاءِ الحسن .

أخبرَ بعضُ الأدباءِ قال[١] : ما رأيت رجلا عُرِض عليه الموتُ فلم يكترثْ له إلّا تميمَ بنَ جَميلٍ الخارجيَّ . كان قد خَرجَ على المعتصِمِ ورأيتُه قد جيءَ به أسيراً . فدخل عليه في يومِ مَوكِبٍ[٢] وقد جلس المعتصمُ للناس مجلِساً عامًّا ، ودعا بالسيف والنِّطع[٣] . فلما مثَلَ بين يديه نظرَ إليه المعتصمُ ، فأعجَبه شكلُه وقَدُّه[٤] ومشيتُه إلى الموتِ غيرَ مُكترثٍ له. فأطالَ الفِكرةَ فيه ، ثم أستنطَقه[٥] لينظرَ في عقلِه وبلاغتِه ، فقال : يا تميمُ إن كان لكَ عذرٌ فأْتِ به .

فقال : أمَّا إذْ أَذِنَ أميرُ المؤمنين (جبَر اللهُ به صَدْعَ[٦] الدين . ولَمَّ شعثَ[٧] المسلمين . وأخمَدَ شِهابَ الباطلِ . وأنارَ سُبُلَ الحقِّ) — فالذنوبُ يا أميرَ المؤمنين تُخرِسُ الألسِنةَ ، وتَصْدَعُ الأفئدةَ .

---

(١) من كتاب ثمرات الأوراق للحموى .

(٢) الموكب : بابة من السير ، وهو أيضاً القوم الركوب على الإبل للزينة ، وكذلك جماعة الفرسان .

(٣) بساط من جلد .　(٤) القَد : القامة .

(٥) كلَّمه .　(٦) الشق .　(٧) جمع أمرهم .

وأيمُ اللهِ(١) قد عَظُمتِ الجَرِيرةُ(٢) ، وأنقطعت الحُجةُ ، وساء الظن ، ولم يبق إلَّا العفوُ أو الانتقامُ . وأميرُ المؤمنين أقربُ إلى العفوِ وهو أليَقُ شيَمِهِ الطاهرة . ثم أنشد :

أرَى الموتَ بين السيفِ والنطعِ كامناً
يُلاحِظُنى من حيثُ ما أتَلفَّتُ
وأكبرُ ظَنِّى أنكَ اليومَ قاتِلِى
وأىُّ أمرِئٍ مما قضَى اللهُ يُفلِتُ
ومن ذا الذى يأتِى بعُذرٍ وحُجةٍ
وسيفُ المنايا بين عينيهِ مُصلَتُ(٣)
وما جَزعِى من أن أموتَ وإننى
لَأَعلمُ أنَّ الموتَ شىءٌ مُوَقَّتُ(٤)
ولكنَّ خَلْفِى صِبيةً قد تركتُهمْ
وأكبادُهمْ من حَسرةٍ(٥) تتفتَّتُ
كأنِّى أراهمْ حين أُنعَى(٦) إليهم
وقد لَطَموا تلكَ الخدودَ وصَوَّتوا

(١) صيغة قسَم . (٢) الجناية .
(٣) بارز . (٤) له وقت .
(٥) الحسرة : أشد التلهف على الشيء الفائت .
(٦) النعى : خبر الموت .

فإن عشتُ عاشُوا سالمينَ بغبطةٍ[1]

أذودُ[2] الرَّدَى[3] عنهمْ وإن مُتُّ مُوِّتوا

قال فبكَى المعتصمُ وقال : إنَّ من البيَانِ لسحراً . ثم قال : كادَ واللهِ يا تميمُ أن يَسبِقَ السيفُ العَذَلَ[4] ، وقد وَهبتُكَ للهِ ولصِبْيتِك . وأعطاه خمسين ألفَ دِرهم .

(٢) حب المسئولية وعدم الفرار منها :

إن حبَّ المسئوليةِ وعـدمَ الفرار منها يَنْشَئان عن الثقةِ بالنفس . وقد لُوحِظ أن الأفرادَ الأمناءَ الذين يستحقون أن يتحمَّلوا المسئوليـةَ يَفِرُّون منها . وأن الأفرادَ الذين لا يَستحقون الثقةَ بهم يُحبون تحملَها . وهـذا خطأٌ فى كِلتا الحالتين . وإننا الآن لا نتكلمُ عن هؤلاء الذين يَزُجُّون بأنفسِهم فى أشياءَ ليسُوا أهلاً لها ، ويقفون فى مواقفَ غيرُهم أوْلَى بها ، بل نتكلمُ عن أولئك الذين مَنَّ اللهُ عليهم بالمقدرةِ الطَّبَعِية ، والكفايةِ فى القدرةِ على القيامِ بالعملِ ، ولكنهم يَميـلون إلى الفِرارِ والتباعُدِ عن هذا العملِ .

وهذا الفِرارُ فى كثيرٍ من الأحوال دليلٌ على ضَعفِ الذاتيـةِ أو

---

(١) سرور . (٢) أدفع . (٣) الهلاك . (٤) العذل : الملامة .

ضعف الاستقلال الذاتى ، ودليلٌ على الخوف أيضاً : الخوف من النتائج والظروف ، والخوف من غيرهم ، فهم ضحايا الخوف ، الخوف حتى من أنفسهم .

وأنت تعلمُ أن تَحَمُّلَ المسئوليةِ قد يُعَرِّضُ الإنسانَ للخطرِ . ولكن بماذا تَجتذبُ قلوبَ الناسِ ؟ إنك تَجتذبُهم بالإقدامِ ، وعدمِ الفِرارِ من المسئولية ، والتَّعرضِ للأخطار .

قد تَفِرُّ من الشيء خوفاً من نَقْدِ الناقدين ، وحَسَدِ الحاسدين ، ومُنافسةِ المنافسين ، ولكن ماذا يَهُمُّك من هؤلاء ؟ ولِمَ تَعْبَأُ بهم ما دُمتَ مخلصاً لله ، مُرْضِياً ضميرَك ؟ إن من المحالِ أن تُرضِيَ الناسَ جميعاً ، فإرضاء الناسِ غايةٌ لا تُدرَك . ولن تَعدَمَ أن تجدَ بجانبِ هؤلاء الحاقدين ، المَرْضَى فى نفوسهم ، كَثيرِينَ من المخلصِين الذين يُقدِّرُون من يستحقُّ التقديرَ ، ويَثِقون بمن يَستحقُّ الثقةَ ، فيعترِفون بفضلِك ، ويُقِرُّون بمقدرتِك . وهذا أكبرُ مُشَجِّعٍ أدبيٍّ للإقدام ، وعدمِ الخوفِ من المسئوليةِ .

فالمسئوليةُ تجعلُ القويَّ أقوَى ، وتُصيِّرُ الضعيفَ أضعفَ ، فينبغى ألا تعطَى إلّا مَن يَستَحِقُّها .

(٣) الصبر :

الصبرُ فضيلةٌ تمكِّنُ العقلَ من القيامِ بوظائفه العقليةِ فى هُدوءٍ وثَبات ، وتُنقِذُه من الاضطراب عندَ الشدائد ، وتجعلُ الإنسانَ هادئاً ، رزيناً ، بَعيداً عن الطيشِ والاندفاعِ فى الأشياء من غيرِ تفكيرٍ فى العواقب .

وقد سأل (وِليام بِتْ[1]) ذاتَ مرةٍ : « ما أهَمُّ صفةٍ يجب أنْ يتصفَ بها رئيسُ الوزارةِ ؟ »

فأجاب أحدُ الحاضرين : « الفصاحةُ » . وقال آخر : « العلمُ » ، وقال ثالث : « الجِدُّ فى العمل » . فقال (وِليام بِتْ) : « إن أهمَّ صفةٍ يجب أن يتصفَ بها رئيسُ الوزارة هى الصبرُ » . والحقُّ أن الصبرَ ضروريٌّ لا للرؤساءِ فحسْبُ ، ولكنْ للمرءوسِينَ العاديِّين أيضاً .

وقد كان خالدُ بنُ الوليدِ يَسيرُ فى صفوفِ الحرب ، ويُشجِّعُ الناسَ ويقول لهم : يا أهلَ الإسلامِ ! إن الصبرَ عزٌّ ، وإن الفشلَ عجزٌ ، وإن النَّصْرَ مع الصبر .

وقد سأل عُمَرُ بنُ الخطابِ رضى الله عنه بَنِى عَبْسٍ : كيفَ كنتم

---

(١) William Pit (١٧٥٩ — ١٨٠٦م) : كان من أكبر السياسيين من الإنكليز المعروفين بالخطابة وحسن البيان .

تَقهَرونَ من نَاوَأَكم(١) ، وَلسْتُم بأكثرَ منهم عدَداً ولا مالاً ؟ فقالوا : كنا نَصبرُ بعد اللِّقاء (لقاء الجيش) هُنَيْهَةً(٢) .

وقال علىٌّ كرَّم الله وجهه : « الصبرُ مطيةٌ لا تَكْبو(٣) ، وسيفٌ لا يَنْبو(٤) » .

والجَزَعُ معناه العجزُ عن ضبطِ النفس ، والفشلُ فى وجهِ القوة والحَمِيَّةِ والحرارةِ — التى تُسَيِّرُ العقلَ نحوَ النصرِ والظَّفَر — ومعناه الخيبة فى العمل . والشخصية القويةُ تتنافَى مع الجَزَعِ وعدمِ الصبر . وكما أن الصبرَ يؤدِّى إلى النجاح ، فالجزعُ يؤدِّى إلى الفَشلِ فى كلِّ شىء . ولا توجد العظمةُ بين الرجالِ إلا حيثُ يُوجَدُ الصبرُ . والضعيفُ الصبورُ قوىٌّ بصبره ، والقوىُّ الجزِعُ ضعيفٌ بجزَعِه . وإذا وُجد الصبرُ أُرْسِلَتْ أَشِعَّةٌ من النورِ إلى الشخصِ فيثقُ بنفسه ، ويجتهدُ فى إيجادِ جَوٍّ للفوز والنجاح فى العمل . وإذا ذهَبَ الصبرُ ذهبت الراحةُ والهدوء ، واُضطربَت النفسُ ، وقَلِقَ الفكر .

فينبغى أن يتحلَّى الإنسانُ بالصبر ، ويَشتغلَ بقَدْر طاقتِه ، وينتفعَ بالظروفِ التى تمرُّ به ؛ كى يصلَ إلى غرضه ، ويُبرِّرَ وجودَه فى هذه

(١) ناوَأه مُناوأَةً ونِوَاءً : عاداهُ . يقال : إذا ناوأْتَ الرجال فاصبر .
(٢) وقتاً يسيراً . (٣) لا تسقط . (٤) لايخيب .

الحياة . وإن الصبرَ مع الضعفِ أقوَى وأشدُّ أثراً من الجزعِ مع القوة . والمثابرةُ على العملِ مع عـدمِ المبالاةِ بالنتائج أحسنُ وسـيلةٍ للفوزِ والانتصارِ فى كل عملٍ من الأعمال .

قال صلى الله عليه وسلم : « الصبرُ نِصفُ الإيمان » ، وقال أيضاً : « إذا ثبَتَّ أصَبْتَ أو كِدْتَ تُصِيبُ ، وإذا اُستعجَلْتَ أخطأتَ أو كِدْتَ تُخطِئُ » .

وقال المسيحُ عليه السلام : « إنكم لا تدرِكون ما تُحِبون إلَّا بصبرِكم على ما تكرَهُون » .

وقال عليٌّ كرم الله وجهَهُ : « الصبرُ من الإيمانِ بمنزلةِ الرأسِ من الجسدِ . ولا جسدَ لمن لا رأسَ له . ولا إيمانَ لمنْ لا صبرَ له . وقال أيضاً : لا يعدَمُ الصبورُ الظفرَ وإن طالَ به الزمانُ .

وقال الإمام المرحومُ الشيخ محمد عبده : « الصبرُ خلُقٌ من أمهاتِ الأخلاق ، بل مِساكُ كلِّ خُلُق » .

وَلْنتمثلْ (بإسحق نيُوتن) الفيلسوفِ الإنكليزىِّ الكبير (١٦٤٢—١٧٢٧م .) والعالِمِ العظيم ؛ فإنه ما كانَ ذا قريحةٍ[1] وقادة ، وذكاءٍ حادٍّ فى مدرسته ، بيْدَ أنه عُرِفَ بالصبرِ والجِد ، ومَضاءِ[2] العزيمة ،

(١) الذكاء والقدرة على استنباط العلم . (٢) قوة .

حتى لقد أنّبه معلّمه مرةً فغضب وقال : « يا سيدى إنّى وإن كنتُ عاجزاً لستُ مُقصّراً ، وثِقْ بأنى قد بذلتُ كلَّ جُهدِى فى استذكارِ دروسى » .

ولقد سُئِلَ (نيُوتن) مرةً : كيف أستنبطْتَ كلَّ هذه المستَنبطَاتِ الغريبةِ ؟ فأجاب : بالتأمل المستمرِّ فيها ؛ فقد كنتُ أضَعُ الموضوعَ نصبَ عينى ، وأثابِرُ على مزاولتِه وعلاجِه ، حتى يَبْزُغَ ضَوءُه ، ويصيرَ نوراً ساطعاً . ومن أقوالِه المأثورة : « إن كنتُ قد أديتُ للعالَمِ خدمةً فباجتهادى وجَلَدى[1] » .

وفى المَثَلِ الإنكليزىِّ : « الحجرُ المتدحرِجُ لا ينْبُتُ عليه العُشْبُ » . وفى المثلِ الفَرنسِىِّ : « النبوغُ صبرٌ طويل » . والحقُّ أن أعظمَ هِبةٍ طَبِيعيَّةٍ مُنِحَها الإنسانُ هى الصبرُ ؛ فبالصبرِ والمثابرةِ يَصل الإنسانُ إلى مُبتَغاه ، وبالجزعِ وضعفِ العزيمةِ يَفشَلُ فى عملِه مهما أوتىَ من ذكاء .

(٤) المثابرة : Determination

إن المثابرةَ وقوةَ الإرادةِ من أَهمِّ صفاتِ الشخصيةِ العظيمةِ . وممن عُرِفوا بالإرادةِ الحديديةِ خالدُ بنُ الوليد ، والإسكندرُ المقدونىّ ، ونابُليُون بُونابرث ، وجُورج واشِنْطون ، والزعيمُ الخالدُ الذكرِ سعدُ

(١) الصلابة والصبر .

زغلول باشا ، وكثيرٌ غيرُهم من العظماء ، ومنهم السير (فوول بَكْستُون[١]) الذى بَذلَ جُهداً عظيماً فى حركةِ تحريرِ الأرقّاء فى أيام (وِلْبَرْفُورْس[٢]) ؛ فقد كان (بَكستُون) لا يَعرِف الرجوعَ إلى الوراء . ومن نصائحه المأثورةِ عنه للقراء :

(ا) لا تتركْ كتاباً تقرؤُه حتى تُتمّه .
(ب) لا تَظن أنك قد أنتهيتَ من الكتاب إلا إذا فهمتَه جيداً .
(حـ) حَكِّمْ عقلكَ فى جميع ما تقرأ .

وفى نهاية حياته التى لم يشعرْ فيها براحةٍ قال : « إنى واثقٌ بأن الفرقَ العظيمَ بين الناسِ قويِّهم وضعيفِهم ، عظيمِهم وحقيرِهم ، فى النشاطِ ، وقوّةِ العزيمة ، وتحديدِ الغَرض ، ثم النصر أو الموت » .

وحيثما وُجدت الإرادةُ الحديديةُ وُجدت قوةُ الشخصيةِ . ولا يكفِى أن تقولَ : أريدُ أن أكونَ كذا ، أو أحبُّ أن أفعلَ كذا ، أو أرغبُ فى كذا ، بل يجبُ أن تكونَ الإرادةُ قويّةً ، والعزمُ شديداً ، والرغبةُ كبيرةً ، ثم تُصحَب هــذه الرغبةُ بعزيمةٍ ثابتةٍ لا تعرفُ الضعف ، وهمةٍ عظيمةٍ تستلذُّ التعبَ ، وتثـابر فى عملك حتى تنجحَ فى الوصول إلى أُمنيَّتِك . وإنك لا تستطيعُ أن تنتفعَ بالحديد وتُصوِّرَه

---

(١) Sir Fowell Buxton.   (٢) Wilberforce.

كيف شئتَ إلّا إذا كانَ مصهوراً شديدَ الحرارة . فإذا ما تركتَهُ حتى أصبح بارداً فمن الصعب أن تُكوِّنَ منه شيئاً .

وبمعرفةِ الشيء، وإدراكِ نتائجِه، يمكنُ تحريكُ العاطفةِ، وإظهارُ القوّةِ، وتقويةُ العزيمةِ والإرادة، فينظرُ الإنسانُ إلى الأمام، ويعملُ إلى النهاية، غيرَ مُبالٍ بالخطر مادام يعتقد فى الفوز والنجاح، والوصولِ إلى الغرض . ولن يؤثرَ فيه مدحٌ أو ذمٌّ متى شعَر فى نفسه بأنه إذا عَزَمَ على شىء فلن يستريحَ حتى يُحقِّقَه وينتصرَ عليه .

قال أبو جعفر المنصور :

إذا كنتَ ذارأيٍ فكُنْ ذَاعزيمةٍ * فإنَّ فسادَ الرأيِ أن تترددَا

وقد أمر الإسكندرُ المقدونىُّ أحدَ قوّادِه بالإغارةِ على حِصنٍ أمنعَ من عُقاب الجو، فخالفه القائدُ قائلًا : يا سيدى إن ذلك مما لا يُستطاع . فصاحَ الإسكندرُ فى وجهه مُغْضَبًا : « لا شىءَ فى العالَمِ محالٌ على مَن يبذُلُ جُهداً، ويُمضِى عزمًا » . ولم يَمْضِ إلا قليلٌ حتى أخضعَ الإسكندرُ عدوَّه، ودمَّرَ حصونَه، وأذلَّ حُماته .

وكان نابليونُ إمبراطورُ فرنسا (١٧٦٩ — ١٨٢١ م.) يكره من الكلماتِ ثلاثًا : « لا أعرف — لا أستطيع — محال » . فكان جوابُه عن الأولى : «تعلَّمْ» . وعن الثانية : «حاوِلْ» . وعن الثالثة : «جَرِّبْ»

الفصل الثامن عشر

(ب) الإخلاص Sincerity

الإخلاصُ هو الصفاء ، هو الصدقُ في القولِ والعمل ، هو المروءة ، هو أن تعملَ في السِّرِّ ما لا تَسْتَحْيي منه في العلانية ، هو البعدُ عن الكذب والرياء والنفاق . يقول الشاعرُ العربيُّ :

فَسِرِّي كإعلانِي ، وتلك خَلِيقَتِي * وظُلمةُ لَيلِي مثلُ ضوءِ نَهاريا

وهذا هو الإخلاصُ عينُه ، وهو روحُ الشخصية . وإذا قيل إن فلاناً أبيضُ القلب ، صافِي السريرة ، صادقٌ صريحٌ في قوله ، فاْعتقدْ أنه مخلصٌ ، وأن له شَخصيةً جذّابةً .

فالإخلاصُ يُظْهِرُ العقلَ حقيقةً من غير زيادةٍ أو نقص أو مبالغةٍ أو رياءٍ أو كذب . وحينما يَنتفِي الإخلاصُ يُحاوِلُ العقلُ أَنْ يُخْفِيَ حقيقتَه ، فيغير الحقائقَ عمداً أو عن غير عَمد ، ويجعلُ الحقَّ باطلًا ، والباطلَ حقًّا ، والبعيدَ قريبًا ، والقريبَ بعيداً . وليس هذا من الإخلاص في شيء .

وللإخلاص أثرٌ كبيرٌ في شخصيةِ الإنسان ، وفي نجاحِه في عمله ، وفي حياتهِ العلميةِ والاجتماعية والاقتصادية . ولا أحدَ يستطيع أن ينجحَ

إلى النهايةِ بالغشِّ والكذبِ وَالخيانة . وإن الذين يَلجئون إلى هذه الدنايا المنافيةِ للإخلاصِ يَخسرون أكثرَ مما يَربحون . ومن المحالِ تأسيسُ عملٍ عظيمٍ من الأعمال إلا عَلَى أُسُسٍ قويةٍ من الصدقِ والأمانةِ والإخلاص والجِد . وقد نَغُشُّ بعض الأفرادِ مدةً من الزمن ، ولكننا لا يمكننا أن نَغُشَّ الجميعَ ونُضِلَّهم ونُضَلِّلَهُم إلى النهاية .

وما الأسماء العظيمة والجماعاتُ الكبيرةُ المحترمة ، والشركاتُ التِّجاريةُ المشهورة ، والمصارفُ الموثوقُ بها إلّا أثرٌ من آثار الإخلاص والأمانةِ والصدق فى المعاملة . وإذا ذهبَت الأمانةُ ، وهى روحُ الإخلاصِ ذهبَتْ هذه الأسماء والجماعاتُ والشركاتُ والمصارف ، وأصبحتْ فى خبرِ كان .

يقول (إِمَرْسُون) الأمريكىُّ : « إن الشرطَ الأساسىَّ للنجاح فى العملِ هو الغَيْرةُ على العمل . والغَيرةُ نتيجةُ الإخلاص » . وإن عدمَ إخلاصِنا يُقلِّلُ من ثِقَتِنا بغيرنا ؛ فاللصُّ يعتقد أن الناسَ جميعا لصوص ، والخائنُ يعتقدُ أنه كغيره من الناس ، وأنهم كلَّهم خَوَنة . والمجرِمُ يظن أن الكلَّ مجرمٌ مثله . وفى الوقت الذى يرتكب فيه الشخصُ عمداً خطيئةً من الخطايا يعتقد فى هذه الخطيئة ، ولا يثق بغيرها .

وتَظاهرُ الإنسانِ بغير الحقيقةِ ينشأ عن عدم الإخلاص ؛ لأنَّ فيه

تشويهاً للحقائق ، وتضليلاً لغيره بالكذب حيناً ، والمبالغةِ الممقوتةِ حيناً آخرَ . وإذا عُرِفتْ حقيقةُ المتظاهِرِ — وسَرعان ما تُعرَف — واُتضح أمره ، شَكَّ الناسُ فى كلامه ، وقَلَّتْ أو فُقِدَتْ ثقتُهم به . ومتى فقدَت الثقةُ بالشخص ضاعتْ شخصيتهُ . ولا يتظاهرُ بالعلم — كما قلنا — إلَّا من يَشعُر بالجهل . ولا يتظاهرُ بالغِنَى إلا الفقراء . ولا يدَّعِى القوةَ إلا الضُّعَفاء . وإذا اُستطاع الإنسانُ أن يَخدعَ الناسَ جميعاً فإنه لا يستطيع أن يخدَع نفسه . وإذا ضاعت ثقتُه بنفسِه فمن المحالِ أن يشعُرَ بالقوة .

يقول (مَارْك رَذَرْفُورْد)[1] : « إنه لا يوجدُ إنسان كلُّه رياء أو كلُّه إخلاصٌ ؛ فنحن جميعاً مُرَاءُونَ فى كلِّ أقوالنا ، وفى كل أفعالنا ، وفى جميع أفكارنا . أما الإخلاصُ فيتوقفُ على طبيعةِ الشخصِ ؛ بمعنى أنه إن كان لديه ميلٌ فطرىٌّ للإخلاص ، فمن الممكن أن يكونَ مخلصاً بعضَ الإخلاص ، لا الإخلاصَ كلَّه » .

وإننا نأسَف إذا قبلنا هذا القولَ كما هو من غير أن يُذكَرَ لنا دليلٌ يُثبته . ولكننا نُسَلِّم بأن الإخلاصَ نادر ، وأن المخلصينَ قليلون ، ونعترفُ بأنه قوةٌ جذابةٌ ليس فوقها قوة . ولهذا القائلِ العذرُ فيما قال ؛

(١) Mark Rutherford.

فالحياة مملوءةٌ بالمخجلات من الرياء والكذبِ والنفاقِ والغشِّ والتضليل والنقائصِ المضادَّةِ للإخلاص .

ومن العظمةِ النفسيةِ أن يكونَ الإنسانُ مخلصًا ، وفيًّا ، أمينًا في قوله وعمله . ومن الإخلاص أن يكونَ الإنسانُ صريحًا يقول ما يعتقد بكل أمانةٍ وشجاعة . ولكن كم يُقاسِي الشخصُ في سبيل الصراحة ؟ وأين المكانُ أو الزمانُ الذي يَسْمَحُ بالصراحَةِ ، الصراحَةِ في إبداءِ الرأيِ ؟ إننا لا نقول كلَّ ما نعتقد ، ونحنُ ضحايا البيئةِ والعاداتِ . وإننا في سَيرِنا وأحوالِنا نَعملُ عَلَى ألاَّ نُخالفَ البيئةَ التي نَعيشُ فيها ، والعاداتِ التي رُبِّينا عليها . ولكن ما ثمنُ هذا ؟ الثمنُ هو تشويهُ الشخصيةِ الإنسانيةِ ، وإضعافُ نفوذِها أو تأثيرِها الشخصيِّ . وكيف يمكنُ أن نُؤَثِّرَ في الناس ، ونمتلكَ قلوبَهم ، ونكتسبَ احترامَهم ، ونتمتعَ بثقتِهم إذا سِرْنا وراءَ الستار ، ولم نَقِفْ أمامَ إخوانِنا وأبنائِنا بأنفسِنا الحقيقية ؟ كيف نحصلُ على ثقتهم أو نؤثرُ فيهم إذا قلنا ما لا نعتقد ، واعتقدنا ما لَمْ نَقُلْ ، وكنا غيرَ مخلِصين ؟

ففي عدمِ إخلاصِنا ظلمٌ لأنفسِنا ، وظلمٌ لغيرِنا ممن يتصلون بنا ، من أبناءٍ وأقاربَ وأصدقاءَ وغيرِهم . وهو إذا وُجِد في الجواهِرِ النفيسة عُدَّ نقصًا كبيراً . وإذا حُرِمَ الإنسانُ الإخلاصَ فقد حُرِمَ أكبرَ قوةٍ

جاذبيةٍ وجمالٍ طَبَعِيّ في الحياة الإنسانية .

قال المرحومُ سعدُ زغلول باشا وهو وكيل الجمعيةِ التشريعية : « لاعيبَ فينا في الرجوعِ إلى الحقّ متى ظهَر لنا ؛ لأننا ما جئنا هنا لندافعَ عن أنفسِنا ، بل لندافعَ عن الحقّ ونؤيدَه » .

وقد وضّحَ (جون بَنْيان) في كتابه الثمين : « نجاحِ الحاجِ[1] » ما كان عليه أهلُ عصرِه من غشٍّ وخِداعٍ ورياء . ذَكرَ أنه قد زاره في سجنِه أحدُ المدَّعِين من جماعة الأصدقاء[2] ، وأخبره أنه أحضرَ له رسالةً من الله ، واعتـذَر له عن التأخيرِ في تسليمِها بأنه زار نصفَ سُجونِ انجلترا وهو يبحث عنه ، وأنه مسرورٌ كلَّ السرور للعثورِ عليه أخيراً . فأحسَّ (بَنْيان) في الحال عدمَ إخلاصِ هذا الرجلِ الكاذب ، فقال له : « لو كنتَ مُرْسَلاً من عندِ الله ما كنتَ في حاجةٍ إلى هـذا التعبِ في البحثِ عنّي في جميعِ السجون ؛ لأنه يعـلم أنني في سجنِ (بِدْفورْد) منذُ سبعِ سنينَ مَضَت » .

وبإخلاصِ (بَنْيَان) اكتسبَ كثيرًا من تقديرِ الجمهور له .

---

(١) The Pilgrim's Progress تأليف John Bunyan . وقد كتب « بنيان » كتباً عدة وهو في سجنه ، أشهرها الكتاب المذكور ، وقد ترجم إلى معظم لغات العالم .

(٢) The Society of Friends.

ومما يساعدُ عَلَى الإِخلاص :

(١) الدقةُ فى القولِ تدقيقنا فى النقود ؛ فأقوالُ الإِنسانِ هى المرآة التى يُرَى منهَا عقلُه . ومن العيوبِ الشائعةِ التهَاوُنُ فِى أستعمالِ الكلمات وأدِّعاؤُنا معرفةَ أشياءَ قد نجهلُها .

(٢) الدقةُ فى التفكير ؛ فَنزِنُ ما نقولُه بِميزانِ الحقيقةِ خدمة للحقيقة ، ونذكرُ ما نعتقدُ بكلِّ شجاعةٍ وأمانة .

وإِننا لا نتطلَّبُ الإخلاصَ فى القول فحسْبُ ، بل نتطلبُ أيضاً الإخلاَصَ فى الكتابةِ ، والإخلاصَ فى الفعلِ ؛ حتى لا نخدَعَ أَنفسَنا ، ونضللَ غيرَنا .

والإِخلاَصُ يَستدعِى إظهارَ الحقيقةِ كما هى ، مع الدقةِ فى التفكيرِ والقولِ والكتابة ؛ فلا نقولُ إلَّا ما نعتقِد ، ولا نمدحُ إلا من يَستحقُّ المدح ، ولا ننقُدُ إلا من يَستحِقُّ النقد ، ولا نحكمُ إلا بما تُمليه علينا ضمائرُنَا ، ولا نستعملُ الظروفَ والصفاتِ وأفعلَ التفضيل إلا بكل حكمةٍ ودقةٍ فى التعبير .

فكما تجبُ الدقةُ فى العُملَةِ كذلك تجبُ الدقةُ فى الكلام ، بحيث يتفق منطقُ الرجلِ مع عقله ، وعقلُه مع منطقِه ، وقولُه مع تفكيرِهِ ،

وتَفَكيرُهُ مع قوله . ولنتذكرْ دائمًا أن الكلامَ إذا خرجَ من القلب وقعَ فى القلب ، وإذا خرجَ من اللسَان فإنه لن يجاوزَ الآذان . ولْنعملْ بمـا نقولُ حتى لا نوصَفَ بالرياء والتضليل ؛ قال تعالى : « كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَالَا تَفْعَلُونَ » . وقال الله لعيسى عليه السلام : « يا ابنَ مرْيَمَ عِظْ نفسَك ، فإن اُتَّعظتَ فعِظِ الناسَ ، وإلَّا فاستَحِ مِنِّى » .

الفصل التاسع عشر

(ح) الحماسة Enthusiasm

الحماسةُ نوعٌ من الشجاعةِ تُصحَبُ بالشعورِ القويِّ والإقدام . ولا نريدُ بالحماسةِ تلك التى تؤدِّى بنا إلى السيرِ فى الطريقِ المظلمِ فى الحياة ، ولكننا نريدُ الحماسةَ المصحوبةَ بقوةِ الإيمانِ من جهة ، والتفكيرِ من جهةٍ أخرى .

ولا يكفِى للنجاحِ فى الحياةِ أن يكونَ الإنسانُ ذكيًّا ماهراً ، بل يجب أن يتحدَ مع الذكاء والمهارةِ قوةٌ أخرى هى الحماسة ، والغَيرةُ الطبَعية . وما الفائدةُ من أن يصلَ العالِمُ الباحِثُ إلى نظريةٍ من النظريات ، أو فكرةٍ من الأفكار ، إذا لم يَستطِعْ أن يُنفِّذَها لعدمِ وجودِ الحماسةِ أو الشجاعةِ الكافيةِ لديه ؟ إنه لا فائدةَ من نظرياتٍ لا يمكنُ تطبيقُها عمليًّا .

ولكن هل يمكن أن نَبُثَّ الحماسةَ ونولِّدَها فى النفوسِ الباردةِ ؟ والجواب : نعم يمكننُا أن نُعَوِّدَ الطفلَ من الصغرِ الإقدامَ والشجاعةَ ، والقيامَ بالعمل ، والاعتمادَ على النفس فى كثيرٍ من الأعمال . وهناك

أشياء ليست بالقليلةِ نثقُ بأنها مفيدةٌ ، ونتائجها حسنة ، ومع ذلك نترددُ فى تنفيذِها ، نُقدِّمُ رجلاً ونؤخِّرُ أخرى ؛ لقلةِ حماستِنا ، وخَوَرِ عزيمتِنا ، وضَعفِ إرادتِنا . وكثيراً ما تمرُّ الفرصُ أمامَ أعينِنا ، وتضيعُ منا بسببِ ذلك النقصِ . وكلُّ ما نحتاجُ إليه لمعالجةِ هـذا النقصِ هو أن نفكرَ فى الشيءِ أولاً ، فإذا بدَا لنـا صوابُه فَلْنصحَبْه بالعملِ وقوةِ العزيمة . وإذا وثِقْتَ بطريقِك فأسرِعْ فى خُطاك ، وسِرْ فى سبيلِك حتى تصلَ إلى النهايةِ .

قال (إمِرْسُون) الكاتبُ الأمريكىُّ : « بغيرِ الحماسةِ لا يمكنُ القيامُ بأمرٍ عظيمٍ فى الحياة » . ولأجلِ أن يكونَ الخُلُقُ عظيماً ، وتكونَ الشخصيةُ قويةً يجب أن يُضاءا بقوةٍ من الحرارة » .

وتكونُ الحماسةُ بتشجيعِ الطفلِ على أن يَطَّلِعَ على ما يَحْسُنُ الاطلاعُ عليه ، وأن يَرى ما تَحسُنُ رؤيتُه ، وأن يَبحثَ عن الحسناتِ أكثرَ من البحثِ عن السيئاتِ ، وأن يستحسنَ أكثرَ مما يَستقبح ، وأن يوافِقَ أكثرَ من أن يخالف ، وأن يُثْبِتَ أكثرَ مما ينفِى ، وأن يُشَجِّعَ أكثرَ من أن يُثبِّط .

والأملُ فى المسِنِّ — الذى بلغ من العمر سبعينَ سنةً ، المملوءِ حماسةً ونشاطاً ، أكثرُ من الأملِ فى الشابِّ الضعيف ، المتردِّد ،

الجبان . والأملُ محالٌ فى النفوسِ الضعيفةِ المترددةِ فى كل شىء ، وفى أقلِّ شىء . ولا رجاء فى العالَم إذا وُضِعَت اليَدُ الباردة ، يدُ الجبن ، على قلوبِ الشباب . فإذا أُعطِيتَ أيةَ فرصةٍ ففكِّرْ مليًّا ، ثم إذا استصوبْتَ الأمرَ فأقدِمْ ، ولا تتردَّدْ ، ولا تَخفْ صغرَ السِّن ، ما دمتَ على صواب . ومن الخطأ أن يظنَّ الإنسانُ أنه أصبحَ كبيرَ السِّن ، ولا يُرْجَى منه عمل . ولا تعجَبْ إذا سمعتَ أن (المستر جْلادِسْتُون (١)) لم يبتدئْ أعمالَه العظيمةَ إلا فى سنِّ الخمسين . فعاملُ السنِّ لا يؤثِّرُ فى الحماسةِ كلَّ التأثير كما يُظَن . والشبابُ شىءٌ نسبيٌّ ؛ فقد تجدُ روحَ الشبابِ فى بعض الشيوخ ، وتجد روحَ الشيوخِ فى بعض الشبان .

والإنسانُ يأسَفُ إذا قال : إن معظمَ الشبانِ لدينا مُنصَرِفون إلى الملاهِى ، لا يفكرون إلا فى اللذاتِ ، وآمالُهم ضعيفةٌ فى الحياة ، وكلُّها موجَّهةٌ إلى الوظائفِ مهما كانت وَضيعةً . أما الإقدامُ على الأعمالِ الحرة فقليل . وإذا دخلوا ذلك الميدانَ كانوا مُضطرِّين . والحماسةُ بعيدةٌ عنهم ، وهُم بعيدون عنها . والإيمانُ بعيدٌ عن قلوبهم ، فهم يعملون عن غيرِ عزيمةٍ أو عقيدة . وقد أصبحت العقولُ مظلمة ، عليها طبقةٌ كثيفَةٌ من السحُبِ والغيوم ، وصارت الأرواحُ ضعيفةً خاملة .

---

(١) اقرأ : Life of gladstone, by John Morley

ونحن فى حاجةٍ إلى الخيالِ والشِّعرِ والموسيقى حتى تُبْعثَ روح الحماسةِ فى النفوس ، وتُوجدَ الشخصياتُ الفَذَّةُ ، كما أننا فى حاجة إلى أن نشعرَ بأننا خُلقنا فى هذا العالَمِ لنقومَ بتبليغِ رسالةٍ وطنيةٍ أو علميَّةٍ أو اجتماعيةٍ أو خلقية أو صحية ، ونُمثلَ دَوْراً عظيماً فى روايةِ الحياة .

وبجانب التعودِ والخيالِ والأملِ نحتاجُ فى بثِّ الحماسةِ فى النفوس إلى قوةِ الهجوم ، وروح الاحتجاج والمعارضةِ حينما نُقابَلُ أو نُفاجَأُ بالمصاعِب والعوائِق التى تعوقُنا عن القيام بالعمل . فإذا أردتَ أن تنجحَ فى عملِك فابذلْ كلَّ ما تستطيعُ من جُهدٍ وعمل ، واعملْ بجِد ، ثم ثابرْ على هذا العمل ، وباللهِ توفيقُك .

وينشأُ عدمُ الحماسةِ عن الشكِّ وعن الخبث ، وهما من ألَدِّ أعداءِ الشخصية . قال (رُوبَرْت لُويسْ سْتِيـڤِنْسُون[1]) : « إنى أمقت الخُبْثَ (Cynicism) أكثرَ من مقتى للشيطان إذا كان الاثنان شيئاً واحداً » فَلْنترك كثرةَ التشكك والتردد ، وَلْنتجنبْ الوسوسةَ فى كل شىء ، ولْنتمسكْ بالجِدِّ والعملِ والإقدام حتى نتصلَ بالقُوَى العظيمةِ فى الحياة . ولْنَسِرْ مع الجماعة ، ولا نقف فى عُزلة ؛ ففى الجماعةِ قوةٌ ، وفى العُزلةِ ضعفٌ . وفى القوةِ عظَمةٌ ، وفى الضعفِ مذَلة .

---

(١) Robert Louis Stevenson (١٨٥٠ — ١٨٩٤ م .) : كاتب إنكليزى ، قضى كثيراً من حياته القصيرة مريضاً . وكتب معظم كتبه وهو على فراش المرض . وهو خير مثل فى قوة الروح وقوة الإرادة .

ومن الحماسةِ أن تُعبِّرَ عما فى نفسِك بالقولِ والفعلِ تعبيراً حسناً ؛ فلحُسنِ التعبيرِ أثرٌ كبيرٌ فى الشخصية . ومما يقالُ عن سيدةٍ أساءت التعبيرَ عن شعورِها ووجدانِها أنها أخذتْ تبكى مما شاهدتْهُ فى روايةٍ تمثيليةٍ خيالية ، فى حين أنها تَركتْ سائقَ عجَلتِها فى البردِ حتى تجمَّد ، ومات وهو ينتظرُها فى خارج المسرح . فينبغى أن يفكرَ الإنسانُ فى غيره ، ويشاركه فى شعوره ، ويفكرَ فى الحقيقةِ أكثرَ من تفكيره فى الخيال ، ويُقْدِمَ حيث يجبُ الإقدامُ ، ويمتنعَ حيث يجبُ الامتناعُ ، كى يمثلَ دورَه ، ويقومَ بواجبه ، ويحققَ الحكمةَ من وجودِه وهى العمل .

(ى) قوة الإحساس Sensibility

إن قوةَ الإحساسِ من أكبرِ المؤثِّراتِ فى الشخصيةِ القوية ، وبعضُها ينْسَبُ إلى الوراثة ، وبعضها مكتسَبٌ بالتربيةِ والخِبرة والتهذيب . وإن الانسانَ الصادقَ الحسِّ ، الحسنَ البصيرةِ ليس بذكىٍّ فحسْبُ ، ولكنه حسَنُ التقديرِ والحكمِ على الأشياء ؛ يَرى الفرصةَ فينتهزُها ، وينتفعُ بها . والفرصُ تمرُّ بنا جميعاً ، وقد تمرُّ عبَثاً ولا نُحِسُّهَا ، وإذا أحسسناهَا فقد نتركها حتى تمرَّ مرّ الرياح ، وتذهبَ سُدًى .

فالمساواةُ فى الفرصةِ لا تكفى وَحدها ، ولكن يجب الشعورُ بها

والاستفادةُ منها . ولو أمكنَ أن نعطِيَ الناسَ فى الغَد فرصةً واحدة ، فإننا نجد قليلينَ جدًّا لديهم القدرةُ على رؤيتِها أو الانتفاعِ بها فى حينها . أما الكثيرون فقد لا يلاحظون مجيئَها أو مرورَها إلا بعد انتهائِها ، ولكنهم يُظهِرون أنهم عقلاء حكماء يتمثلُ فيهم العقلُ والحكمةُ بعد زوالِ الفرصة .

وهناك أفرادٌ لهم أعينٌ لا يُبصِرون بها ، ولهم آذانٌ لا يسمعون بها . وليس السببُ فى قلةِ الرؤيةِ أو السمعِ ناشئًا عن ضعفِ ما أُوتُوا من إحساس ، ولكنه ناشئٌ عن إهمالِ ما لديهم من الإحساس ، وعن عدمِ الانتفاعِ بما مُنِحُوا من مواهبَ وميولٍ وأمزجةٍ وسجايا .

وإذا مدحْنا صِدقَ الحسِّ ، وإجابةَ الداعِى ، وقوةَ الإحساسِ فى الإنسان ، فإننا لا نمدحُ أن يكون شديدَ الاحساس (Sensitive) ؛ بحيث يتأثرُ لأقلِّ شيء ، بل نطالبُ أن يُحدَّدَ هذا الإحساسُ حتى يعتادَ الشخصُ ضبطَ نفسِه ، وكتمانَ شعوره ، فلا يكون شديدَ التأثرِ لأتفهِ الأسباب . فضبطُ النفسِ هو روحُ الشخصيةِ وقوتُها المعنوية . وقد وصفَ الشاعرُ الإنكليزىُّ (شِلِى)[1] النباتَ الحساسَ فى قصيدة له بهذا العنوان[2] فقال :

---

(١) Percy Bysshe Shelley : شاعر إنكليزى من شعراء الطبيعة ، معروف بحبه للطبيعة ، وغيرته على الإصلاح .

(٢) Sensitive Plant .

« قد نَما النباتُ الحساسُ[١] فى الحديقة ، ثم غَذَاه النسيمُ العليلُ بالطَّل[١] الفضيِّ . وفتحَ للنُّورِ وُجوهاً من الأوراق ، ثم طَواها تحت قُبلاتِ الليل . »

وإن معرفةَ متَى نفتحُ عقولَنا لاستقبال تلك الآثارِ التى لا حدَّ لها فى الحياة ، ومتى نمنعُها عن أُستقبالِها تستلزِمُ أن نعرفَ كثيراً عن أسرارِ الحياة ، وأسرارِ السعادة ؛ لأن الجهلَ بتلك الأسرارِ قد يؤدِّى إلى تضحيةِ الإنسانِ براحتِه العقلية ، وسعادتِه الداخلية .

---

(١) « A Sensitive Plant in a garden grew,
And the young winds fed it with silver dew,
And it opened its face like leaves to the light,
And closed them beneath the kisses of night. »

(٢) الندى الخفيف .

الفصل العشرون

اضطرابُ الشخصيةِ وانقسامُها[١]

الآن وقد تكلمْنا عن الشخصيةِ وماهيّتِها[٢] ، وعناصرِها ، وأنواعِها ، ومُضعِفاتِها ومُكَمِّلاتِها ، لا يفوتُنا قبل أن نختمَ هـذا الفصلَ ، وهذا الكتابَ ، أن نذكرَ كلمةً موجزةً عن اضطرابِ الشخصيةِ وانقسامِها ؛ لما للموضوع من الأهمية . وقد كُتبَتْ عنه كتبٌ[٣] باللغاتِ الأجنبيةِ المختلفة ، فارجعْ إليها إن شئت .

إن الإنسانَ وإن كان يُعَدُّ وَحدةً لا تتجزأ ، قد لا تتحدُ دائماً ميولُه الفِطريّة[٤] المختلفةُ ، ورغَباتُه المتعددة . وقد يتعارضُ بعضُها مع بعضِها الآخر ، فيختلفُ سلوكُ الإنسانِ باختلافِ الظروف .

وكثيراً ما نقولُ إنَّ سلوكَ فلانٍ اليومَ يختلفُ عن سلوكِه العاديّ ، أو نقول : إن فلاناً كاملٌ دائماً ؛ مُريدِين بذلك أنه لا يتغيرُ مطلقاً ،

---

(١) Disorders of Personality. (٢) حقيقتها .

(٣) راجع :

(A) Diseases of personality, by Ribot, Eng. trans. 1891 .

(B) Alterations of personality, by Binet, Eng. Trans. 1896 .

(٤) الطبيعية .

وأن ميولَه متّحدةٌ ، فى حين أننا نحكمُ على شخصٍ آخرَ بأنه رجلٌ لا يمكن التحققُ منه ، أو الثقةُ به ؛ لأنه كثيرُ التغيرِ والانقلاب ، وليس على حالٍ واحدة . ولكنْ من الكمال تهذيبُ الميولِ المختلفة والتوفيقُ بينها بحكمةٍ حتى تكونَ شخصيةُ الإنسانِ كاملةً .

انقسام الشخصية [1]

قد تنقسمُ الشخصيةُ وتتعدّدُ وتَسيرُ فى أكثرَ من طريقٍ واحدة ، فيكونُ للإنسان شخصيتان أو أكثرُ : شخصيةٌ له فى عملِه ، وأُخرى له فى منزله مثلا . وقد تكون الغرائزُ والميولُ والرغباتُ المسيطرةُ على الإنسان فى هاتين الجهتين مختلفاً بعضُها عن بعض ، فيختلفُ سلوكُه تبعاً لاختلافِها ؛ فبينا تراه فى عملِه قاسياً فظّاً غليظاً جافّاً ، إذ تجده فى منزلِه مع زوجِه وأبنائِه وديعاً سهلاً كريماً . والشواهدُ على ذلكَ كثيرة . وإن روايةَ « الدكتور جيكِل والمِستر هَايد »[2] مثلٌ واضحٌ فى تعدُّدِ الشخصية ، وإن كانَ ذلك المثلُ أقربَ إلى الخيالِ منه إلى الحقيقة ؛ لأنه بعيدٌ عن الحياةِ الحقيقية . وإذا قلنا بتعددِ الشخصيةِ وانقسامِها فكأننا سلّمنا بأن هناك شخصين فى جسمٍ واحد ؛ وفى

---

(١) Dissociation of personality.

(٢) Dr. Jekyll a Mr. Hyde.

هـذا القولِ نظرٌ . ولكنْ قد أثبتَه الدكتور (مُورْتون بْرِنْس)[١] كما سيأتى :

وقد تمرَضُ الشخصيةُ الإنسانيةُ وتضطرب تبعاً لاضطرابِ الأعصابِ والعقل ، فتختلُّ الذاكرةُ أو تُفقَد ، ويَضطربُ التفكيرُ ، وتتغيرُ بعضُ مظاهرِ الجسم ، وتختلفُ قوةُ الإحساسِ ، كما يختلفُ الميلُ والمِزاجُ ، فَيظهرُ المريضُ فى حالةٍ غيرِ حالتِه الطَّبعية ، وَيَشْعُرُ شُعوراً مختلِفاً ، ويُبدِى آراء تخالفُ آراءهُ وهو فى حالتِه الطبعية الأولَى . ويقومُ بأعمال غريبةٍ آليَّةٍ قد تُعَدُّ فوقَ الطاقةِ البشريةِ العاديةِ . ويُسيطِرُ عليـه فى ذلك الوقتِ العقلُ الباطن . وقد يفكِّر فى أشياءَ لا وجودَ لها مطلقاً . وقد يتكلمُ فى أمورٍ بعيدةٍ عن العقل والمنطِق . وقد يعتقد أن له جسمين يناماں فى سَرِيرَين مختلفين ، والواقعُ أنه جسمٌ واحدٌ له شخصيتان أو أكثر .

وفى حالةِ الذهولِ واضطرابِ الشخصية ، والنوبةِ العصبية ، قد يَشعر بعضُ المرضَى بأنهم فَقَدوا أسنانَهم ، أو فَقَدوا مَعِدَتَهم ، أو أصبحوا بلاَ أرجل ، وما فقدوا شيئاً من أسنانِهم أو معدتِهم أو أرجلِهم . ويظن آخرون أن أجسامَهم زجاجيَّةٌ أو خشبيةٌ أو مصنوعة من الزُّبد .

(١) Dr. Morton Prince.

وقد يشعرُ المريضُ بأنه خفيفُ الروح ، ويزعُمُ بشخصيتهِ الجديدةِ أنه (عنترةُ) فى القوةِ والبطولة ، أو أنه ملكٌ من الملوك ، ويتخذ له تاجًا ، ويأمرُ وينهَى ، ويتظاهرُ بمظاهرِ الأُبهةِ والعظمة ، أو أنه إلٰهٌ خالقٌ لهذا العالَم ، منظِّمٌ لهذا الكون ، أو أنه أعلمُ العلماء ، وشيخُ الفلاسفةِ ، وكبيرُ المُشرِّعين ، لا آخِرَ لعلمه ، ولا نهايةَ لفضله ، أو أنه (فُورد) فى ثروته ، مصانعُه لا تتسعُ لها بقاعُ الأرض ، وشركاتُه تحتلُّ الجوَّ وتملأُ البحارَ والأنهار . . . وما إلى ذلك من التخيلاتِ التى لا حدَّ لها ولا ضابط ، مما يتخيلُه المجانينُ فى كثيرٍ من الأحيان .

أمثلة لانقسام الشخصية :

ولْنذكرْ هنا بعضَ الأمثلةِ لانقسام الشخصية ، وتعاقُبِ شخصيتين ، أو أكثرَ على شخصٍ واحد فى حالاتِ الأمراضِ العقليةِ والعصبيةِ المزمنةِ عندَ الذهول ، حيث يفقِدُ المريضُ شعورَه ويتشنَّج .

(١) امرأةٌ قضَتْ شطراً من حياتها فى العُهر ، تلك الرذيلة التى يَنْدَى لها جبينُ الإنسانية ، ثم ذهبتْ إلى الدير — وقد قُضِيَ على أعصابها — لتقضيَ الشَّطرَ الأخيرَ من حياتها فى الرَّهبانية .

ففى أثناءِ النَّوبةِ العصبيةِ كانت تتعاقبُ عليها حالتان : حالةُ العُهر ، وحالةُ الرَّهبانيَّة ، فتتكلمُ آونةً بلسانِ العاهر معتقدةً أنهـا عاهر ،

فى وقت ليست فيه بالعاهر . وتتكلمُ حيناً بلسان الراهبة ، مُمثِّلةً حياة الراهبة . وفى كلتا الحالتين يتغير صوتُها وحديثُها وأفكارُها ، وتتبدَّلُ حالُها ، وتغيُّرُ ملابسَها ، وتجدها فى حالةٍ غيرِ حالتِهَا الطبيعيَّة وقتَ اليقَظةِ كأنَّها امرأةٌ أخرى ، وشخصٌ آخر ، وكأن المتكلمةَ شخصيَّةٌ أخرى غيرُ الشخصيَّةِ التى تعرفها من قبل ، شخصيةٌ جديدةٌ مختلفةٌ كلَّ الاختلاف ، ولا عهدَ لك بها .

(٢) ضابطٌ فرنسىٌّ أنتابته الأمراضُ العصبيةُ بعد الحربِ العالمَية الكبرى ، فتركَ حياةَ الجندية ، وأنتسبَ إلى الدير ليَحْيَا حياةَ الرهبانية ؛ فكان أحياناً فى حالةِ ذُهوله يتخيلُ أنه رجعَ إلى الجندية ، وأصبح جنديًّا كما كان ، فيحلِقُ ذقنَه ، ويقصُّ شاربَه ، ويخلع ملابسَ الرهبَةِ ، ويلبَسُ ملابسَ الجندى ، ويُغيرُ عادتَه ، ويتحدثُ حديثَ الضباط ، ويسيرُ سيرَهم ، ويظهرُ بشخصيتِه الأولَى ، حتى يَظنَّ من رآه أنه عاد ضابطاً كما كان .

(٣) ولدٌ كان مريضاً بالماليخوليا ، لم يجدْ فى طفولتِه أيةَ عناية ، وحُرِمَ كلَّ شىءٍ يُدعَى تربيةً أو تعليما . كان الشارعُ مأواه ، والطريقُ ملجأه ، والاستجداءُ مِهنتَه ، يَستجدِى حيناً ، ويسرق حين لا يجدُ من يُعطِى . أخذ يسرِقُ حتى حُكم عليه ، فأُخِذ إلى إصلاحيةِ الأحداث ،

وهناك تعلمَ صناعةَ الخياطة . وفى بعض الأحيان عند ذهوله واُضطرا بِه تعودُ إليه شخصيتُه الأولى ، فينسَى حياتَه الأخيرة ، وينسَى معها الخياطةَ ، ولا يتذكر شيئاً عنها ، ولا يستطيعُ أن يخيطَ شيئاً . ويصبحُ ثانية مثلاً للشريدِ الطريد ، واللصِّ الماهر ، والسائل المسكين ، فينتقلُ من الحالة الجديدة : حالةِ النظامِ وحسنِ السلوك إلى حالتِه الأولى ؛ حالةِ التشردِ والسرقةِ ، والبذاءةِ والاستجداء .

وهناك حالاتٌ أخرى وأمثلةٌ كثيرة ، يَضيق المقامُ عن ذكرها ، فارجع إليها فى كتاب (بينيه) السابقِ الذكر ، أو فى كتاب (ماكْنيش[١]) إذا أردت .

وتلك الحالاتُ كلُّها تبينُ أن الإنسانَ قد تتعددُ شخصيتُه بغير ضابط ، وبغير نظامٍ مُعيَّن ، فتختلفُ شخصيتُه ، ويختلفُ سلوكُه من حالة إلى أخرى ؛ فبينما يكونُ فى حالةِ اليَقظةِ هادئاً ساكناً وديعاً إذ يكونُ فى حالة الذهول شَكِساً غضوباً شريراً .

وبقوةِ العقلِ الباطنِ تحتلُّ الشخصيةُ الثانيةُ أو الشاذةُ مكانَ الشخصيةِ الأولَى أو الطبعيَّةِ بالتدريج . وفى أثناء النَّوبةِ قد يتذكر المريضُ تجاربَه السابقة ، وما حدثَ له فى الماضى ، ويتكلمُ كأنه يتكلمُ

(١) The Philosophy of Sleep, by, Mac Nish (1830).

عن شخص آخرَ . وبعد اليقَظةِ لايستطيع أن يتذكرَ ما قاله أو فعلَه وهو فى حالتِه الشاذة ، إلا بطريقةِ الإيحاء إذَا نُوِّمَ .

وقد تتجسسُ الشخصيةُ الثانيةُ على الشخصيةِ الأولى ، فتلاحظُها من وراءِ ستار ، وعلى هـذا ينقسم الشخصُ قسمين يعملان فى وقت واحد ، ولـكنْ فى جهتين مختلفتين .

وبالطريقة الآتيةِ قد ردَّ الدكتور (مُورْتُون بْرِنْس) على من يشُكُّ فى وجودِ شخصيةٍ ثانية ؛ فقد اُستطاع أن يمكِّنَ فتاةً من أن تنتقلَ من حالتِها الطبيعيةِ إلى الحالةِ الشاذة ، ثم يعيدَها إلى حالتِها الأولَى بطريقةٍ تشبه طريقةَ التنويم المغناطيسىِّ ، وأخبرَها وهى فى أثناءِ نومها أنها مكلَّفةٌ أن تحلَّ مسائلَ حسابيةً مُعينة ، ولم يُرِها الأعدادَ الحقيقيَّةَ فى الجواب . رجعتْ إلى حالتِها الأولى وهى حالةُ اليقظة ، فأراها إياها مدةً وجيزةً من الزمن . ولما نوِّمتْ مرةً ثانية وسُئلتْ عن الأجوبة ، أجابت فى الحال وقالت : إن الأجوبةَ كانت حاضرةً لديها ، وكانت تنتظرُ إعلانَها بفروغ صبر . وهذا على الأقل مظهرٌ من المظاهر التى تؤيِّد رأىَ (الدكتور بْرِنْس) ، وهو أنَّ جزأيْن مختلفين من الشخص كانا يعملانِ فى وقت واحد عمداً . ولـكن هل يحدثُ مثلُ ذلك فى الحياةِ العادية ؟ نعم يحدثُ للإنسان أمْران ؛ أحدُهما محزِن ، وَالآخرُ سارٌّ ، فى وقت واحد ؛

فبينما تراه حزيناً لفقدِ عزيز لديه مثلاً ، إذ تراه مسروراً لربحِهِ عشرة آلافٍ من الدنانير فى التجارةِ فى ذلك اليوم .

أسبابُ انقسامِ الشخصية

وما يعترى المريضَ فى حالتِهِ غيرِ الطبيعية

إنَّ انقسام الشخصيَّةِ حالةٌ غيرُ طبيعيةٍ للإنسانِ ، تنشأُ عن صَدْمَة وِجدانيةٍ عنيفة ، أوحادثةٍ مُرْعبةٍ ، أو مفاَجآتٍ كلها أهوَال ونَكبات ، فتختلُّ أَعصَابُ الشخص ، ويضطربُ عقلُه ، وَتتبدلُ حالته الطبعية ، وتتغير إلى حالةٍ أوحالاتٍ أخرى يختلفُ الشخصُ فى أَثنائِها فى تفكيره وآرائه وصوته ، وشعورِه وميله ، ومزاجه ، وأقواله وأفعاله . والانتقالُ من حالةٍ إلى أخرى قد يصحَبه نومٌ عميقٌ أو غيبوبة ؛ بأن يَمكثَ مدةً لا يَشْعرُ فيها بشىء . وقد يُلاحَظُ هذا الانتقَالُ قبلَ حدوثه ، وقد يظهَرُ التغيرُ بَغتةً ، كما قد يَختفِى بغتةً فى غيرِ الموعد المعروف .

وقد حدث أن رجلاً سكِّيراً وجد ابنتَه الصغيرةَ التى تبلغ من العمر أربعَ سنوات نائمةً فى سريره ، فألقاها وهو فى حالةِ السكرِ على الأرض بعُنف ، ففزِعت الطفلةُ أيَّما فزَع . ومن تلك اللحظةِ تغيرتْ شخصيتها ؛ فبعد أن كانت فرِحةً مَرِحةً مبتسمةً ضاحكةً ، أصبحتْ فى حالةٍ أخرى ،

تمثلُ الكآبةَ الدائمة ، والحزنَ المستمر ، وأخذَت الأمراضُ العصبيةُ تنتابها حتى قضَت نَحبَها فى العاشرة من عمرها ، ولسانُ حالها يقول :

هــذا جَناهُ أبِى علىّ وما جنيتُ على أحد*

وذهبَت الفتاةُ ضحيةَ السُكرِ وسوءِ التصرف .

والشخصيةُ الثانيةُ قد تَرِثُ الشخصيةَ الأولى علماً وعملاً ، وقد لا ترثها مطلقاً ؛ فيُترك الفردُ كأنه طفلٌ حديثُ الولادة ، لا يعلمُ عن الحياة شيئاً ، ولا خبرةَ له بشىء ، وعليه أن يتعلمَ كلَّ شىء من جديد ، وإن كان يُرَى كبيراً فى جسمه . وقد يكون التغيرُ وقتياً فى ساعاتٍ مُعَينةٍ ، من أيامٍ معينة ، وقد يكون دائماً .

تحليلُ الشخصية

وبالتنويم المغناطيسىّ ، والتنويم الصناعىّ أو الطبىّ بالمخدِّرات المختلِفة[1] تمكنُ دراسةُ بعض الحالاتِ العصبية وتحليل الشخصية . والمنوَّمُ وإن كان فاقداً لشعوره ، لا يَدرِى ما يدور حولَه[2] ، يمكنه أن يُحِسَّ تحت تأثيرِ الإيحاء .

ويُعَدُّ أضطرابُ الشخصيةِ حالةً من الأحوالِ الشاذَّة كحالةِ مَشْىِ

(١) التنويم بالكلوروفورم أو الكوكايين أو الأثير .

(٢) إذا كان التخدير عاماً وغير موضعى .

النائم ، وقيامِه بأشياء غريبــةٍ تحتَ تأثيرِ العقلِ الباطن تُعَدُّ من المحال وقتَ اليقَظة .

وتختلفُ الشخصيةُ الثانيةُ عن الأولَى كلَّ الاختلاف . وفي حالةِ التنويم يمكنُ أن تُذكَرَ الحالاتُ المنسيَّةُ بسبب المرضِ واُضطرابِ الشخصية .

وعلى أيِّ حال لا يمكننا أن نعتمدَ من الوجهةِ العلميةِ الدقيقةِ على النتائج التي يمكن الوصولُ إليها بمثل هذا التحليل .

وختامًا أسأل اللهَ الهدايةَ والتوفيق .

المراجع العربية

(١) البيان والتبيين للجاحظ .
(٢) كتاب الأذكياء لابن الجوزى .
(٣) نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى ، طبعة دار الكتب سنة ١٩٢٦ .
(٤) الإحياء للغزالى .
(٥) الأمالى لأبى على القالى — طبعة بولاق سنة ١٣٢٤ هـ .
(٦) العمدة لابن رشيق — طبعة الخانجى سنة ١٩٠٧ .
(٧) زهر الآداب للحصرى القيروانى — شرح الدكتور زكى مبارك .
(٨) مقامات بديع الزمان الهمذانى — (طبعة اليسوعيين)
(٩) مجانى الأدب فى حدائق العرب ، للأب لويس شيخو اليسوعى (طبعة اليسوعيين ١٩١٣)
(١٠) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى .
(١١) ثمرات الأوراق للحموى .
(١٢) الصناعتين لأبى هلال العسكرى .

المراجع الانكليزية

1. Alterations of Personality, by Binet, Eng. trans., 1896.
2. Dictionary of Philosophy and Psychology, Edited by J. M. Baldwin, vol. 11, pp. 284—86.
3. Psychology, by Woodworth. ch. XXI.
4. An Outline of Psychology, by William Mc. Dougall, ch. XVIII.
5. Manual of Psychology, by Stout, Bk. IV, chaps. VII and X.
6. Character and the Conduct of Life, by W. Mc. Dougall, chaps., V and X.
7. Psychology for Teachers, by Lloyed Morgan, ch. X.
8. Psychology of Education, by Welton, ch. XIII.
9. Introduction to Psychology, by Loveday and Green, ch. XVI.
10. The Changing School, by P. B. Ballard, ch, VII.
11. Education : Its Data and First Principles, by Sir Percy Nunn.
12. The philosophy of Sleep, Mac Nish, 1930.
13. Diseases of Personality, by Ribot, Eng. trans. 1891.
14. Life of Gladstone, by John Morley.

فهرس الأعـــلام

(ا)

إبراهيم بن الحسن بن سهل : ٤٤
أبراهام لنكولن : ١٤،٣٢،٤٨ — ٥١، ١٢٨
إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك : ٦٤ — ٦٦
الأبرش الـكلبي : ٤٥
ابن التوام : ١٠٤
ابن الجوزى : ٢٦،٦٩
ابن الرومى : ٨٩
ابن زياد : ٢٩
ابن عبد السلام الهـاشمى : ٢٦
ابن مسكويه : ٨٠
ابن المعتز : ٦٢
أبو إسحق محمد المعتصم : ١٥٨،١٦٠
أبو أمامة : ٩١
أبو بكر (رضى الله عنه) : ٦٨
أبو تمـام (الطائى) : ٢٤ — ٢٥،٩٣
أبو جعفر المنصور : ٢١،١٦٧
أبو حامد الخراسانى : ٢٦
أبو حنيفة : ٢٨ — ٢٩
أبو سفيان : ٤٧
أبو الشيص : ٨٨
أبو العباس السفاح : ٦٤
أبو عبد الله بن جعفر : ٦٠
أبو العلاء المعرى : ٢٩
أبو العميثل : ٢٥
أبو هلال العسكرى : ٦٣
أبو يوسف يعقوب الـكندى : ٢٥
أحمد بن طولون : ٣٢
أحمد بن المعتصم (أمير عباسى) : ٢٤
الأحنف بن قيس : ٦١ ، ٦٧ ، ١٠٥ — ١٠٦
الأدرع : ٦٩،٧١
إديسون : ١٤،١٢٩ — ١٣٠
أرسطو : ٤٠
إسحق نيوتن : ١٤،١٦٤ — ١٦٥
الإسكندر الأكبر : ٨٤،١٦٥،١٦٧
أشج عبد القيس : ٦٢
أف برى (لورد) : ١٤٦
الأفمى الجرهمى : ١٩ — ٢٠
أفلاطون : ٤٠،٩٨
إمرسون : ١٣٣،١٦٩،١٧٦
أعـار : ١٨ — ٢٠
أوليفر جولد سمث : ٥١ — ٥٢
إياد : ١٨ — ٢٠
إياس القاضى : ٢٠ — ٢١،٢٤

(ب)

باستور (لويس) : ٩٣
بدروسكى : ١٣٣
بديع الزمان الهمذانى : ١٤٤
برسى نن « السير » : ١١
برونتج (روبرت) : ١٤٠
بلبريوت : ١١٩
بيبا : ١٤٠
بيكون (فرنسيس) : ١٤٧
بينيه : ١٨٧

(ت)

تميم بن جميل : ١٥٨، ١٦٠
تنسون : ١٣٣

(ث)

ثمامة بن الأشرس : ٢٥

(ج)

الجاحظ : ٩٨، ١٠٢، ١٠٤
جرير : ٦٨
جعفر الصادق : ٥٥، ٦٣
جعفر بن يحيي البرمكي : ١٠٣ — ١٠٤
جلادستون (المستر) : ١٧٧
جن جاك روسو : ١٥٢
جورج واشنطون : ١٤، ١٦٥
جوستاف لوبون : ١١٣
جون بنيان : ١٧٢
جيته (الفيلسوف الألمانى) : ١٤٥

(ح)

حاتم الطائى : ١٤
الحجاج : ٢٧ — ٢٨، ٧٨، ١٠٧
الحسن (رضى الله عنه) : ١٠٥
حمة بن رافع الدوسى : ٩٥

(خ)

خالد بن عبد الله : ٤٨
خالد بن الوليد : ١٤، ٦٨، ١٦٢، ١٦٥

(د)

درواس بن حبيب : ١٠٨ — ١٠٩
دزرائيلى : ١٢٩
ديكنز (تشارلز) : ١٤

(ر)

ربيعة : ١٨ — ٢٠
رسكن : ١٣٧
الركاض (صبى) : ٣٣
روبنسن كروزو : ١١٢ — ١١٣

(ز)

الزرقاء بنت عدى : ٧٤ — ٧٥، ٧٧

(س)

سالم (غلام رجل من الأنصار) : ٨٥
ستيفنسون (روبرت لويس) : ١٧٨
سرى السقطى : ٦٣
سعد زغلول : ١٤، ١٣٥، ١٥٦، ١٦٥، ١٧٢
سقراط : ٦٢، ٩٨
سليمان بن عبد الملك : ٤٨
سنكا : ٤١
سهل بن هرون : ١٠٣ — ١٠٤

(ش)

شارلى شابلن : ١٤
شريح القاضى : ٢٧
شلى (برسى بيش) : ١٨٠
الشيبانى : ٨٨

(ص)

صامويل جونسون : ٥١
صلاح الدين الأيوبى : ١٤

(ض)

ضرار الصدائى : ٧٣

(ع)

عامر بن الظرب العدوانى : ٩٥
عامر بن عبد القديس : ١٠٥
العباس بن عبد المطلب : ١٨
عبد الله بن أبى بكرة : ٤٥
عبد الله بن الزبير : ٥٦
عبد الله بن طاهر : ٢٥
عبد الله بن قيس الرقيات : ١٠٢
عبد الملك بن مروان : ٤٦
عقيبة (الربانى الإسرائيلى) : ١٣٦
على بن أبى طالب : ٧٣، ٧٧، ١٦٣ — ١٦٤
عمر بن الخطاب : ١٤، ٤٢، ٤٤، ٥٦، ٦٨، ٩٢، ٩٦، ١٠٥، ١٦٢
عمر بن عبد العزيز : ٢٢، ١٢٧
عمرو بن مسعدة : ٤٤ — ٤٥
عنترة العبسى : ٨٢
عيسى بن مريم (عليه السلام) : ٥٩، ٩٢، ١٦٤، ١٧٤
عيينة بن حصن : ٩٦

(غ)

غاندى الزعيم الهندى (مهاتما) : ٩٤

(ف)

فرعون : ١٠٠
فوول بكستون : ١٦٦

(ق)

قتيبة بن مسلم : ٨٨
قيس بن عاصم المنقرى : ٦١

(ك)

كارليل : ١٣٧
كثير عزة : ٩٤ — ٩٥
كرزلر : ١٣٣
كسرى (أحد ملوك فارس) : ٩٦

(ل)

لقمان الحكيم : ٦١
لويد جورج (المستر) : ٣٥، ٧٢

(م)

مارتن لوثر : ١٣٦
مارك توين : ١٤٧
مارك رذرفورد : ١٧٠
ماكنبش : ١٨٧
ماكولى الأسكتلندى (لورد) : ٣٤ — ٣٥
المأمون : ٢٣، ٢٥، ٤٤، ٤٦، ٦٠، ٩٤
المتوكل (الخليفة العباسى) : ٩٨
محمد بن حميد الطوسى : ٤٧ — ٤٨
محمد بن عبد الله (رسول الله صلى الله عليه وسلم) : ١٨، ٨٥، ٨٧، ٩١، ١٠٢، ١٦٤
محمد عبده (الإمام) : ١٣٦، ١٦٤
محمد فريد : ١٤
المختار : ١٠١
المدائنى : ٢٩
المسيح = عيسى بن مريم عليه السلام ٥٩، ٩٢، ١٦٤، ١٧٤
مسيلمة الكذاب : ١٤
مصطفى كامل : ١٤
مصعب بن الزبير : ١٠١ — ١٠٢
مضر : ١٨
معاوية : ١٤، ٦٤، ٧٣ — ٧٧
مكدوجل (وليام) : ١١٧
المهدى : ٤٤ — ٤٥
مورتون برنس (دكتور) : ١٨٤، ١٨٨
مورق العجلى : ٦٢
موسى (عليه السلام) : ١٠٠
موسى الهادى : ٣٠

(ن)

النابغة الذبياني : ٤٥
نابليون بونابرت (إمبراطور فرنسا) : ١٤، ٣٨، ٧١ — ٧٤، ١٦٥، ٢٦٧
النجاشي : ٩٢
نزار : ٢٨
نصر الخادم : ٤٤

(هـ)

هارون الرشيد : ٢٢، ٤٨، ٩٣
هارون بن عمران : ٢٠٠
هربرت سبنسر : ٦٧
هشام بن عبد الملك : ٤٥، ١٠٨ — ١٠٩
هليل : ١٣٦
هيرودوس : ١٤

(و)

وردسورث : ١٢٦، ١٣٣
ولبرفورس : ١٦٦
وليام پت : ١٦٢
وليام هازلت : ١٤٤
وولتر سكوت (السير) : ٣٤، ٤٠، ١٤٨

(ى)

يحيى بن أكثم : ٦٠
يحيى بن حيان : ٩٦
يزيد بن معاوية : ٦٤
يسار (غلام رجل من الأنصار) : ٨٥
يوسف بن يعقوب بن إبراهيم : ٩٦
يونس بن حبيب : ١٠٤

الفهرس التفصيلي

ص	الموضوع
٣	مقدمة الطبعة الثانية
٥	« « الأولى

الفصل الأول

ص	الموضوع
٧	مقدمة
٩	تعريف الشخصية
١٠	الشخصية هبة فطرية أم صفة مكتسبة ؟
١٢	الاختلاف في الشخصية

الفصل الثاني

ص	الموضوع
١٥	العناصر الرئيسية التي تتكون منها الشخصية القوية
١٥	الجاذبية وتعريفها
١٥	بماذا يجتذب الإنسان غيره من الناس؟

الفصل الثالث

ص	الموضوع
١٧	النشاط العقلي أو الذكاء
١٨	أثر الذكاء في شخصية الإنسان
١٨	ذكاء أولاد نزار
٢٠	ذكاء إياس القاضي
٢١	ذكاء معن بن زائدة
٢٢	غلام ذكي وعمر بن عبد العزيز
٢٢	الركاض والرشيد
٢٣	الولد النجيب والخليفة
٢٣	المأمون والحسن بن رجاء
٢٤	الأصمعي والغلام العربي
٢٤	ذكاء إياس بن معاوية
٢٥	رأي الفيلسوف يعقوب الكندي في أبي تمام
٢٥	أبو تمام وعبد الله بن طاهر
٢٥	ثمامة بن أشرس والصبي
٢٦	أبو حامد الخراساني القاضي والعجوز
٢٧	الحجاج وامرأة من الخوارج
٢٧	شريح القاضي
٢٧	الحجاج والأعرابي
٢٨	حيلة الإمام أبي حنيفة في القبض على اللصوص
٢٩	الإمام أبو حنيفة والأعرابي
٢٩	ذكاء جارية
٣٠	موسى الهادي والتخلص من الخارجي
٣١	الأعرابي والأمير
٣٢	أحمد بن طولون والجاسوس
٣٣	أثر ذكاء «أبراهام لنكولن»
٣٤	حضور بديهة « اللورد ماكولي »
٣٥	سرعة الخاطر لدى «المسترلويدجورج».

الفصل الرابع

ص	الموضوع
٣٧	المشاركة الوجدانية وأثرها في الشخصية
٣٨	قسوة «نابليون»
٣٨	الرؤساء والمشاركة الوجدانية
٤٠	(السيرووالترسكوت) والمشاركة الوجدانية
٤٢	تتمثل المشاركة الوجدانية في سيدنا عمر بن الخطاب
٤٤	عطف المهدي على أعرابية
٤٤	عطف المأمون على عمرو بن مسعدة
٤٥	رأفة عبد الله بن أبي بكرة بأعرابية
٤٦	عفو المأمون عن رجل أذنب

ص	الموضوع
٤٦	عفو عبد الملك بن مروان عن رجل بعد الأمر بقتله
٤٧	إحسان محمد بن حميد الطوسى إلى من أساء إليه
٤٨	عفو سليمان بن عبد الملك
٤٩	حكايات عن (أبراهام لنكولن) تتمثل فيها المشاركة الوجدانية
٥١	(صامويل جونسون) وعطفه على البائسين
٥١	الطبيب أوليفر جولد سمث

الفصل الخامس

ص	الموضوع
٥٣	الشجاعة فضيلة
٥٥	مظاهر الشجاعة
٥٥	الشجاعة فى ضبط النفس
٥٥	جعفر الصادق وضبط النفس
٥٦	المخاوف الوهمية تكثر عند ضعف الشخصية
٥٨	الشجاعة فى مقاومة مصاعب الحياة
٥٩	« المسيح عليه السلام » وضبط النفس
٦٠	عفو المأمون
٦٠	الجارية وأبو عبد الله بن جعفر
٦١	حلم الأحنف بن قيس
٦٢	ما قاله لقمان وقيس بن عاصم وبعض الفلاسفة فى الحلم
٦٣	أوجه الحلم
٦٤	إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك
٦٧	رأى (هربرت سبنسر) فى ضبط النفس
٦٧	(جورج واشنطون) وكتمان الشعور
٦٧	الشجاعة فى التغلب على الصعاب

ص	الموضوع
٦٨	شجاعة عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد
٦٩	جرأة الأدرع
٧١	إقدام (نابليون بونابرت)
٧٢	الشجاعة فى إبداء الرأى
٧٣	شجاعة ضرار الصدائى فى وصفه لسيدنا على
٧٤	معاوية والزرقاء
٧٨	الحجاج والاعتراض عليه فى إطالة الخطبة

الفصل السادس

ص	الموضوع
٧٩	الحكمة وسداد الرأى
٨٠	رأى ابن مسكويه فى الحكمة
٨٢	حزم عنترة العبسى
٨٢	أحزم الناس وأخرقهم
٨٣	ما تتطلبه الحكمة قبل الشروع فى الفعل
٨٣	ما يحول دون الحكمة
٨٤	حزم معاوية بن أبى سفيان وحلمه
٨٤	الإسكندر الأكبر

الفصل السابع

ص	الموضوع
٨٥	التفاؤل . وتمثله لدى الرسول الكامل
٨٦	ينشأ التشاؤم عن ضعف النشاط ووهن الرقابة العقلية
٨٨	تفاؤل قتيبة بن مسلم
٨٨	ما قيل فى التفاؤل والتشاؤم
٨٩	ابن الرومى كان كثير التطير
٨٩	لا تزال روح التشاؤم سائدة فى الخرافات

ص	الموضوع
	الفصل الثامن
٩٠	التواضع أساس للشخصية المحبوبة
٩١	التواضع فى غير ذلة سبيل النجاح
٩١	تواضع الرسول صلى الله عليه وسلم
٩٣	تواضع سيدنا عمر والنجاشى
٩٣	تواضع (لويس باستور) العالم الفرنسى
٩٤	تواضع (المهاتما غاندى)
٩٤	التصنع والتظاهر والجعجعة من علامات الضعف
٩٥	ليس من الحكمة أن يغتر الإنسان بالمظاهر
٩٥	ما قاله حمة بن رافع الدوسى عند ملك من ملوك حمير
٩٦	ابن الأخيار وابن الأشرار
	الفصل التاسع
٩٧	حسن مظهر الإنسان وقوامه وأثره فى الشخصية
٩٧	إن من يشعر بنقص جسمى يتجمل ليكمل ذلك النقص
٩٨	شخصية سقراط
٩٨	شخصية الجاحظ
	الفصل العاشر
١٠٠	قوة البيان تكسب الإنسان شخصية قوية
١٠٠	موسى وفرعون وهرون
١٠١	تأثر مصعب بن الزبير بطلاوة العبارة
١٠٢	آراء الجاحظ فى البيان والتبيين
١٠٣	جعفر بن يحيى البرمكى وقوة البيان
١٠٤	ما قاله سهل بن هرون ، ويونس بن حبيب ، وابن التوام فى البيان
١٠٥	ما قاله عامر بن عبد القيس فى قوة البيان
١٠٥	تأثر عمر بن الخطاب بحسن بيان الأحنف بن قيس
١٠٧	الحجاج وفصاحة الفتيان الثلاثة
١٠٨	درواس وهشام بن عبد الملك
	الفصل الحادى عشر
١١٠	الثقة بالنفس والاعتماد عليها
١١١	ينبغى أن نعود الأطفال الاستقلال الشخصى
١١١	مايتطلبه الاعتماد على النفس من الأمور
١١١	الرجل الواثق بنفسه وقوله وفعله يستطيع أن يقف وحده مناديا برأيه
١١٢	روبنسن كروزو والاعتماد على النفس
١١٢	المصلحون يسبقون فى آرائهم المجتمع الذى يعيشون فيه بعشرات السنين
١١٣	رأى (جوستاف لوبون) فى الثقة بالنفس
	الفصل الثانى عشر
١١٤	اعتدال المزاج وأثره فى الشخصية
١١٤	اختلاف الناس فى الأمزجة
١١٤	أقسام الأمزجة
١١٥	آراء العلماء قديماً وحديثاً فى الأمزجة
١١٦	تأثر المزاج بالمواد الكيميائية وإفرازات الغدد
١١٧	العناصر التى يجب أن تتحقق فى الشخصية القوية
	الفصل الثالث عشر
١١٨	أنواع الشخصية
١١٨	الشخصية العملية

ص	الموضوع
١١٩	الشخصية العملية أكثر أثراً فى الحياة من الشخصية الخيالية
١٢٠	عناية التربية فيما مضى بالعلم أكثر من العمل
١٢١	يجب أن يكون العلم وسيلة للعمل
١٢٢	يكاد العالم المادى يقضى على العالم الروحى
١٢٣	هل يمكن الجمع بين الروح والمادة فى آن واحد ؟
١٢٤	العزيمة الصادقة سر عظيم من أسرار الشخصية العملية

الفصل الرابع عشر

ص	الموضوع
١٢٥	وسائل تقوية الشخصية العملية
١٢٥	يجب تحديد الغرض ومعرفة الطريق الموصل
١٢٦	رأى (وردســورث) الشاعر الإنكليزى فى تعيين الغرض
١٢٧	عمر بن عبد العزيز وعلو الهمة
١٢٧	الرغبة فى العمل وأثرها فى النجاح
١٢٨	رغبة (أبراهام لنكولن) فى تحرير العبيد
١٢٩	رغبة (تشارلز ديكنز) فى الإصلاح الاجتماعى
١٢٩	رغبــة (دزرائيلى) فى شراء أسهم قناة السويس خلدت ذكراه بين الإنكليز
١٢٩	إديسون والأعمال (الميكانيكية)
١٣٠	الرغبة نوعان : مباشرة وغيرمباشرة
١٣١	المثل الأعلى فى أن نعمل حبًّا فى العمل
١٣٢	للحصول على شخصية عملية قوية يجب أن يصحب العمل برغبة طبيعية
١٣٢	الشعور بالواجب خير كفيل لمضاعفة العزيمة
١٣٣	(إمرسون) والشعور بالواجب
١٣٣	العلاقة بين الشخصية والشعور بالواجب
١٣٣	آثار (بدروسكى) و (كرزلر) فى جمال الموسيقى
١٣٢	آثار (تنسون) و (وردسورث) فى روعة الشعر
١٣٤	الضمير الحى وأثره فى الشخصيات الخالدة
١٣٥	الزعيم الخالد سـعد زغلول باشا والعظمة الإنسانية
١٣٥	قوة الوازع الدينى والشخصية
١٣٦	المصلحون من المسلمين
١٣٦	(هليــل) والربانى (عقيبة) من الإسرائيليين
١٣٧	مارتن لوثر ، وكارليل ، ورسكن من المسيحيين

الفصل الخامس عشر

ص	الموضوع
١٣٩	الشخصية الفكرية أو الخلقية
١٤٠	فى العمل تتمثل روح صاحبــه وأفكاره وأخلاقه .
١٤٠	وصف (روبرت بروننج) شخصية (بيبا)
١٤١	الشخصية القوية وأثرها فى النجاح
١٤٢	الشخصية القوية لا تستدعى جلبــة ولا ضوضاء
١٤٢	الفرق بين الشخصيتين : العملية والفكرية
١٤٣	الصفات التى يجب أن تتحقق فى الشخصية الفــكرية أو الخلقية

ص	الموضوع
١٤٣	الهدوء العقلى .
١٤٤	عن أى شىء ينشأ الاضطراب العقلى؟
١٤٤	(وليام هازلت) وعجزه عن ضبط نفسه
١٤٥	الرضا بالحياة مع العمل
١٤٥	(جيته الألمانى) وميله للمعارضة
١٤٦	(اللورد أف بَرى) ورأيه فى السعى للنجاح فى الحياة
١٤٧	(مارك توين) والمحافظة على الآمال
١٤٧	(بيكون) ووجوب السعى
١٤٧	البشاشة ورُحب الصدر
١٤٨	شخصية(السير وولترسكوت) تتمثل فى متانة أخلاقه
١٤٨	من مظاهر قوة الشخصية الفكرية التغلب على العاطفة

الفصل السادس عشر

ص	الموضوع
١٤٩	مضعفات الشخصية
١٤٩	اتكال الشخص على غيره
١٤٩	التأثر بالعادات والتقاليد
١٥٠	الشخصية لا يمكن أن تنمو فى قفص من حديد
١٥١	فى التمسك بالأفكار التى تقرأ تحكم فى الشخصية
١٥٢	(جن جاك روسو) وتربية الشخصية
١٥٣	من مضعفات الشخصية تحكم ميول الشخص فيه

الفصل السابع عشر

ص	الموضوع
١٥٤	الصفات الكمالية للشخصية
١٥٤	الذاتية أو الاستقلال الذاتى
١٥٥	الفرق بين الشخصية والذاتية
١٥٦	العوامل التى تمتاز بها الذاتية
١٥٦	الصراحة وعدم الالتواء فى الفكر والقول والعمل
١٥٦	صراحة المرحوم سعد زغلول باشا
١٥٧	كثرة التردد فى الرأى والقول والفعل تقلل من منزلة الإنسان
١٥٨	تميم بن جميل والمعتصم
١٦٠	حب المسئولية وعدم الفرار منها
١٦٢	الصبر ورأى (وليام بِت) فيه
١٦٣	آراء فى الصبر
١٦٣	الجزع يؤدى إلى الفشل
١٦٤	(إسحق نيوتن) وهبة الصبر
١٦٥	المثابرة من أهم صفات الشخصية العظيمة
١٦٦	(فوول بكستون) لم يعرف الرجوع إلى الوراء
١٦٦	إذا وجدت الإرادة الحديدية وجدت قوة الشخصية
١٦٧	الإسكندر المقدونى ونابليون وقوة الإرادة
١٦٧	نابليون

الفصل الثامن عشر

ص	الموضوع
١٦٨	الإخلاص روح الشخصية
١٦٩	الأمانة روح الإخلاص
١٦٩	الغيرة على العمل نتيجة الإخلاص
١٧٠	تظاهر الإنسان بغير الحقيقة يتنافى مع الإخلاص
١٧٠	رأى (مارك رَذَرفورد) فى الإخلاص
١٧٢	(نجاح الحاج) لجون بنيان .
١٧٣	مما يساعد على الإخلاص الدقة فى القول والتفكير

ص	الموضوع
	الفصل التاسع عشر
١٧٥	الحماسة وأثرها فى الشخصية
١٧٧	انصراف الشبان إلى الملاهى
١٧٨	قوة الهجوم
١٧٩	حسن التعبير عن الشعور
١٧٩	قوة الإحساس
١٨٠	وصف الشاعر الإنكليزى (شلى) للنبات الحساس
	الفصل العشرون
١٨٢	اضطراب الشخصية
١٨٣	انقسام الشخصية
١٨٣	رواية (الدكتور جيكل والمسترهايد)

ص	الموضوع
١٨٤	مرض الشخصية الإنسانية واضطرابها
١٨٥	أمثلة لانقسام الشخصية
١٨٥	المرأة العاهر
١٨٦	الضابط الفرنسى
١٨٦	الولد المريض بالمالخوليا
١٨٧	اختلاف الشخصية والسلوك
١٨٨	رد الدكتور (مورتون برنس) على من يشك فى تعدد الشخصية
١٨٩	أسباب انقسام الشخصية وما يعترى المريض فى حالته غير الطبعية
١٨٩	الرجل السكير وابنته الصغيرة
١٩٠	تحليل الشخصية
١٩٢	المراجع العربية
١٩٣	المراجع الإنكليزية

بيان الخطأ والصواب

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
أنت	أأنت	١٨	١١
السِّويق	السَّويق	٢٩	٦
قلا	فلا	٣١	٧
كتابه	كتابته	٣٤	١٢
لحزبه	لحزبه	٣٥	٤
غشبهم	غشيهم	٣٨	الهامش
العاديِّنَ	العاديِّنَ	٥٣	٩
جاءَ	رجاءَ	٦٣	١٢
استنباناه	استنبأناه	٧٣	١١
فأحسنو	فأحسنوا	٨٢	٨
تبغِ	تبغِ	٨٨	١
عبد الملك	عبد الملك لجلسائه	٩٥	٩
٩٣٧	٣٩٧	٩٨	الهامش
الإفهامَ	الإفهامُ	١٠٣	٥
فالَ	قالَ	١٠٤	٨
صَنَعِ فى القَبِ	صَنَعَ فى القلب	١٠٤	١٣
من	الذى	١٠٧	١٥
بفسِه	بنفسِه	١١١	١٤
سواء أ	—	١٢٣	١٣
النسجِ	النسجِ	١٢٨	٦
واختيارى	واختبارى	١٣٥	٧
أصاب	أأصاب	١٥٦	الهامش
اليو	اليومَ	١٥٩	٦
إليهم	إليهمو	١٥٩	١٤
الأمربكى	الأمريكى	١٧٦	٨


Bibliotheca Alexandrina
0380692